السُّرعة والسِّياسة

من ثورة الشارع إلى الحق في الدولة

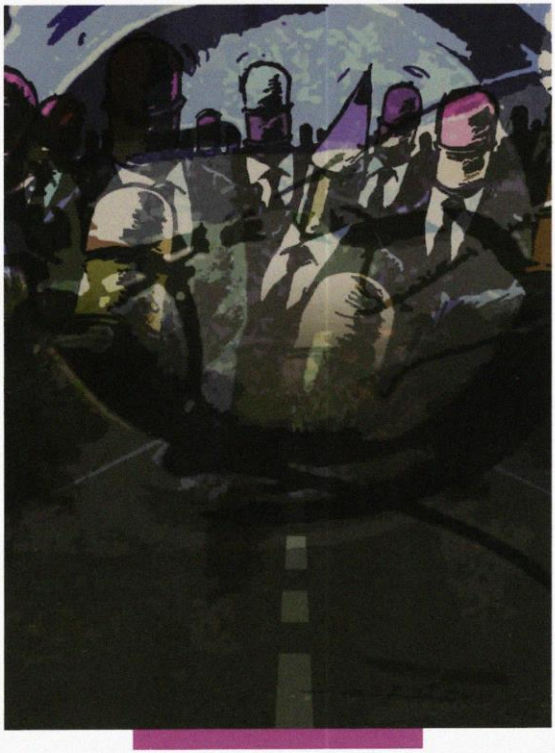

بول فيريليو

ترجمة وتقديم: د. محمد الرحموني

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

السرعة والسياسة

السرعة والسياسة

من ثورة الشارع إلى الحق في الدولة

مقالة في الدرومولوجيا

بول فيريليو

ترجمة وتقديم

د. محمد الرحموني

الشبكة العربية للأبحاث والنشر
ARAB NETWORK FOR RESEARCH AND PUBLISHING

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

بيروت ـ المكتب الرئيسي:
رأس بيروت، المنارة،
شارع نجيب العرداتي
ص.ب: ٥٢٨٥ ـ ١١٣ حمرا ـ بيروت
١١٠٣٢٠٣٠ ـ لبنان
هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧
محمول: ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧
E-mail: info@arabiyanetwork.com

بيروت ـ مكتبة
السوليدير، مقابل برج الغزال،
بناية المركز العربي
هاتف: ٠٠٩٦١١٩٩١٨٤١

القاهرة ـ مكتبة
وسط البلد، ٢٢ شارع عبد الخالق ثروت
هاتف: ٠٠٢٠٢٢٣٩٥٠٨٣٥

الاسكندرية ـ مكتبة
عمارة الفرات،
٢٤ شارع عبد السلام عارف
هاتف: ٠٠٢٠١٢٠٥٢٨٩٦٨٥

الدار البيضاء ـ مكتبة
٢٨ زنقة روما، تقاطع شارع
مولاي إدريس الأول
هاتف: ٠٠٢١٢٥٢٢٨٠٦٨٨٧

تونس ـ مكتبة
١٠ نهج تانيت، نوتردام،
قبالة وزارة الخارجية
هاتف: ٠٠٢١٦٥٠٨٣٠٥٥٤

اسطنبول ـ مكتبة
حي الفاتح، شارع الخرقة الشريفة،
المتفرع من شارع فوزي باشا
هاتف: ٠٠٩٠٥٥٣٦٩٥٣٤٧٧

الفهرسة أثناء النشر ـ إعداد الشبكة العربية للأبحاث والنشر

فيريليو، بول

السرعة والسياسة: من ثورة الشارع إلى الحق في الدولة، مقالة في الدروموليوجيا/ بول فيريليو؛ ترجمة وتقديم محمد الرحموني.

١٧٦ ص.

بيليوغرافية: ص ١٧٥ ـ ١٧٦.

ISBN 978-614-431-155-4

١. السرعة ـ فلسفة. ٢. الأحوال الاجتماعية. أ. الرحموني، محمد (مترجم ومقدم). ب. العنوان.

300

«الآراء التي يتضمنها هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن وجهة نظر الشبكة العربية للأبحاث والنشر»

Vitesse et Politique

De Paul Virilio

© Editions Galilée, 1977

جميع حقوق الترجمة العربية والنشر محفوظة حصراً للشبكة العربية

الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٧

المحتويات

مقدمة المترجم ٧

القسم الأول: الثورة الدروموقراطية أو سلطة السرعة ١٧

الفصل الأول: من الحق في الشارع إلى الحق في الدولة ١٩

الفصل الثاني: من الحق في الطريق إلى الحق في الدولة ٤٣

القسم الثاني: التطوّر الدرومولوجي أو تطوّر علم السرعة ٥٣

الفصل الثالث: من الحق في الفضاء إلى الحق في الدولة ٥٥

الفصل الرابع: الحرب العملية ٦٧

القسم الثالث: مجتمع السرعة ٧٥

الفصل الخامس: الأجساد العاجزة ٧٧

الفصل السادس: عقلنة الأجساد الحية ٨٩

الفصل السابع: نهاية البروليتاريا ١٠٩

الفصل الثامن: الأمن بضاعة مستهلكة ١٣١

القسم الرابع: حالة الطوارئ ١٤١

قائمة المصطلحات ١٥٩

المراجع ١٧٥

مقدمة المترجم

أولاً: عن الكتاب

يختصر هذا الكتاب كلّ فلسفة بول فيريليو المتمحورة حول «ظاهرة» السرعة. لقد اشتهر أمره في الأوساط الفكرية والفلسفية منذ أكثر من أربعة عقود بكونه «فيلسوف السرعة». ولكن فيريليو جاء إلى «فلسفة السرعة» من باب الهندسة المعمارية والتخطيط العمراني، أي من باب الاهتمام بالمجال وبالفضاء الحضريين. وبالفعل، فلمّا كانت المدينة مجالاً تشقه وسائل نقل واتصال، فإنّ تطوّر سرعة هذه الوسائل ما فتئ يغيّر كل المعطيات والمفاهيم المتعلقة بها، فكلما تزايدت سرعة وسائل النقل والاتصال تقلّص المكان والزمان وتغيّر مفهوم السفر والهجرة وكل ما تعلق بهما، إلّا أنّ أهم مجال تأثر بتطور السرعة هو المجال السياسي، وتحديداً السلطة السياسية. لقد أضحت السرعة، بارتباطها بوسائل النقل والاتصالات، مولدة للسلطة؛ فعلى مدى التاريخ كان الأسرع هو الأكثر سلطة، وكلّ من ملك وسائل ومعدات أسرع ازداد نفوذه وازدادت ثروته. وبلغة أوضح، لقد انكشفت السرعة اليوم سلطةً وثروةً ترتكز عليهما الدول والمجتمعات الحديثة.

هذا التصوّر الجديد لعلاقة السرعة بالسلطة عموماً وبالسلطة السياسية تحديداً استدعى مفاهيم جديدة تكفّل المؤلف بنحتها، أهمها «الدرومولوجيا» Dromologie (علم السرعة)، و«الدروموقراطية» Dromocratie (سلطة السرعة)، و«الاستيطان السائل» Circulation habitable؛ كما استدعى تصوّراً جديداً للدولة ووظيفتها، إذ أضحت مركزاً لإدارة حركة المرور Voirie. لقد شكلت هذه المفاهيم متضامنة ظاهرة الحرب باعتبارها التجلي الأساسي للعلاقة الجدلية بين السلطة والسرعة والثروة.

لم يتناول فيريليو الحرب من زاوية تاريخية، بل تناولها باعتبارها بعداً أصلياً من أبعاد المجتمع لم ينفك عن التطوّر، فإذا كانت الحروب البدائية قد ركزت على الجانب التكتيكي فإن ظهور المدينة ومعها السلطة السياسية قد نقل الحرب من مرحلة التكتيك إلى مرحلة الاستراتيجيا، أي مرحلة الفكر العسكري والإعداد المسبق للمعارك. ومع التطور المذهل لوسائل النقل والاتصال وظهور الأسلحة الباليستية والسلاح النووي انتهى التفكير الاستراتيجي، إذ لم يعد له فائدة ولا معنى، ودخلنا مرحلة اللوجستيك. كل هذا التحوّل الضخم حصل بفضل تطوّر «علم السرعة» وبالنتيجة ازدياد «سلطة السرعة»، ولكن نتائجه كانت مدمرة للإنسان وللطبيعة.

لمّا كانت السياسة مرتبطة بالمجال الترابي Territoire، فإنّ كلّ الحقوق مرتبطة بامتلاك المكان، فمن يمتلك المكان يمتلك الحقوق، ومن لا مكان له لا حقوق له. من يمتلك الشارع يمتلك السلطة، فهو الموضع الأول الذي تنغرس فيه «شجرة الحكم» لذلك كان على الدوام ميدانَ المعركة الأول بين الساعين إلى السلطة والمتمسكين بها. بعد الشارع يأتي الطريق، ثم البرّ فالبحر فالجوّ.. فكلما ازدادت سرعة وسائل النقل والاتصالات ازداد حجم المكان وتضخمت الحقوق. وهكذا انتقل الأوروبيون من الحق في الشارع إلى الحق في الطريق إلى الحق في الفضاء الأرضي إلى الحق في البحر إلى الحق في الفضاء الجوي؛ فاختراع أسطول الردع The fleet in being على سبيل المثال مكّن الإنكليز من السيطرة على البحار وجعلهم سادة العالم في القرن التاسع عشر، كما أن اختراع الأسلحة الباليستية والطائرات المقنبلة الاستراتيجية مكّن الأمريكان والروس من السيطرة على الفضاء الجوي ومن ثَمّ تقاسموا العالم في القرن العشرين.. ولكن كلّ هذه الحقوق أفضت في النهاية إلى «الحق في الجريمة».

إنّ الانتقال من مرحلة الاستراتيجيا إلى مرحلة اللوجستيك كان انتقالاً كارثياً. في حروب الإنسانية الأولى، وقبل تزايد السرعة، كان المكان/الميدان سيّد الموقف؛ إذ كان يمكن اتقاء الرمح أو النبل أو رمية المنجنيق بالدرع وبالخندق وبالسور، فسرعة هذه المقذوفات كان مقدوراً عليها؛ ولكن الأمر اختلف فيما بعد نظراً لتزايد سرعة المقذوفات مع اختراع الغربيين أسلحة جديدة تضاهي سرعتها سرعة الصوت أو تخترق جدار الصوت، بل

وتقترب من سرعة الضوء. وبذلك تمت إبادة المكان نهائياً؛ فلم تعد الحرب ولا الردع مرتبطين بتطوير الاستراتيجيات الحربية، بل بتطوير الأسلحة وتجويدها وبتطوير بنية اجتماعية مناسبة. في ظل هذا الوضع أضحى الاقتصاد الغربي «اقتصاد حرب»، وأضحى المجتمع الغربي مجتمعاً «دروموقراطياً». وبالفعل تنامى الاقتصاد العسكري على حساب الاقتصاد المدني، ولا أدل على ذلك من استحواذ السلطات العسكرية في أوروبا على الشأن المدني، فأغلب المشاريع الاقتصادية الكبرى تكفلت بها الجيوش (وفي الكتاب فائض من الأمثلة والوقائع والمعطيات)، ولا غرابة في ذلك فالمؤلف لا يرى في تاريخ الغرب سوى تاريخ تطوّر المؤسسة العسكرية، فكل ما حصل في أوروبا على مدى التاريخ إنما كان بتدبير الجيوش، بما في ذلك الثورات، وخصوصاً ثورة ١٧٨٩. والنتيجة الأبرز في هذا المجال هو «نهاية البروليتاريا»؛ فلم يعرف الغرب، كما يزعم الماركسيون، بروليتاريا بالمعنى العلمي للكلمة، وإنما عرف بروليتاريا صناعية كانت تنتج ما يحتاجه اقتصاد الحرب، وبروليتاريا عسكرية تُوظَّف في القتل والتدمير. أمّا بخصوص المجتمع، المجتمع الحضري بالطبع، فالأمر أشد وأفظع:

ـ لقد أدّى تطور السرعة إلى إلغاء مفهوم المكان (وما يتعلق به من سفر وهجرة وتجوال وتعارف..)، وبذلك انسلبت الأرض وضاعت من تحت أقدام الغربيين (Deterritorialisation)، ولم يعد للمسكن وللسكن والاستقرار من معنى. فإذا كانت المجتمعات الحضرية القديمة مجتمعات مستقرة فإنّ التطور التكنولوجي المذهل، خصوصاً في مجال وسائل النقل والاتصال، قد جعل سكان المدن بمثابة «بدو مستقرين» «وحضر ظاعنين»؛ فالهواتف والحواسيب المحمولة والكاميرات وغيرها تجعل قسماً من سكان المدن لا يحتاجون إلى مقر ثابت، فهم يجدون في المطارات ومحطات القطارات ومفترقات الطرق ومدارج العمارات.. إلخ «مستقرات متنقلة»؛ وأمّا المقيمون في مبيتات المصانع ومراكز الإيقاف وأحياء الصفيح فهم بمثابة حضر متنقلين أو متبدّين بعبارة ابن خلدون. هذه الحالة سماها المؤلف Circulation habitable، ونحتنا لها عبارة عربية هي: «الاستيطان السائل».

ـ أضحت السرعة في هذه المجتمعات وسيلة ترقٍّ اجتماعي؛ فلمّا كانت المكانة الاجتماعية في المجتمعات الغربية منذ العصر الإغريقي مرتبطة بنوعية

وسائل النقل والاتصال التي يمتلكها كل فرد أو مجموعة أو طبقة، فالأسرع هو الأرقى في السلم الاجتماعي. يتساءل المؤلف بإنكار: ماذا يبقى للغربي اليوم لو سحبنا منه دراجته أو سيارته أو هاتفه أو حاسوبه؟ قطعاً.. لا شيء. هذه العلاقة بين السرعة والثروة والمكانة الاجتماعية سماها المؤلف Dromocratie، وترجمناها بـ «سلطة السرعة».

ـ تمكّن السرعة من هذه المجتمعات استغلته السلطة السياسية على أحسن وجه لتوطيد سلطتها. وفي هذا السياق وظّفت القدرات الحركية لأفراد المجتمع بحسب ما اقتضته الظروف، فلكي تتخلص الثورة الفرنسية من «مواطنيها» وجّهتهم نحو الطريق، مقترحة عليهم نشر أفكار الثورة في العالم في الوقت الذي كان فيه زعماء الثورة يمتلكون العقارات بما تعنيه من استقرار، والسياسة نفسها اعتمدتها السلطات النازية عندما صنّعت سيارة «الفولسفاغن»، إذ وهبت الطريق للجميع حتى تتجنب تملكهم الشارع. وفي الحالة العكسية ـ أي عندما احتاجت تلك السلطات إلى تلك القدرات الحركية ـ وظفتها كما ينبغي، إذ لم تكتفِ بتوظيف البروليتاريا في المركّبات الصناعية ـ العسكرية وفي الحروب، بل تعدت ذلك إلى تأهيل الأجساد المعطوبة، عن طريق تطوير فن جراحة العظام Orthopédie وفن الجراحة الترقيعية والآلات المساعدة Prothèse وصناعة الروبوتات، إلى درجة أنه شاع ولع كبير داخل هذه المجتمعات بالأجساد البيو ـ تقنية على الرغم ممّا تنطوي عليه من تدمير للطبيعة والإنسان.

هكذا كانت الحرب التجلي الأبرز لعلم السرعة ولسلطة السرعة. وهذه الصورة خاصية غربية بامتياز، فلم يعرف الغرب ثورة صناعية كما هو شائع بل ثورة دورمولوجية، ولم يعرف الغرب الديمقراطية (سلطة الشعب) بل الدروموقراطية (سلطة السرعة). وإذا كان أرسطو قد قال إنّ السياسة هي محرك التاريخ، وأضاف ماركس إلى ذلك صراع الطبقات فإنّ الخلاصة التي انتهى إليها فيريليو تجعل من الحرب المحرك الفعلي للتاريخ، فـ «إن ما يجعل الحرب (باعتبارها مشروعاً متجانساً نشيعه في الزمان والمكان ونعيد إنتاجه على الدوام لنفرضه متى أردنا على خصمنا) محركاً للتاريخ ليس كونها أداة بل كونها مصدر خطاب كلياني في التاريخ. هذا الخطاب هو السعي المشترك بين الدول الأوروبية وبقية العالم نحو الجوهر المطلق للحرب،

الذي هو السرعة. وبذلك يتخذ هذا السعي معنى السيطرة المطلقة للعقل العسكري الغربي على التاريخ الكوني. وهكذا لن يكون التاريخ الخالص سوى ترجمة للسبق الميداني الاستراتيجي المحض [لهذا العقل العسكري]. وبالنتيجة ستنحصر قوة هذا التاريخ في الريادة والانتصار على الآخرين، وسيتحول المؤرخ إلى قائد حرب الوقت». لذلك يسخر المؤلف من تلك الأصوات الفزعة من عودة الفاشية إلى أوروبا، فالفاشية لم تغب عن أوروبا حتى نخشى عودتها، فهي من أهم الثورات الثقافية التي عرفها الغربيون.. إنها ثاوية في علم السرعة وفي سلطة السرعة، وليس من باب المصادفة أن كان الفاشيون، أمثال مارينتي Marinetti ومدرسته «المستقبلية»، أولَ من تغنى بالسرعة منذ عشرينيات القرن العشرين.

ولم تكن النتائج الكارثية لتنامي السرعة مقتصرة على مهدها الغربي، بل شملت كل المعمورة، فآثارها السلبية تقاس بحجم آثار «ريضنة العالم» Mathématisation du monde، فإذا كان داريوش شاياغان قد قيّم هذه الريضنة بكونها «تفقيراً أنطولوجياً» للعالم فإنه قياساً على ذلك نقول بأن السرعة هي «تفقير بيولوجي» للعالم؛ إذ لم تكتفِ هذه «الكارثة» بالقضاء على التنوع البشري فاختزلت البشرية في أمتين اثنتين وحسب: أمة التفاؤل والقوة والسلطة (الغرب) وأمة الإحباط (بقية العالم)، بل تعدت ذلك إلى تفريخ أصناف لا تعد ولا تحصى من المهمشين والمقصيين والمنفيين بحكم عدم قدرتهم على امتلاك المكان، فمع تطور وسائل النقل اقتصر الحق في الفضاء على حقوق جزئية غير متعينة وغير ثابتة، كالحق في الممرات المائية والجوية، والحق في مدارات الأقمار الصناعية، فلم يعد للإنسان سكن يمتلكه، بل مسلك وحسب، لقد أضحى بدوياً أو متبدياً لا يملك حركة ولكن مجرد سرعة، فليس له مكان ثابت. ويمثل الفلسطينيون أبرز ضحايا هذه «الثورة الدرومولوجية»، فلم يتم تجريدهم من حقوقهم وحسب بل من أي فضاء يطالبون من خلاله بهذه الحقوق (سياسات التشريد والنفي)، فكان أن بحثوا عمّا يعوّضهم عن فقدان المكان فاستوطنوا مواعيد السفر وساعات الصفر في المطارات ومحطات القطارات (اختطاف الطائرات المدنية في السبعينيات). ولكن أبرز مظهر لهذا «التفقير البيولوجي» هو أننا «أشرفنا على حافة وضعية حرجة قد تُبطل فيها (دولة الطوارئ) كلّ إمكانية لفعل سياسي

بشري حقيقي، وقد تُلغى فيها كل الاتصالات الهاتفية بين رجال الدولة ليُستعاض عنها بتواصل أنظمة الحاسوب بعضها ببعض، فهي آلات حديثة بإمكانها إعداد الاستراتيجية ومن ثَمَّ السياسة».

ولتجاوز الآثار السلبية لتنامي «كارثة السرعة» يقترح فيريليو اقتصاداً سياسياً للسرعة une économie politique de la vitesse، وبالخصوص «علم بيئة الوقت» une écologie du temps. والحل يبدأ بالتصالح بين الفلسفة والعلم بكل فروعه، وخاصة العلوم الإنسانية؛ فقد بدأت مشكلة السرعة في رأيه عندما انعدم التفاهم بين أينشتاين Einstein وبرغسون Bergson، فالأول كان يتحدث عن «السريع» le vite وعن الخلاء الفيزيائي، في حين كان الثاني يتحدث عن الحي le vif وعن سرعة الكائن الحي.

ثانياً: عن الترجمة

هذا كتاب صعب بشهادة الفرنسيين أنفسهم[1]، وتتأتى صعوبته من جهات عدة:

ـ من الصعب تصنيف الكتاب، فهو «خليط» من البحث الأكاديمي والنزعة الروائية والتأملات الفلسفية. فلئن كان المؤلف يحيل أحياناً على مصادره فقد كانت تلك الإحالة في الغالب مبتورة، فإن ذَكَرَ العنوان تغافل عن الطبعة، وإن ذكر الطبعة تغافل عن ذَكَرَ الصفحة... إلخ، مما يجعل العودة إلى هذه المصادر شبه مستحيلة. وإذا كان يحتاج إلى مثال أو حدث تاريخي يدعم به فكرته فإنه يرصّف (بل ويكدّس) ثلاثة أو أربعة أمثلة يجوب من خلالها التاريخ والمعارف، فينتقل بك بسرعة البرق من أسبرطة إلى الثورة الفرنسية، ومن الحرب العالمية الأولى إلى الحرب الأهلية في لبنان، ومن السياسة إلى السينما، ومن الاقتصاد إلى الألعاب الأولمبية... إلخ. والأخطر من ذلك أن عمله تحول بفعل هذه «القفزات الزمانية والمكانية» إلى رواية أو قصة تاريخية (على طريقة جورجي زيدان أو أمين معلوف) لا يمكنك فهمها إلا بالعودة إلى التاريخ؛ ولذلك سيلحظ القارئ كثرة التوضيحات والتفسيرات التي أضفناها في الهوامش. وتفسيرنا لذلك أن

(١) <http://www.leconflite.com/article-vitesse-et-politique-de-pau-virilio-37518697.html>.

المؤلف بصدد كتابة أفكار وتأملات فلسفية جديدة، وكل جديد بحاجة إلى توضيح وتبسّط في الكتابة.

ـ طريقة الكتابة مسترسلة كما لو كان الكتاب محاضرة أو خطبة، فزيادة على قلة العناوين الفرعية، إذ اكتفى المؤلف بعناوين الأقسام والفصول، لم نلحظ لديه اهتماماً صارماً بالتنقيط، فبعض جمله يبلغ طولها صفحة كاملة، وقد كان بالإمكان تقسيمها إلى مجموعة من الجمل المستقلة. ومن ناحية أخرى لم يولِ المؤلف (وربما الناشر) أهمية للكتابة بحرف التاج Majuscule في المواضع الضرورية، فعناوين الفصول الثلاثة الأولى كُتبت بطريقة خاطئة، فعبارة état التي تعني حالة أو وضع.. تصبح بمعنى الدولة إذا كُتبت بحرف التاج Etat، وعلى الرغم من أنّ الأمر تعلق في الفصول المذكورة بـ «الدولة» فقد كتبت العبارة من دون حرف التاج. وازداد الأمر غموضاً في القسم الرابع المعنون بـ état de siège، فمضمون القسم يحتمل الأمرين: «حالة الطوارئ» و«دولة الطوارئ»، بدليل أنه استعمل العبارتين في متن القسم وكتبهما بالطريقة السليمة. ولمواجهة هذه الصعوبة عمدنا إلى إعادة تنقيط النص الفرنسي ومن ثُمَّ الزيادة في فقراته والتصرف فيها، ثُمَّ الفصل بين المعاني التي كانت متلاصقة ومكدسة بفعل غياب التنقيط.

ـ الكتابة الفلسفية تعني نحت المفاهيم، ولذلك عجّ الكتاب بالمفاهيم والمصطلحات، بعضها منحوت كلياً والبعض الآخر جزئياً. ولقد سعينا جهدنا إلى إيجاد مقابل لهذه المنحوتات، وقد كتبنا ما نزعم أنه من إبداعنا بخط غليظ في قائمة المصطلحات، ولكن الصعوبة لا تكمن في النحت بل في اتساع منابت هذه المصطلحات، فليس هناك حقل معرفي أو علم لم يستثمره المؤلف (التاريخ، والجغرافيا، والجيولوجيا، وعلم الأرصاد الجوية، وعلم البحار، والفيزياء، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، والفلسفة، والأدب، وعلم السلاح، والحرب، والهندسة المعمارية، والأتنولوجيا، وعلم الاقتصاد... إلخ)، وليس هناك عصر لم يمرّ به في رحلة القبض على «علم السرعة».. ولكل عصر لغته ومصطلحاته. ويكفي القارئ النظر في قائمة المصطلحات (وقد اختصرناها) ليدرك حجم هذا الاكتظاظ المصطلحي. وفي الكتاب أمثال وحكم كان لا بد لنا من البحث عن أمثال وحكم عربية مقابلة لها ولو بصورة تقريبية.

ثالثاً: على سبيل الخاتمة

هذا هو الكتاب الثالث الذي نترجمه بعد «**ما الثورة الدينية؟**» لداريوش شاياغان و«**تاريخ الحب**» لسيناك مونكو، ونحن نأمل من ترجمته أن يتعرف القارئ العربي إلى «فيلسوف السرعة» بول فيريليو مباشرة، فقد اقتصر الأمر، في حدود علمنا، على ترجمة كتابه **ماكينة الإبصار** *La Machine de vision*[٢]، التي لم يسعفنا الحظ بالاطلاع عليها، وعلى جملة من المقالات التعريفية بالمؤلف وفلسفته أهمها مقالات الفلسطينية أماني أبو رحمة.

وفي الختام نقدم كل الشكر للأستاذ محمد الحيزاوي الذي تكفّل بمراجعة النص العربي وأفادنا بملاحظاته القيّمة.

تونس في ٧ كانون الأول/ديسمبر ٢٠١٦

(٢) بول فيريليو، **ماكينة الإبصار**، ترجمه حسان عباس (دمشق: دار المدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١).

لا أودّ أن أكون من الناجين

جان مرموز

القسم الأول

الثورة الدروموقراطية(*)
أو
سلطة السرعة

(*) عبارة Dromocratie (دروموقراطية) من نحت المؤلف، وهو مفهوم مكوّن من عبارتين إغريقيتين: الأولى (Dromos) وتعني السباق أو السرعة، والثانية Cratos (أو Kratos) وهو إله القوة والسلطة في الميثولوجيا الإغريقية. ومن ثَمَّ فالدروموقراطية هي سلطة السرعة التي أضحت تتحكم في حياة المجتمعات الحديثة والمعاصرة. فإذا كانت الديمقراطية هي سلطة الشعب فإن الدروموقراطية هي سلطة السرعة (المترجم).

الفصل الأول

من الحق في الشارع إلى الحق في الدولة

هذا الحشد من الأفراد الذي تبرزه للعيان أصغر وحدة عسكرية لهو موحّد في سفر جماعي.

كلاوزفيتش ١٨٠٦

نسجّل في كلّ الثورات حضوراً عجيباً لحركة المرور، ففي شهر حزيران/يونيو من سنة ١٨٤٨ لاحظ أنجلز Engels أنّ «أولى التجمعات [الثورية] حدثت وسط الشوارع الكبرى لمدينة باريس **حيث تضطرب الحركة أيّما اضطراب**. وبعد أقل من قرن لاحظ فيبر Weber أنّ اختفاء روزا لكسمبورغ Rosa Luxemburg وكارل ليبكنخت Karl Liebknecht[1] بدا وكأنه نتيجة تصادم أو اشتباك في الطريق، فكتب بشأن موتهما: «لقد تناديا إلى الشارع فابتلعهما»[2]. ولذلك فليس الحشد شعباً ولا مجتمعاً وإنما هو جمهور المارة، والعُصبة الثورية لا تكتمل صورتُها في مواقع الإنتاج ولكن في الشارع، وذلك عندما تكف لفترة ما عن أن تكون [مجرّدَ] ترس مسنن

---

(١) روزا لكسمبورغ مناضلة ماركسية ألمانية من أصول بولندية ولدت سنة ١٨٧١. نشطت في الأحزاب الاشتراكية والشيوعية الألمانية قبل أن تؤسس صحبة كارل ليبكنخت (رجل سياسي ألماني قُتل سنة ١٩١٩) سنة ١٩١٦ «عصبة سبارتاكوس» (Ligue spartakiste) التي شكلت نواة الحزب الشيوعي الألماني. عُرفت بعدائها للحرب ونقدها للماركسية السوفياتية، وكانت صاحبة نظرية الإضراب العام. اغتالتها مجموعة يمينية متطرفة سنة ١٩١٩ وأُلقيت جثتها في قناة لاندوي. تُرجمت مؤلفاتها إلى العربية، ومن أهمها: **ما هو الاقتصاد السياسي؟**، **وإصلاح اجتماعي أم ثورة؟**، **والإضراب الجماهيري والحزب السياسي والنقابات**. لمزيد من التفاصيل حول نضال روزا لكسمبورغ وفكرها، انظر: مازن الحسيني، **قراءة في فكر روزا لكسمبورج** (رام الله: دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع؛ المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، ٢٠٠٥) (المترجم).

(٢) اخترنا هذه العبارة لأنها تناسب ظروف اغتيال روزا، إذ رميت جثتها في قناة لاندوي (Landwehr kanal) (المترجم).

داخل الآلة، بل وتصبح هي نفسها محرّك الآلة (آلة هجوم)، أي تصبح **مولّدة للسرعة**.

ومن ثمة تمثل باريس، عالى سبيل المثال، بالنسبة إلى جموع البطّالين والعمال المسرّحين من الجندية، والذين ظلوا بلا عمل، رقعةً من المسارات وسلسلة من الطرقات والشوارع يهيمون فيها أغلب الوقت عرضة لقمع الشرطة المكلفة بمراقبتهم في/تشردهم. وهذا الموقف نفسه نجده لدى مختلف المجموعات الثورية **والأباتشي** *les apaches*[٣] وغيرهم من المشبوهين سكان ضواحي باريس، إذ يفضلون عند الاقتضاء **لزوم الشارع** على الاستيلاء على مبنى ما.

وفي سنة ١٩٣١ أثناء المعارك التي خاضها القوميون الاشتراكيون ضد الأحزاب الماركسية في العاصمة برلين كتب جوزيف غوبلز *Joseph Goebbels*[٤]: «من يستطع السيطرة على الشارع يسيطر في الآن نفسه على الدولة»[٥]. فهل يكون الإسفلت هو ميدان العمل السياسي؟ وهل تمارس الدولة البورجوازية سلطتها في الشارع أم على الشارع؟ وهل تمتد سلطتها الكامنة وهيمنتها إلى الأماكن ذات الكثافة الحركية، وإلى طرق النقل السريعة؟

يجيب عن ذلك غوبلز، فقد كتب بشأن معارك السيطرة على برلين: «إن المناضل المثالي هو المقاتل السياسي الناشط في كتيبة القمصان البنيّة[٦] باعتبارها **حركة [وطنية]**... يطيع قانوناً لا يعرفه أحياناً ومع ذلك يمكنه أن يحفظه عن ظهر قلب.. وبهذه الطريقة **أطلقنا** كائنات شديدة الحماسة من عقالها».

---

(٣) عمدت الصحف الباريسية إلى إشاعة هذه العبارة عقب مهاجمة مجموعة من المنحرفين مركبة حضرية في شارع بانيولات Bagnolet، وكانت «ذات القبعة الذهبية» «casque d'or» مدبّرة الهجوم.

(٤) بول جوزيف غوبلز (١٨٩٧ ـ ١٩٤٥) وزير الدعاية السياسية في عهد أدولف هتلر. عُرف بقدراته الخطابية. ترك مؤلفات عديدة أهمها مذكراته (المترجم).

(٥) [وردت القولة في كتابه] معركة برلين *Kampf um Berlin* الذي نُشر قبل عامين من استيلاء القوميين الاشتراكيين على السلطة سنة ١٩٣١، وقد أهداه إلى «حراس الحزب القدامى من أهل برلين».

(٦) وتُسمّى أيضاً «كتيبة العاصفة» (Sturmabteilung)، المعروفة اختصاراً باسم (Section d'Assaut) SA: هي الجناح شبه العسكري للحزب النازي. وقد لعبت دوراً في صعود هتلر إلى السلطة (المترجم).

لقد كان غوبلز يقارب بطريقة علمية مفردات خطبه المختلفة، تلك التي ألقاها في المقاطعات وتلك التي ألقاها لاحقاً في برلين، فتبين له أنّ «هذا الخليط الاجتماعي عديم الشكل» في العاصمة برلين قد أوجب استحداث «لغة جديدة لمخاطبته»، «[فإذا كانت] هذه العاصمة ذات الأربعة ملايين نسمة تهتز [سابقاً] عبر خطب رجال الدعاية مثل نَفَس ملتهب، فإننا نخطب اليوم فيها بلغة جديدة وحديثة لا علاقة لها بأساليب التعبير القديمة والشعبوية. إنها بداية أسلوب فني غير مسبوق وتدشين لأسلوب تعبير **منعش ومثير**»[٧].

إنّ تمرّد الحشود الهائجة يعيد تشكيل سَمْتِها (المعنى الأصلي لكلمة **الحشد الهائج** meute يرتبط بالصيادين النهابين)، فقيادة جموع «الجنود الهاربين» من صفوف جيش العمّال، أولئك **الهائمين على وجوههم** Dromomanes[٨] إنّما تهدف في عرف الزعيم، وبعبارة سان جوست Saint-Juste، إلى «تجميعهم وتهييجهم مثل كلاب الصيد». يعني ذلك دفع الحشود الهائجة عبر أساليب تنشيطية مبتذلة، إلى السير على إيقاع سمفونية للجدل والشجار تنتقل من مكان إلى مكان، ومن شخص إلى آخر، بألوان باهتة ونغمات متنافرة كما لو كانت إشارات وتعليمات مرورية تهدف إلى تسريع التصادم والاشتباك بين مستعملي الطريق[٩]. إنّ كل ذلك يشكل منتهى الهدف من التظاهر في الطريق ومن الاضطرابات في المناطق الحضرية.

ويضيف غوبلز، مؤسس القطاع السمعي البصري في ألمانيا: «ينبغي أن تتمّ الدعاية بطريقة مباشرة بوساطة الصوت والصورة لا بوساطة الكتابة»، لأنّ زمن القراءة يتطلب وقتاً للتفكير، وبُطْأه كفيل بتحطيم الفعالية الحيوية للجماهير. فلو اتفق أن غزت الجماهير الهائجة مبنى ما فسيتحوّل سريعاً إلى

---

(٧) بالعودة إلى كتاب غوبلز معركة برلين: Joseph Goebbels, *Combat pour Berlin* (Paris: Rémi de Rancourt pour les éditions J.D-MSR, 2004),

تبين لنا أنّ المؤلف يختار جملاً متفرقة من الكتاب ويكوّن منها فقرات «متناسقة»، فالفقرة موضوع الإحالة تتكون من جملتين وردتا ص٢٣ ومن جملة وردت ص٢٢. وإضافة إلى ذلك عمد المؤلف إلى التصرف في هذه الجمل بتغيير بعض مفرداتها (المترجم).

(٨) الهائمون (Dromomanes) تسمية أُطلقت على الهاربين من الجندية في فترة الحكم الأرستقراطي في فرنسا. وفي الطب النفسي تطلق على النائم الماشي.

(٩) Filippo Tommaso Marinetti, *Commentaire de Giovanni Lista*, coll. «Poètes d'aujourd'hui» (Paris: Éditions Seghers, 1976).

موضع عبور يغدو فيه الناس ويروحون، يجلبون إليه ويأخذون منه ما يشاؤون، فيختلط الحابل بالنابل ويصير النهب هدفاً في حدّ ذاته، كما حصل سنة ١٩٧٥ عندما سقطت سايغون Saïgon.

يوجد على مدى التاريخ ترحّلٌ ثوري غير معلن وغير معترف به، هو بمثابة **أوّل وسيلة نقل جماعية** يتم استحداثها. وبطبيعة الحال ليست هذه الوسيلة سوى الثورة نفسها. وهكذا فإنّ الاعتقاد القديم بأنّ «كل ثورة لا تقوم إلا في المدينة» إنما مصدره المدينة. وإنّ عبارة «دكتاتورية كومونة باريس» التي استعملت منذ أحداث سنة ١٧٨٩ لا ينبغي أن تدفعنا إلى التفكير في المقابلة التقليدية بين المدينة والريف قدر تفكيرنا في المقابلة بين السكون والحركة.

فعلى الرغم من مصداقية مخططات المدن فإنّ المدينة لم يُنظر إليها على أنها سكَن بشري تشقه وسيلة تواصل سريعة (نهر ـ شارع ـ شاطئ ـ سكة حديدية...). لقد تناسوا فيما يبدو أنّ الشارع ليس سوى طريق يشق تجمعاً سكانياً، في حين تذكّرنا كلّ يوم قوانين «الحدّ من السرعة»، سرعة المَرْكبات التي تجوب المدينة باستمرارية التنقل والحركة اللتين لا يعدّلهما سوى قانون السرعة.. ليست المدينة حينئذٍ سوى محطة استراحة، أو [مجرّد] نقطة في المسلك العام لمسار ما، فقد تكون رباطاً قديماً أو على قمّة جبل أو على الحدود أو الساحل حيث تظلّ الأنظار مشدودة بفعالية إلى سرعة تنقل المَرْكبات. ولقد سبق أن أكّدت منذ زمن أنه لا يوجد [في المدينة] سوى **الاستيطان السائل**[١٠] circulation habitable[١١] وعلى سبيل

---

(١٠) «Circulation habitable,» *Architecture Principe*, no. 3 (avril 1966).

(١١) يرى المؤلف أن الإيقاع السريع الذي يسم حياة المجتمعات في المدن المعاصرة، وخصوصاً المدن الغربية، لم يعد يسمح بالتمييز بين المساكن ومسالك حركة المرور. فإذا كانت المجتمعات الحضرية القديمة مجتمعات مستقرة فإن التطور التكنولوجي المذهل، خصوصاً في مجال وسائل النقل والاتصال، قد جعل سكان المدن بمثابة «بدو مستقرين» «وحضر ظاعنين»، فالهواتف والحواسيب المحمولة والكاميرات وغيرها تجعل قسماً من سكان المدن لا يحتاجون إلى مقر ثابت، فهم يجدون في المطارات ومحطات القطارات ومفترقات الطرق ومدارج العمارات... إلخ «مستقرات متنقلة»؛ وأمّا المقيمون في مبانٍ المصانع ومراكز الإيقاف وأحياء الصفيح فهم بمثابة حضر متنقلين أو متبدّين بعبارة ابن خلدون. إننا إذاً إزاء استيطان سائل هو بالتأكيد مظهر من مظاهر **الحداثة السائلة** التي تحدثّ عنها زيجمونت باومان (Zygmunt Bauman)، وقد ألهمنا هذا الكتاب القيّم عبارة «الاستيطان السائل» التي اخترناها مقابلاً لمفهوم (Circulation habitable) (المترجم).

المثال فهذا الأمر يظهر اليوم بشكل مخصوص في اليابان من خلال تلك المعارك الثورية الكبرى التي تُختزل إلى مجرّد تصادم أو تحريض على مواجهة شرطة المدينة، حيث تكون جموع المناضلين المدرّبين جيداً [على القتال] مسلحة بالمعدات السمعية البصرية من كاميرات محمولة وأجهزة تسجيل. إنّ وعي هذه الجموع بالطابع الحركي لعملهم هو الذي يدفعهم إلى تصوير لحظة حضورهم في الشارع، ومن ثمّ تسجيلها. والحال أنهم سيرحلون عنه في اللحظة الموالية، هم المارون الذين يتساوى عندهم منعهم من الوقوف مع منعهم من التجمهر. وبالطريقة نفسها تمّ تجاهل شعارات ثوار سنة ١٨٤٨ الذين كتب بشأنهم أنجلز: «لقد كانوا جمهوراً يائساً يطالب بالخبز والعمل أو الموت». وفي الحقيقة فإنّ كلمة السرّ لهذا «الجيش من العمّال» كما كانوا يسمّونهم، والذين كانوا يُنفَون إلى المستعمرات أو يجنّدون قسراً، هي: «**سوف نبقى هنا**»، و«**سوف نرابط هنا**». وبالفعل فقد وأدت ورشات التوسع العمراني المتنامية سرديات اشتراكية القرن التاسع عشر وديمقراطية الساحة اليونانية القديمة L'Agora، وذلك عندما حجب هذا التوسع العمراني الصبغة الأنتروبولوجية الأساسية للثورة ولظاهرة نشأة البروليتاريا، ألا وهي ظاهرة الهجرة.

[وفي هذا السياق] كتب آرثر يونغ[١٢] في مذكراته الشهيرة بتاريخ ٢١ أيلول/سبتمبر ١٧٨٨: «ما أن وصلتُ مدينة نانت Nantes حتى قصدت المسرح، وقد بُني حديثاً بحجارة بيضاء تسرّ الناظرين. كان اليوم الأحد ولذلك كان ممتلئاً. فقلت في نفسي: يا إلهي! ألأجل هذا المشهد قطعت ثلاثمئة ميل من البراري والفيافي والمستنقعات ومنابت زهور الخلنج والأخاديد؟ لقد تحوّلت فجأة من التسوّل إلى البذخ، ومن حياة البؤس في أكواخ الطين إلى السهرات الباذخة التي تكلف خمسمئة جنيه استرليني لليلة الواحدة!».

[هكذا] فإنّ المدينة الجديدة بثرائها وبخططها المتطوّرة الحديثة

---

(١٢) آرثر يونغ (١٧٤١ ـ ١٨٢٠) فلاح بريطاني اشتهر برحلته إلى فرنسا التي نُشرت لأول مرة سنة ١٧٩٢ تحت عنوان: Arthur Young, *Travels during the Years 1787, 1788 and 1789: Undertaken More Particularly with a View if Ascertaining the Cultivation, Wealth, Resources, and National Prosperity of the Kingdom of France* (London: [n. pb.], 1792).

وبجامعاتها ومتاحفها وبمحلاتها التجارية وأعيادها التي لا تنتهي وبرغد عيشها وبمعارفها وأمنها تبدو موضعاً ثابتاً تُلقي فيه الرحلات المضنية عصا الترحال، وآخرَ ميناء تستقر عنده موجات الهجرة الجماعية حاملة آمالها، بعد رحلة قاسية، إلى درجة أن الناس ظلّوا إلى حدود السنوات [القليلة] الماضية لا يميزون بين سُكنى المدينة والتحضّر، وإلى درجة أنهم اعتبروا المدينة فضاء للاجتماع والتثاقف في حين أنها ليست سوى محوّل طرقات أو سككٍ حديدية. لقد حسبوا تقاطع الطرق هذا سبيلاً يصعد نحو الاشتراكية.

وإذا كانت البلديات تؤجر عقاراتها بأثمان باهظة وتفرض ضرائب إضافية على النوافذ وواجهات المحلات فلأنّ كلّ هذه العناصر المعمارية المميّزة للسّكَن البورجوازي توفّر في العادة إرشادات وامتيازات تجارية؛ فالأكشاك الزجاجية للمومسات الهولنديات هي صورة معاصرة لتلك «الشرفات التقليدية» Bow-Window التي كانت توفر رؤية بانورامية تسمح بمراقبة الغادي والرائح. إنّ المشهد الرائع الذي يوفره الشارع هو حركة المرور، إنه [شيء يعدل] «رحلة الحاج» The Pilgrim's Progress[١٣]، ذلك الحج الذي ازدهر في العصر الوسيط باعتباره حركة موكبية متدرجة هي في الآن نفسه رحلة وتطوّر وسير يضارع التقدم نحو الأفضل[١٤]. يبدو الشارع كما لو كان شاطئاً جديداً، والسكنُ البورجوازي كما لو كان ميناء بحرياً نحدد انطلاقاً منه حجم الدّفق الاجتماعي ومن ثَمَّ نستعدّ له. إنّ بوابات المدينة ومصالح الضرائب والجمارك هي حواجز ومصافٍ للتحكم في سيلان الحشود ولمواجهة قدرات الجموع الهائجة المهاجرة على الاختراق. إنّ الشواطئ القديمة الموحلة والملوثة التي كانت تحوط المدن المحصنة، و«بطائح العبيد» في الولايات المتحدة الأمريكية[١٥]،

---

(١٣) يلمح المؤلف هنا إلى **رحلة الحاج**، وهي من أشهر الروايات الإنكليزية الكلاسيكية، ألفها جون بنيان (John Bunyan) (١٦٢٨ ـ ١٦٨٨) ونُشرت سنة ١٦٧٨. تحتوي الرواية مغامرات أحد عامة الشعب واسمه «كريستيان» Christian، كان يبحث عن سبيل للانتقال من «مدينة الخراب» إلى «مدينة الإله» (المترجم).

(١٤) *Pilgrim's Progress; La Cité à travers l'histoire* (Paris: Esprit, [n. d.]), p. 353, et Lewis Mumford, *La Cité prochaine* (Paris: Editions du Seuil, 1964).

(١٥) بطحاء الكونغو (Congo Square) (تحولت لاحقاً إلى حديقة عمومية)، هي ساحة في مدينة نيو أورليانز (New Orleans) الأمريكية، كانت قديماً سوقاً لبيع العبيد وأصبحت من بعدُ فضاء للموسيقى الأمريكية السوداء (المترجم).

وتحصينات ربض تيير Thiers القديمة حول مدينة باريس، وأحزمة المدن وأحياء الصفيح الفقيرة، أضف إلى ذلك التكايا والثكنات والسجون.. كل هذه الأماكن ليست حلاً لمشكلة العزل أو الإقصاء بقدر ما هي حلّ لمشكلة مرورية؛ فكلها أماكن عتمة تلعب دور الكوابح التي تمنع تسارع اجتياح الحشود للمدينة لأنها واقعة بين سرعتيْ عبور. لقد وُجِدت هذه الأماكن على طرق المواصلات البرية أو النهرية منذ البدء، ولاحقاً تمّ التعامل معها كبالوعات أو كمياه راكدة، ذلك أنّ توقف السيلان (التقدم) والغياب المفاجيء للقدرة على الحركة قد خلقا حتماً اختلالاً شبه عضوي لدى هذه الجموع. كتب بلزاك Balzac[١٦] بشأن هذه الأماكن: «إنها فضاءات بلا معنى، ممسوخة، تعشش فيها كل رذائل باريس وبلاياها». هكذا نشأت الضواحي باعتبارها مجالاً لإنفاذ قوانين المنع ومكاناً وزماناً خارج المدينة؛ بلغة أخرى، إنها مصبّ للتملص من عبء هذه المادة الاجتماعية والتخلص منها كما لو كانت بضائع أو أغذية، ومن هذه الماشية التي أضحت منذ آلاف السنين صورة طبق الأصل للبروليتاري العامل مقابل مؤونته وحسب: إنهم بمثابة الحيوانات الوحشية التي أضحت مسخّرة لحمل الأثقال وللحرب. وفي المحصلة فإنّ ظروف استغلال الحشود البروليتارية إنما تجسّد أيّما تجسيد المعنى الذي أعطاه جوفروي سانت هيلار Geoffroy Saint-Hilaire لعبارة الاستئناس Domestication:

«أن نستأنس حيواناً يعني أن نعوّده على العيش والتكاثر بين ظهرانينا». [وينتج عن هذا المعنى] أن «الحق في السكن»[١٧] ليس هو «الحق في المدينة»[١٨] كما زعموا، فحشود البروليتاريا الهائجة فوضوية،

---

(١٦) الملاحظ أن المؤلف عمد إلى كتابة الكلمة بطريقة تحيل على معناها الأصلي فهي تعني إيتيمولوجياً: «المكان حول المدينة حيث كانت السلطة السياسية تتلو مراسيمها ومناشيرها وإعلاناتها». والكلمة تتكون من مفردتين هما: ban وتعني المنشور والمرسوم والإعلان، وlieue أي المكان (المترجم).

(١٧) منذ منتصف القرن العشرين نصّت دساتير أغلب الدول الأوروبية على هذا الحق (في فرنسا مثلاً تمّ التنصيص دستورياً على هذا الحق منذ ١٩٤٦)، كما نصّ عليه «الميثاق الاجتماعي الأوروبي» الصادر في ١٨ تشرين الأول/أكتوبر ١٩٦١ بمدينة تورينو الإيطالية. ومن ثَمَّ نصّت عليه أغلب مواثيق حقوق الإنسان الدولية والإقليمية (المترجم).

(١٨) يشير المؤلف هنا إلى عنوان الكتاب الذي كتبه هنري ليفيفر (Henri Lefebvre) في =

مثلها مثل فصيل الحيوانات الوحشية، إنها تشكّل في حدّ ذاتها تهديداً، فهي ضارية وغير مأمونة؛ [كيف لا] وقد نُظر إليها على أنها «مستأنسة» تجتمع وتتناسل بالقرب من مساكن الآدميين وتحت أنظارهم. إنّ مشاكل **السكن** الإنساني الحقيقية تختلف جذرياً عن مشاكل هذه الأنعام البروليتارية، [فالسكن الإنساني لا علاقة له] **بإيواء** هذه الأنعام في إصطبلات القلاع وفي ضواحي المدن المحصنة. إنّ السكن غير الدائم لهذه الحشود المهاجرة يشي، شأن حظائر الماشية وزرائبها، بانفصالها النسبي عن سكن الآدميين، أي عن المدينة.

إن البورجوازية لا تستمدّ سلطتها الأصلية وميزاتها الطبقية من التجارة والصناعة (من المعلوم أن النشاط التجاري والصناعي لم يكن أبداً علامة مميزة للبورجوازية، فالجميع يعرف الدور الرئيسي لمؤسستي الرهبنة والفروسية في المجالين الصناعي والتجاري، إلخ..) بقدر ما تستمدها من **تموقعها الاستراتيجي الذي يمكنها من مقرّ ثابت بوصفها قيمة** (نقدية اجتماعية)[١٩] ناتجة عن المضاربة العقارية بوصفها بيعاً وتسويقاً للممتلكات الثابتة (immobill ier)، كما يمكّنها من الحق في أن تحتمي بأسوار المدن المحصنة ومن الحق في الأمن والمناعة وسط عالم المهاجرين الخطير من حجاج وتجار وجنود ومنفيين يتنقلون بالملايين.

=عام ١٩٦٠، أثناء فترة الاضطرابات والحراك المدني التي عرفتها فرنسا في تلك الفترة.. ومنذ ذلك الحين عملت مختلف الشبكات الاجتماعية، ومنظمات المجتمع المدني، ووكالات الأمم المتحدة، من أجل تفعيل هذا الحق المتمثل في حقّ الأفراد والجماعات في العيش في المدينة باعتبارها فضاءً حضرياً واجتماعياً يتنقلون فيه وعبره بكل حرية، ويختارون بحرية مكان إقامتهم مع ضمان وجود ما يحتاجونه من خدمات. وهكذا فإنّ الحق في المدينة لا يعني مجرّد الحقّ في الإقامة بها، بل الحقّ في أن تكون هذه الإقامة مريحة، أي الحقّ في سكن لائق وفي عمل يسدّ الحاجة وفي بيئة نظيفة. سياسياً يعني «الحق في المدينة» الاعتراف بحق كلّ فرد بأن يشارك في الحياة الحضرية باعتباره أحد سكّان المدينة دون أن يكون ذلك مشروطاً بالمواطنة، أي بالجنسية. ويعني هذا الحق من الناحية القانونية حقّ سكّان المدينة في تسيير مرافقها والاعتراض عمّا يمكن أن يخلّ بالسير الطبيعي للحياة فيها. وعموماً يرمي تفعيل هذا الحق إلى الممارسة الكاملة للمواطنة والتسيير الديمقراطي للمدينة وإبراز الوظيفة الاجتماعية للملكية. لمزيد من التفاصيل راجع الموقع الإلكتروني الآتي: <http://www.hlrn.org/img/documents/quiderighttotthecity_Ar.pdf> (المترجم).

(١٩) إن وجود العقار قد اعتُبر في حدّ ذاته كافياً قبل وجود المضاربة.

وانطلاقاً من سنة ١٠٧٧، ومع تأسيس بلدية كامبري Cambrai[٢٠] ستعمّ «الحريات الحضرية» شيئاً فشيئاً كلّ المدن التجارية. وقد أصبح من اليسير تحديد مواقع هذه المدن على الخريطة، فمن الناحية المنطقية تقع كلها على الطرق النهرية أو البريّة المهمة، في حين أنّ المناطق المعزولة مثل مقاطعة بريطانيا Bretagne والمرتفعات الوسطى لا توجد بها تجمعات سكنية، أو هي قليلة جداً. إن تأسيس السلطة البورجوازية في كامبري على إثر ثورة الأهالي يمكن اعتباره بمثابة «حرب تحرير وطنية»، بما أن المواجهة الميدانية كانت بين أبناء البلدة وغازٍ جاء من الشرق (من ألمانيا) ليدير شأن الأرض التي غزاها.

يتجسّد تأمين الحريات الحضرية قبل كلّ شيء في إعادة تهيئة الموقع الغالي ـ الروماني القديم على شاكلة القلعة، كما يتجسّد في تشييد هذه القلاع التي لا تخشى شيئاً من آلات الحرب المستخدمة، بل كلّ هلعها الدائم متأتٍّ من مباغتات ومناورات الحشود المترحلة الآتية من الخارج ومن الأقاصي. وإذا كان تخطيط السكن التقليدي قد اقتضى أن يحوّله المعمّر الإقطاعي إلى قصر مبني على رابية ترابية حيث تنتصب أسيجته الخشبية وسدوده الترابية لمواجهة الأخطار والكوارث الطبيعية جميعها، فإنّ هندسة بناء القلعة التي حلت محله قد تخلّت عن هذا الطابع الريفي وأضحت هندسة عسكرية خالصة. فهذه الهندسة لن تواجه سوى عدوّ وحيد هو المحارب. إضافة إلى ذلك فإنّ التشابه الظاهر بين القلعة القديمة والقلعة الوسيطة (حسب التحقيب الأوروبي) لا يلغي الاختلاف بينهما، فالقلعة المحصّنة الوسيطة تتيح بفضل التهيئة العمرانية لفضاءاتها الداخلية[٢١]، أي بفضل فتحات الرمي وكِوَى إطلاق النار والمماشي المتعرجة والجدران الشاهقة...، **إطالة مدى القتال إلى ما لا نهاية له**. إن مدن العصور الوسطى المسوّرة والمنيعة قد خلقت مجالاً اصطناعياً جعلت منه منصة أمكن من خلالها بث الرعب في نفوس الأعداء وتهديد سلامتهم الجسدية.. وسيثني

---

(٢٠) مدينة في شمال فرنسا عرفت تأسيس أوّل بلدية سنة ١٠٧٧ بعد صراع دموي بين سكانها والأسقف الألماني بيرنجر (Bérenger) عندما رفضوا دخوله المدينة (المترجم).

(٢١) Paul Virilio, *L'insécurité du territoire*, collection Monde Ouvert (Paris: Stock, 1976), p. 77 sqq.

فوبان Vauban، على غرار ماكيافل Machiavel، بحماسة على هذه الطريقة المؤدّية إلى **تجنب المواجهات الدموية وتحييد العدو** وذلك بمجرّد بناء فضاء طوبولوجي مكوّن من جملة من الآليات القادرة على استيعاب نمط محدد من الطاقة (ويتعلق الأمر في موضوعنا بطاقة الكتلة المتحركة لجموع المهاجمين) **وتحويلها، ومن ثَمَّ إعادة قولبتها في الشكل المناسب.**

لقد ظلت القلاع البلدية وقد هُيئت، وفق المبدأ نفسه، «حقلاً من الشراك» منصوبة للخصم، ولكن هذا الأخير يغيّر مرّة أخرى طبيعته؛ إنه قبل كلّ شيء عدوّ اجتماعي. وفضلاً عن الوظيفة العسكرية التي تؤديها الاستحكامات الدفاعية للقلعة فإنها تؤمن وظيفة متميزة تتمثل في كونها تتضمن فكرة الحصار التي تمكّنها من إطالة أمد المعركة الاجتماعية إلى ما لا نهاية. لقد تسببت البورجوازية البلدية في العصر الوسيط في بروز ظاهرة جديدة هي أشبه بحرب مستمرة بلا هوادة توحي بكل مظاهر الخمول التي نراها في حالة السلم، فقد انتهت تلك المشاهد الدموية المصاحبة للحرب الأهلية في العصور القديمة، وتلك القلاقل الموسمية والحوادث العنيفة في ساحة المعارك الريفية. إن سلطة البورجوازية هي سلطة عسكرية قبل أن تكون اقتصادية، أو هي بالأحرى سلطة حالة الحصار الدائم وغير المرئي، سلطة القلاع، **تلك الآلات الضخمة الصمّاء مختلفة الأشكال**[٢٢] ومن ثَمَّ فإنّ تدهور بورجوازية الجيوب الداخلية للبلاد وفقدانها لإرادتها سيرتبطان بتقويض تقنياتها العسكرية (في مجال الصراعات البرّية) في اللحظة التي وصفها منتسكيو Montesquieu بقوله: «عندما تمّ اختراع البارود لم يعد هناك مكان ممتنع».

لقد أبان كلاوزفيتش عن إعجابه بمرتزقة كبريات المدن الإيطالية ثم الأوروبية الذين قدّموا خدماتهم للاقتصادات القوية، فهي وحدها القادرة على أن توفر لهؤلاء المرتزقة ميزانية هامة ما تفتأ تزداد مع مرّ الأيام وممتلكاتٍ ومقتنيات يمكنهم نقلها عند نهاية عقد الخدمة. ومن هنا «جاء هذا الارتباط الواضح بين العُملة **وما يبدو** أنه قاعدتها أي دلالتها العسكرية» (من رسالة

---

(٢٢) الشاهد لفوبان (Vauban) وقد ورد ضمن دروس المدرسة التطبيقية للهندسة وسلاح المدفعية لسنة ١٨٨٨ حول التحصين الدائم.

ماركس إلى أنجلز بتاريخ ٢٥ أيلول/ سبتمبر ١٨٥٧)[٢٣]. ولكنّ كلاوزفيتش لم يشر بما فيه الكفاية إلى هذا المرتزق باعتباره مستشاراً تقنياً أو مهندساً (صانعاً لمعدات الحرب). ومع ذلك فإنّ المهندسين العسكريين هم بالضبط الذين بمقدورهم، بحسب الظروف، أن يحموا أو يدمّروا أمن الأشخاص داخل القلعة البورجوازية. وهذه هي الملابسات الحقة غير المعلنة التي ستتناسل منها «طبقات الغيلان»[٢٤]، ولا نعني بذلك البورجوازية وحسب، بل كذلك الطبقة العسكرية النظامية. إنّ التعريف الماركسي للرأسمالية بكونها «تمتص دماء الآدميين وتؤسس لقيمة العمل الميّت»[٢٥] ينطبق بصفة واضحة على البورجوازية ولكن باعتبارها شريكة لمستشارها التقني العسكري الذي يخترع وسائل إنتاج الأشياء ويخترع في الوقت نفسه وسائل تدميرها ـ فهو المرتزق الذي سيكون النواة التي ستنشأ منها الجيوش النظامية والمركّب العسكري الصناعي لاحقاً. ومثلما أنّ زعيم القراصنة (الكوندوتيري condottiere) قد جعل خططه التدميرية تدرّ عليه أرباحاً عبر التأثير في التوجه الاقتصادي للمدينة فإنّ البورجوازية تحمل في ذاتها نفس هذا التواشج الخفي بين الثروة وإنتاج الخراب.

---

(٢٣) ملخص هذه الرسالة: للجيش أهمية تاريخية في تطوير الاقتصاد وقد ظهر ذلك جليّاً في:
ـ فكرة الراتب التي وُجِدت لأول مرة مكتملة داخل المؤسسة العسكرية.
ـ قيمة المعادن واستخدامها لضرب السكة التي ارتبطت بالأساس باستعمال هذه المعادن في الحرب.
ـ فكرة تقسيم العمل التي وُجدت أوّل مرّة داخل المؤسسة العسكرية.
ويخلص ماركس في رسالته إلى أنّ المؤسسة العسكرية تختزن كلّ تاريخ أشكال المجتمعات البورجوازية.
لمزيد من التفاصيل راجع رسالة ماركس المذكورة، في:
<https://www.marxists.org/francais/marx/works/1857/09/kmfe 18570925.htm>
(المترجم).

(٢٤) الغيلان هم أكلة لحوم البشر (المترجم).

(٢٥) يعرّف ماركس «العمل الميت» بقوله: «إنّ العمل من حيث هو نشاط إنتاجي هادف، من حيث هو غزل أو نسيج أو حدادة، يوقظ وسائل الإنتاج من رقدة الموتى بمجرد أن يلامسها ويحيلها إلى عناصر حيّة في عملية العمل ويتحد معها لتكوين منتوجات». ويضيف في موضع آخر البعد السلبي والاستلابي لهذا النوع من العمل بالقول: «إنّ الرأسمالي إذ يحوّل نقده إلى سلع تُستخدم كمواد بناء لمنتوج جديد، أي عناصر مادية لعملية العمل، ويلقح المادة الميتة بالعمل الحي فإنه يحوّل القيمة، قيمة العمل المشيّىء، الميّت، إلى رأسمال». لمزيد من التفاصيل انظر: كارل ماركس، رأس المال، ترجمة فالح عبد الجبار (بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٣)، مج ١، البابان الخامس والسادس (الشاهدان مأخوذان على التوالي من الباب السادس، ص٢٥٩، والباب الخامس، ص٢٥٣) (المترجم).

إنّ هذا التزاوج المهلك [بين المال والسلاح] قد نشأ على أرض هذا الواقع كما لو كان تزاوجاً طارئاً، «فالأهمية الاستراتيجية لفكرةٍ ما ليست وليدة حسابات مفترضة، بل هي وليدة صورة البلد نفسه، الذي هو مركز مهم تلتقي عنده طرق المواصلات، ونقطة التقاء طرقات عديدة، أو هو مصبّ الأودية». ولقد بيّنا سابقاً أنّه حيثما تتوفر هذه الشروط توجد مراكز سكانية، وحيثما توجد حركة مرورية يوجد تكتل سكاني حضري. وفي المحصلة فإنّ الشروط التي هيّأت لنشأة الحواضر الكبرى هي نفسها التي تصنع على الدوام المراكز الاستراتيجية الهامة[٢٦]. لقد فرض الحلّ نفسه بنفسه، فقد استمرّ تقريباً نفس القرار القاضي بتحويل المراكز الأكثر كثافة سكانية إلى قلاع ضخمة ساري المفعول **إلى حدود القرن العشرين**. كما واصلت وزارات الدفاع بطريقة قروسطية أخذ العسكريين على أنهم مدنيون يشكّلون موارد مهمة للجيش (تموين، يد عاملة، إسكان، تسليح... إلخ). إنّ الرأسمالية نفسها وكذا ممتلكاتها الثابتة هما من النوع الذي يخوّل بشكل مباشر إقامة حالة الحصار.

عندما تكون المدينة المحصنة آلة صمّاء فإنّ مهمة المهندس العسكري المخصوصة هي مقاومة عطالتها. «إنّ الهدف من إقامة الحصون ليس إيقاف زحف الجيوش واحتواءها، **بل السيطرة عليها، ولمَ لا؟ تسهيل حركتها أيضاً**. كتب العقيد ديلاير Delair حوالى سنة ١٨٧٠: «ينبغي على كل قلعة أن تكون في وضع مخصوص، أي أن تمتلك ضرباً من القدرة على الصمود تسمّى لدى الآدميين **الصحة الجيدة**. وفي حالة السلم نُكَلَّف نحن ضباط الهندسة بالحفاظ على القلعة في صحة جيدة...»، ثم يضيف في موضع آخر: «ينبغي أن نغيّر على الدوام من فنيات الدفاع فهي خاضعة للسنّة التي تحكم حياتنا القاضية بأنّ: **التوقف [عن الحركة] يعني الموت**»[٢٧].

إنّ الحصن البلدي هو بمثابة مدينة ـ آلة، الأمر الذي دفع كورمونتاني Cormontaigne وفوركروي Fourcroy، وغيرهما كثير من مهندسي القرن الثامن

---

(٢٦) دروس المدرسة التطبيقية للهندسة وسلاح المدفعية.

(٢٧) وفي هذا المجال يستجيب الخطاب العسكري لمخطط الحصن في المدينة؛ فمنذ البدء فإنّ المشاكل الصحية ومشاكل الصرف الصحي هي مشاكل حضرية، من ذلك أنّ مشكلة التلوث قد شغلت البرلمان الإنكليزي منذ القرن الرابع عشر.

عشر إلى ألّا يعيرا اهتماماً في [كتابيهما] «**يوميات الحصار الخيالية**» و«**أيام الحصن**» للوحدات العسكرية المكلفة بحمايته كما لو أنه قادر على الاشتغال ذاتياً. وقد أكّد الجنرال فيلومواسي Villemoisy في القرن التاسع عشر التفوق التقني للحصن بالقول: «من مجموع ثلاثمئة مرة حاصر فيها الأوروبيون قلاعاً فإنهم لم ينجحوا في إخضاع سوى عشرة منها». فالعنصر البشري العسكري يبدو إذاً ثانوياً بالنسبة إلى التصميم العام للحصن. وقد رأى كارنوت Carnot في هذا التصميم مؤشراً على نظام تقسيم العمل، إذ قال: «لقد ثبت بالدليل أن الشجاعة والمهارة لا تكفيان إذا ما استُعملتا منفصلتين، ولكنهما تستطيعان أن تطورا بعضهما البعض إذا ما اجتمعتا». وبعد فوبان Vauban لن تظل حماية المدينة المحصنة مقصورة على المناسبات، ذلك أنّ مرسوم ٢٨ أيلول/سبتمبر ١٨٨٦ فرض على حكام المدن الحصينة الإقامة بها زمن السلم وزمن الحرب على حدّ سواء، كما سخّر حامية للمدينة للقيام بأعمال يومية، فخصص لكل فرد منها مهمة يومية منتظمة وقارّة.

[ومن هذا المنطلق] دأب المرابطون في خط ماجينو Ligne Maginot[٢٨] بدورهم على تسميته بـ «المصنع»، والسبب في ذلك أنّ الطبقة العسكرية، ومنذ تفكك المدينة القديمة إلى حدود القرن العشرين، والذي لم يمنع استمرار بعض المواضع المحصنة الضخمة، قد واصلت التعويل على مشغّلها البورجوازي القديم الذي تحوّل تدريجياً إلى «كمبرادور». إضافة إلى ذلك ظلت مغانم المرتزق الحربي ومغانم الرأسمالية متساوقة من خلال مخططات استراتيجية ثابتة؛ ففي سنة ١٧٩٣ شبّه بارير Barère الجمهورية الفتية (كومونة باريس) **بمدينة كبيرة محاصرة**، ومن ثَمَّ طالب **بأن تتحول فرنسا كلّها إلى معسكر ضخم**. لقد تمثل الانتصار السياسي للثورة البورجوازية في تعميم حالة الحصار التي عرفتها المدينة ـ الآلة الجاثمة وسط موقعها اللوجستي على المنحدر الطبيعي ووسط مآوي رعاياها المدجنين. وفي سنة ١٧٩٥ أوكلت هذه المدينة إلى جيش كارنو Carnot المُنشأ حديثاً مهمة إبعاد الحشود الوافدة إليها من الضواحي، ومحاصرة ضاحية سانت أنطوان Saint-Antoine، وكذا إجبار العمال المنهكين على تسليم أسلحتهم إلى العشرين ألفاً من

---

(٢٨) خط ماجينو: نسبة إلى وزير الدفاع الفرنسي أندري ماجينو (André Maginot)، هو خط دفاعي أقامته فرنسا بعد الحرب العالمية الأولى، ويعد نموذجاً للتحصينات الدفاعية الثابتة (المترجم).

جنوده الذين كانوا «قد أنكروا أن يكونوا جزءاً من الشعب» (بابوف Babeuf).

والخلاصة أنّ سلطة الدولة السياسية باعتبارها «سلطة طبقة تضطهد طبقة أخرى» ليست سوى سلطة ثانوية، فسلطة الدولة الفعلية هي **مدينة Polis وشرطة Police، أي مركز للتحكم في المواصلات Voirie**، وذلك بمقتضى أنّ الخطاب السياسي منذ فجر الثورة البورجوازية ليس سوى استعادة واعية إلى حدّ كبير لفكرة الحصار القديمة، وهو بذلك يخلط بين إدارة المجتمع ومراقبة حركة المرور (مرور الأشخاص والبضائع) والثورة من جهة، والتمرد وكلّ من الاختناق المروري والوقوف الممنوع والسطو وتصادم السيارات من جهة ثانية. وبهذا الصدد كانت الانتخابات البلدية في فرنسا سنة ١٩٧٧ معبّرة، إذ أعادت رسم مخطط باريز Barère القديم، فقد شطرت فرنسا شطرين: الشطر الأول تمثله العاصمة باريس، باعتبارها المركز حيث يصنع القرار وقد فاز فيه اليمين، وأمّا الشطر الثاني فيمثله **جموع سكان الأحياء الفقيرة** في الضواحي والمقاطعات وقد انتخبت هذه الجموع الأحزاب اليسارية خشية منها أن تتحول إلى مناطق نائية حيث النشاط الإنتاجي في تدهور. **ومن المفارقات** أن هذه الانتخابات قد بينت في الآن نفسه أن خطاب المعارضة اليسارية قد ظلّ إلى حدّ كبير رهين النموذج البورجوازي الرجعي للحصار، إذ ظلّ يخلط بين قدرة الحشد على الحركة وقدرته على الهجوم، أي قدرته على المضي قدماً كما صيحة الحُجّاج في القرون الوسطى: «**لنذهب أبعد وأعلى ما يكون**»[٢٩] **في «رحلة الحاج»**. والأدهى من ذلك أن هذا المخطط السياسي البوليسي الذي قبلت به في النهاية كلّ الإيديولوجيات إلى حدود السنوات الأخيرة هو الذي يوجّه تخطيط المدن كما يوجه تنظيم المعمورة كلّها، وبالنتيجة فقد تمّ الانتقال بيسر من مرحلة «الآلة الضخمة الصمّاء» إلى مرحلة الدولة/الآلة، وأخيراً إلى مرحلة الكوكب/الآلة، وذلك باسم سياسة التقدّم وسياسة التغيير، وهي مجرد شعارات. كيف لا ونحن لا نستطيع أن نميّز المدن الضخمة الصاخبة عن الشبح الغائم للقلعة القديمة وهي تقاوم عطالتها ما دامت هذه العطالة تعني بالنسبة إليها الموت.

---

(٢٩) عبارة لاتينية (Ultraeīa) مكونة من مقطعين: Ultra بمعنى بَعْد وEīa علامة تعجب تفيد الحث على الحركة. وكان الحجاج المسيحيون يطلقون هذه الصيحة فرحاً (المترجم).

[وبالفعل] فإنّ المساكن الاجتماعية[٣٠] في كلّ بقاع العالم، وكذلك الأحياء الملحقة بالمدينة أو أحياء العبور المنتشرة على أطراف المدن وعلى جنبات الطرق السيارة أو خطوط السكك الحديدية، إضافة إلى أنظمة الاستخلاص على الطرق السيارة التي تسعى الحكومة بإصرار كبير إلى تثبيتها على مداخل عاصمة آخذة في الخلوّ من سكانها بسبب سياستها النخبوية، زد على ذلك المقرات الرئيسية للشرطة المشيّدة غير بعيد، ليست سوى إعادة بناء لروح القلعة بأجزائها المختلفة: كِوَاها ومضايقها وخنادقها وأروقتها، وبحركتي الدخول والخروج عبر أبوابها، وبكل هذه المراقبة الأساسية للجموع البشرية عن طريق وسائل حماية المدينة.

ولقد تبيّن لنا بالحجة أثناء الاحتلال الألماني لفرنسا كيف استطاعت «المساكن الاجتماعية» في الضواحي (درانسي Drancy على سبيل المثال) أن تتحول، شأن ديار المسنين القديمة، إلى ملتقى طرق صاعدة نحو الموت، نحو رحيل ونفي من نوع آخر. إن جوهر الأنظمة الشمولية، وأيّاً كانت أيديولوجياتها، هو أن تضع في صدارة أولوياتها المهمة المشتركة المنوطة بالجيش والشرطة وربما شجعت تنافسهما حول هذه المهمة المتمثلة في إدارة نظام **حركة المرور السياسية**، ذلك النظام الذي تم إهماله، بل يمكننا الجزم بأن صعود الأنظمة الشمولية مرتبط بتنامي قبضة الدولة على حركة الحشود. ويمكننا رصد ذلك بسهولة باستقراء تاريخ هياكل الدولة الإدارية منذ نشأتها: إن سيلي Sully، مؤسس إدارة المواصلات، هو الذي أخرج «إدارة التحصينات» من الروتين، وذلك بفضل المرسوم الذي أصدره سنة ١٦٠٤ وأعطى بموجبه للإدارة صبغة حديثة استمرت قائمة إلى القرن العشرين على الرغم من كلّ الثورات المزعومة. ولقد لاحظ توكفيل Tocqueville أنّ **متعهدي التحصينات تحملوا بالطريقة الأكثر التباساً أعباء إدارتَي الدولة المدنية والعسكرية مجتمعتين**. وفي ظل حكم لويس الرابع عشر تمّ تكليف مسرين Mesrine بأن ينتدب مجموعة قارة من عمال المناجم والأعمال الترابية والملاحين ليشكلوا **هيئة الهندسة** عوضاً عن المهندسين المتطوعين ومتفقدي الأشغال المنتدبين من ضمن صفوف المهندسين أو مقاولي الأشغال المدنية العمومية، شأن الشهير تاراد Tarade الذي كان مكلفاً في الآن نفسه

(٣٠) المقصود بذلك المساكن التي توفرها الدولة لذوي الدخل المحدود (المترجم).

بالإشراف على إدارة المواصلات بباريس. وهكذا وجدت هيئة المهندسين العسكريين نفسها عشية ثورة ٨٩ البورجوازية مكلّفة، بقدرة قادر، بمهمة وطنية لم تقتصر على تشييد الاستحكامات الدفاعية الحضرية وهدمها، بل تعدت ذلك إلى تعميم المنحدرات اللوجستية على كامل مناطق البلاد («معسكر الأمة الضخم» الذي اقترحه بارير Barère). ولذلك لا ينبغي أن نتفاجأ بانتشار شهرة سلك المهندسين بدايةً من القرن السابع عشر، وهي شهرة ستؤدّي في القرن التاسع عشر إلى افتتان حقيقي بالهندسة في مجالَي الفلسفة والرواية. لقد مُجّد المهندس إذ اعتُبر «كاهن الحضارة» (سان ـ سيمون Saint-Simon). وإذا كان صحيحاً أنّ صورة المهندس قد تشوّهت، وسنتحدث عن ذلك لاحقاً، فالأصح أن بروزها كان طبيعياً إثر بروز صورة «الرجل الطوبوغرافي castramétreur»[٣١] الذي كان كاهناً حقيقياً أو رجل كنيسة مكلفاً بتدريس فنّ «تسييج المعسكرات والحصون بخطط هندسية». (وهكذا وكما لاحظ العقيد لازار Lazard فإن الأمر لم يكن متعلقاً بفن **عسكري محض** بل بنوع من سيادة الهندسة الوصفية[٣٢] وقد سُلّطت على المواقع الجغرافية وعلى **الطبيعة كلّها**)[٣٣]. إن **الطبقة العسكرية** لم تنشأ انطلاقاً من قيادة أركان النظام الأرستقراطي [الفرنسي] المتزاحمة على قيادة

---

(٣١) أصل هذه العبارة لاتيني castramétatio، وهي مكونة من مقطعين castra ويعني مخيّم أو معسكر وmétatio وتعني يقيس؛ ومن هنا اخترنا عبارة «الطوبوغرافي» لترجمة العبارة الفرنسية التي نحتها المؤلف (المترجم).

(٣٢) «الهندسة الوصفية علم يبحث في معالجة طرق تمثيل الأجسام الهندسية تمثيلاً بيانياً على سطح مستوٍ كسطح ورقة الرسم، فهي تبحث في طرق الإسقاط المختلفة لبيان العلاقات بين النقط والخطوط والسطوح والأجسام في الفراغ بحيث يمكن تعيين مواصفاتها وأشكالها وأبعادها الحقيقية من الرسم بطريقة القياس المباشر تبعاً لوحدة القيس. والهندسة الوصفية كعلم تعتمد في أغلب عملياتها على نظريات الهندسة المستوية والفراغية... ولهذا تعتبر الهندسة الوصفية من العلوم الأساسية للمهندس الذي لا غنى له عنها في حياته العملية». انظر: جاسم شهاب الحباني، **الهندسة الوصفية** (بغداد: الجامعة التكنولوجية، ١٩٨١)، ص٧ (المترجم).

(٣٣) Pierre E. Lazard, *Vauban* (Paris: Librairie Félix Alcan, 1934).

وقد جاء في مقدمة الكتاب بقلم ويغاند (Weygand): «وقف المؤلف في كتابات فوبان (Vauban) على عبارة (بلدان حصينة)، ومن حسن الحظ أنه جعل معناها قريباً من عبارة (مناطق حصينة). أليس المهندس مبدعاً على الدوام؟ فعندما بحث العقيد لازار (Lazard) بشكل مخصوص عن المهندس في شخص بطل الحرب فإنه قد حرص على أن يقدم الدليل على صرامته؛ **لقد أكّد بالحجة أن نظرية فوبان الحقيقية تمثلت في تطبيق نظرية التحصين عملياً**. ونحن لم نظفر بنظرية أنفع منها طيلة السنوات الأخيرة، وذلك عندما تعلّق الأمر بحماية أرضنا».

الجيوش التقليدية، حيث يتناوب على غرفة القيادة المارشالات والضباط السامون، ويكون ذلك في اليوم الواحد أحياناً. فهذه الجيوش لا تتجرأ في مثل هذه الوضعية على أن تنتج أفكاراً منسجمة ولا الكثير من الاستراتيجيات المبتكرة، حتى وإن توفرت على ميزانية كبيرة. إنّ النشاط العسكري الوحيد الذي تطلب مواظبة فكرية هو مشروع الخدمات اللوجستية للقلعة الحضرية. وإنه انطلاقاً من هذه المهمة اللوجستية الملتبسة نشأ الخلط بين تخطيط المعارك الحربية وتنظيم المجال الحضري. ولقد عمّدت الثورة البورجوازية هذا الخليط وسمّته «الدفاع الوطني».

من هنا كان فوبان مجدّداً؛ لقد كان قارئاً جيداً [للمهندس الروماني] فيتروف Vitruve، وكان مغرماً بالنموذج الاستعماري الروماني. إنه يعتقد أنّ أسس الحرب هي أسس جيوسياسية وكونية، فالجغرافيا البشرية لا يمكن أن تكون وليدة المصادفات بل وليدة تقنيات تنظيمية قادرة على التحكّم في فضاءات شاسعة إلى حدٍّ ما، وفي إمبراطوريات دائمة إلى حدٍّ ما أيضاً. إن هذا الفكر العسكري الجديد قد شمل، إضافة إلى كيفية إدارة المواصلات، الاستشراف الاقتصادي ومشاكل علم الوراثة، والتغذية... إلخ. ومرة أخرى، وبطبيعة الحال، فإنّ مهندساً ومشرفاً على إدارة التحصينات هو الذي سينشر سنة ١٧٨٢ أحد الهياكل التنظيمية الأولى المعروفة: يتعلق الأمر بشارل دي فوركروي Charles de Fourcroy ورسالته الشهيرة «رسم جدول بوليمتريكي أو أحلام مغرم بمخططات بعض المدن الكبيرة مع خريطة أو جدول يوفر مقارنة بين هذه المدن بمقياس واحد». لقد كان أول جدول بمدخل مزدوج معاصر للخريطة العلمية الفرنسية، خريطة عائلة كاسيني Cassini.

هذا الفكر العسكري الذي يروم، عبر التخطيط المناسب، القطع مع العشوائية لأنه يراها نذير كارثة وخراب، يتطابق جيداً في نهاية حكم النظام الأرستقراطي مع فكر الطبقة السياسية البورجوازية: وتحديداً مع ولعها بالمصطلحات العقلانية، ومع سعيها المحموم للكتابة الموسوعية. هذا التواشج بين الفكرين يُلمس على بوابات المدن، التي هي المصفاة الفاصلة بين الشارع والطريق. [ومصداقاً لذلك] فمن المعلوم أنّ أوّل رئيس لبلدية

باريس كان زعيم الرابطة الهانزية la Hanse[٣٤]. ثمّ إنّ قصر بلديتها كان مشرفاً على مرفأ غريف[٣٥] Grève [على ضفاف نهر السين Seine]، وقد ظلت السفينة الشراعية[٣٦] شعار وسائل النقل في مدينة لم تكن سوى مرفأ نهري. ولقد ظهرت نفس هذه الأفكار مجدداً سنة ١٧٤٩، ومن أمثلة ذلك كتابات[٣٧] ضابط فرق الشرطة الخيّالة قيّوت Guillaute، فقد ورد في بعضها: «إنّ كفّ الشغب والمصادرات والاضطرابات وسيادة السلم الاجتماعية رهين الانتباه إلى كيفية تجزئة الوقت وتقسيم الفضاء بين سكان المدينة وسكان الريف، وذلك عبر تنظيم صارم لمشكل التنقل والعبور، وهو أيضاً رهين الاهتمام بمسألة التوقيت بنفس درجة الاهتمام بموضوعَي تخطيط البنايات والشوارع وتركيز علامات المرور، فإذا ما تمت عقلنة ظروف الإقامة [على هذا النحو] فإن المدينة كلّها تضحى شفافة أي مألوفة في نظر الشرطة».

واليوم يكتشف كثير من الناس بعد فوات الأوان أنه بمجرّد مرور «أوّل وسيلة نقل جماعي» جاءت بها الثورة تُفرغ الاشتراكية فجأة من كلّ محتوى عدا المحتوى العسكري (الدفاع الوطني) والأمني (الأمن ـ الجوسسة ـ المحتشدات).

---

(٣٤) أعضاء الرابطة الهانزية الباريسية هم الذين نطلق عليهم تسمية: «بائعو الماء الذين كانوا يجنون أرباحاً غير مشروعة بفضل استغلال الأنهر»، انظر: *Anciennes lois françaises*, t. XVIII.

الرابطة الهانزية: اسم مشتق من العبارة الألمانية Hansa وتعني «رابطة التجار»؛ وهي رابطة ضمت العديد من المدن التجارية في منطقة بحر الشمال (شمال ألمانيا)، وتعود جذورها إلى القرون الوسطى حيث كان التجار منخرطين في رابطات مهنية. وتدريجياً أضحت هذه الروابط ذات نفوذ سياسي كبير في أوروبا الشمالية واستأثرت بالقطاع التجاري. انتهى نفوذ هذه الروابط سنة ١٦٤٨ بنهاية حربَي الثلاثين والثمانين عاماً (معاهدة وستفاليا Westphalie). والرابطة الهانزية الباريسية كانت هي المصرّف الفعلي لشؤون مدينة باريس، وقد هيمنت على التجارة النهرية، ولم ينتهِ نفوذها إلا سنة ١٣٨٢ (المترجم).

(٣٥) تبدو العبارة التي استعملها المؤلف غامضة port de grève، فهو لم ينص على أن grève اسم علم، إذ لم يكتب أولها بحرف التاج (majuscule) كما تقتضي اللغة الفرنسية، خصوصاً أن الكلمة المعنية قد تعني الشاطئ، لذا قدرنا أن المقصود المرفأ الموجود على نهر السين (Seine)، خصوصاً أن مكان قصر البلدية المذكور في النص كان يُسمى ساحة الغرييف (Place de Grève) التي كانت تتم فيها أحكام الإعدام بحضور الجمهور (المترجم).

(٣٦) من المعلوم أن السفينة الشراعية هي شعار مدينة باريس منذ سنة ١٣٨٥م، ومكتوب عليه باللاتينية Fluctuat nec mergitur (تهتز السفينة ولكن لا تغرق) (المترجم).

(٣٧) من أهم هذه الكتابات رسالة في إصلاح نظام الشرطة في فرنسا كتبها بطلب من الملك سنة ١٧٤٩ (*Mémoire sur la réformation de la police en France*) (المترجم).

لقد آن الأوان فيما يبدو للتأكيد على أنّه إذا كانت الثورة هي الحركة فالحركة ليست ثورة، إذ ليست السياسة سوى علبة السرعة Boite de vitesse، وليست الثورة سوى مضاعفة لهذه السرعة overdrive. وأمّا الحرب التي هي «**متابعة**[٣٨] للسياسة بوسائل أخرى»، فهي في الحقيقة متابعة «بوليسية» وبأقصى سرعة وعبر وسائل نقل أخرى. إن عبارة «**البغيُ آخر مدّة القوم**» Ultima ratio[٣٩] التي كانت منقوشة بعناية على قطع سلاح المدفعية في عهد لويس الرابع عشر تعبّر بكل دقة عن هذه الطريقة في تغيير السرعة؛ فالمدفع آلة مزدوجة، إذ يجمع بين حركتين متتابعتين: حركة أنبوبة المدفع وتتميز بسرعة القذف إلى حد ما، وحركة خروج المقذوفة، وهي حركة صاعقة تنتهي بالانفجار الذي هو منتهى حجة الملك [المذكورة]. وقياساً على ذلك فإن «الاشتراكية السياسية» من جهة **طبيعتها السياسية** (المدينة) تفشل حتماً عندما تتباطأ حركة الحرب الأهلية في سعيها نحو التصادم مع الحضر: هكذا كان أمر الاشتراكية السياسية ولم تكن شيئاً آخر..

لا ينظر البعض بعين الرضا إلى التزايد الحالي للاستعراضات في المدن، والمسيرات المتنقلة، أو لنقل «سباق البطالين»، كما حصل في نيسان/أبريل ١٩٧٧ في مدينة تيونفيل Thionville على سبيل المثال. فبعد «الدور النهائي» الذي لعبته حركة أيار/مايو ١٩٦٨ كفّ هذا البعض عن أن يدرك بوضوح المردودية المهنية أو الاجتماعية لمثل هذه الإنجازات. وفي الحقيقة فإنّ لهذه الأصناف من السباقات الحضرية ومن سباق المقاتلين هدفاً محدداً كانت الثقافة الثورية الغربية النافذة قد ذكّرت به، شأن صحيفة **البرافدا** *Pravda* التي كتبت الصيف الماضي: «إنّ الاستعراضات في الشوارع هي أحسن تمرين ممكن للعمال على معركة الاستيلاء على السلطة».

في ظل **النظام الأرستقراطي** كان شخص الملك يتماهى مع الدولة، وكان **وجوده** يرتبط بوجودها. وكلما أضحى مقر إقامة الملك غير معروف تحدث اضطرابات وشغب فتلج الحشود الباريسية القصر الملكي، تتملّى وجه

---

(٣٨) جرت العادة أن يُترجم تعريف كلاوزفيتش للحرب بـأنها «استمرار للسياسة بوسائل أخرى»، وقد آثرنا أن نغيّر مفردة «استمرار» بـ«متابعة» لأن السياق يقتضي ذلك، فالمؤلف يلح على مسألة الحركة وقد وجدناها أكثر حضوراً في مفردة «متابعة» (المترجم).

(٣٩) عبارة لاتينية تعني حرفياً «القوة هي آخر حجج الملوك» (المترجم).

الملك ثم تنسحب وقد هدأ روعها. وبالمثل فإنّ قدوم الحشود البروليتارية من الأرياف ومن الضواحي إلى وسط مدينة باريس ووطأهم شوارعها وطرقاتها الفخمة لهي أساليب عملية لتجسير الفجوة الاجتماعية والسياسية الحقيقية والملموسة بين الجماهير وسلطة الدولة البورجوازية القائمة. وبالفعل فإنّ الحركات الشعبية في ظل **النظام الأرستقراطي** التي كانت تهيم في الشوارع بحثاً عن الملك/الدولة إنما تشي بهذا التنظيم الجديد للدفق المروري الذي سمّي باطلاً الثورة الفرنسية، في حين أنها ليست سوى التنظيم العقلاني لعملية اختطاف اجتماعي. إنّ «الهبّة الشعبية» لسنة ١٧٩٣ هي بالتأكيد **اختطاف للجماهير**.

إنّ الخطاب الذي بثته الدعاية الثورية هو بالنسبة إلى أهل القلعة البورجوازية، شبيه بالخطاب الديني القديم من جهة أنه يصرف الحشود الهائمة ويستبعدها، فهو يشير إلى الدولة الثورية الجديدة كما لو أنها ليست هنا في المدينة وفي الشارع بل هناك بعيداً فيما وراء المكان والزمان. ألم ينادِ غريغوار Grégoire في الجموع يوم ٢٧ تشرين الثاني/نوفمبر ١٧٩٢: «عانقوا القرون الأبدية كما البلدان الشاسعة... وتخلصوا من الفكرة الكاذبة الشائعة التي تريد ربط الجمهورية برقعة أرض محدودة جداً!» [وبالفعل] ففي الوقت الذي كانت الطبقة البورجوازية تحوز على عين المكان أملاكاً جديدة وعقارات وتهدد بعقوبة الإعدام أولئك الذين يجرّمون مبدأ الملكية الخاصة (منشور المؤتمر الوطني بتاريخ ١٨ آذار/مارس ١٧٩٣) فإنّ ما وهبته من أراضٍ «لمجنّديها» **هو طرقات أوروبا** [لا غير] تحت شعار: «حيثما قادتك قدماك فذلك هو الوطن» (ubi pedes, ibi patria)، كما يقول القانون الروماني. مع الثورة الفرنسية **أصبحت كلّ الطرقات طرقات وطنية!**

لقد مهّدت حركة اللّامُتَسَروِلين sans-culotte[٤٠] لـ «الهبّة الشعبية» لسنة ١٧٩٣ كما ستمهد لاحقاً مغامرةُ كتيبة العاصفة الهتليرية الرهيبة للتعبئة الألمانية للحرب الشاملة. لقد كان اللامتسرولون، مثلهم مثل أعضاء كتيبة العاصفة من الهائمين على وجوههم، لقد كانوا بمثابة «نُذُر الشؤم» تقدّموا

---

(٤٠) عبارة تهجينية أُطلقت في بداية الثورة الفرنسية على الحشود الشعبية الثائرة التي لم تكن تلبس السراويل القصيرة، اللباس المميّز للطبقة الأرستقراطية، بل السراويل الطويلة (المترجم).

إلى الصفوف الأمامية للثورة على أرصفة باريس. ولقد قنّن منشور ٢١ آذار/ مارس ١٧٩٣ وظيفتهم المميزة، **فهؤلاء المناضلون السياسيون المحمومون ليسوا سوى الأدوات اللوجستية لبث الرعب، وأعوانِ «شرطة»** [كيف لا] وهم مكلّفون بالإبلاغ عن «المشتبه فيهم» ومراقبة الأحياء والعمارات السكنية وإصدار/ شهادات حسن السلوك السياسي، إضافة إلى أعمال التموين ونقل المواد الغذائية براً ونهراً وتوزيعها ومراقبة الأسعار. وسيتم في شهر أيار/ مايو إدماجهم ضمن جيش الثورة Armée de l'Intérieur، وسيُقذف بهم على طرقات المقاطعات كتشكيلات عسكرية تبث الرعب؛ ولكن بعد عام سيُعدم رؤساؤهم كما أُعدم الرؤساء الكبار لكتيبة العاصفة يوم ٣٠ حزيران/ يونيو ١٩٣٤ في «ليلة السكاكين الطويلة».

إن الثورة ليست سوى تحويل لمسار الصولة الاجتماعية التقليدية؛ فالمهندس كارنو Carnot باعتباره أحد أهم أعضاء هيئة الهندسة العسكرية وجّه حشوده نحو «المناطق العسكرية» بعيداً عن القلعة، إذ كان يفضل دائماً أن ينتقي مجنّديه من بين صفوف القوى الشعبية الباريسية. وهكذا انتزع جنودَ السنة الثانية l'An II[٤١] من الشارع الذي كانوا يرومون الاستيلاء عليه وقذف بهم في سفر جنوني، فأُبعدوا عنه عبر «مسيرة إجبارية» طويلة ومميتة؛ وقد كتب بشأنهم: «إنّ الجيش الجديد هو جيش **عرمرم دائم الهجوم يسحق العدو سحقاً** على أنغام **نشيد لامارسياز** la Marseillaise». فالنشيد الوطني ليس سوى حداء مهمته ضبط آليات السير. كتب بومياز دي لاسيبوتي Poumiès de la Siboutie في مذكراته: «**لم نغنِّ قط مثلما غنّينا... لقد كانت الأغنية وسيلة ثورية جبارة، فـ (لامارسياز) كانت تلهب الجماهير حماساً**».

لم يجانب عالم الرياضيات كارنو والطبيب بومياس الصواب، فالأغنية الثورية هي طاقة حركية تدفع الحشود نحو ساحات المعركة، أي نحو هذا الضرب من الهجوم الذي كان شكسبير Shakespeare قد وصفه بـ «الموت الذي يقهر موته». وهذا فعلاً ما كان يحدث، فما دام العدو كان مجبراً على شحن مدفعيته فإنّ الطريقة الوحيدة أمام الجندي هي أن يسرع نحو المَدَافعِ

---

(٤١) من المعلوم أن الثورة الفرنسية قد استحدثت تقويماً جديداً بديلاً عن التقويم الغريغوري. السنة الثانية للثورة تقابلها سنتا ١٧٩٣ و١٧٩٤م (المترجم).

ويقتل طاقمها على عين المكان، ولكن الوقت المخول له لإنجاز المهمة محدود جداً، إذ هو نفس الوقت الذي يحتاجه جنود العدو لإعادة شحن مدافعهم؛ ولذلك كان على الجندي المعني أن يرتمي على مدافع العدوّ بمجرد انطلاق القذائف، ذلك أنّ بقاءه على قيد الحياة رهين سرعته، فإذا كان بطيء الحركة فسيُقطّع إرباً إرباً بألسنة اللهب... لقد أضحى كل شيء في هذه الحرب الجديدة رهين الوقت الذي يربحه الإنسان وهو يسارع بخطاه حتى يتجنب مسار المقذوفات القاتلة. إنّ السرعة هي ما نربحه من وقت بالمعنى المطلق للكلمة من جهة كون هذا الوقت وقتاً إنسانياً ننتزعه في الحين من الموت. ومن ثَمَّ نفهم علة ظهور هذه الشارات المنذرة بالهلاك المرفوعة عبر التاريخ من قبل كتائب العاصفة، أي **الكتائب السريعة سرعة العاصفة** (أعلام وبزات سوداء ـ جماجم بشرية ـ فارس رمّاح ـ منظمة الوحدة الوقائية... إلخ)[٤٢].

ولكن الأهم من كل ذلك كيف ننظر إلى هذه الثورة التي ستختزل كلّها قريباً في مجرّد انقضاض مستمر على الوقت؟ إنّ الهجمة المطردة لجيوش كارنو الشعبية تعني العودة إلى الشعار القديم: «يجري ولا يلوي على شيء»، فلم يعد الخلاص في الهروب بل في أن «نركض نحو حتفنا»، أن «نقهر الموت»، وببساطة فإن **الخلاص يكمن في الهجوم** [لا في الهرب]، لأن الأسلحة الباليستية الجديدة تجعل الهروب ضرباً من العبث، فهي أسرع وأبعد مدى من الجندي، إذ تدركه وتتجاوزه. يبدو إذاً أنّه لم يعد من خلاص في ساحة المعركة للإنسان إلا بأن يتموضع بطريقة انتحارية في مسلك المعدات الحربية، فذاك هو الموضع الذي يدفعه إليه التشريع العسكري الجديد بلا رحمة ولا شفقة، إذ وضَعه بالضبط «بين نارين». **إنّ الخلاص الشامل لا يمكن أن يتأتى مستقبلاً إلا عندما تتحرك كلّ الجماهير بسرعة.** ولقد عبّر نابليون الأول عن ذلك بكلّ وضوح بالقول: «القدرة على الحرب هي القدرة على الحركة»، ثمّ فصّل الأمر بالتأكيد على أنّ تقييم قوّة جيشٍ ما إنّما تتم «على منوال علم الميكانيكا، أي بضرب كتلته في سرعته».

لقد أُعجب هيجل Hegel بالثوّار الفرنسيين فكتب في شأنهم في رسالة

---

(٤٢) منظمة نازية كانت مكلفة بحماية أدولف هتلر (المترجم).

إلى أحد أصدقائه بتاريخ كانون الثاني/يناير ١٨٠٧: «لقد تعلّم كلّ فرنسي أن يواجه الموت»؛ وبطريقة مميزة شبَّه المؤسسات البائدة «بأحذية الأطفال عندما تصبح أصغر من أرجلهم **فتنغّص عليهم المشي**، ولكنّ الثوار عرفوا كيف يتخلصون منها»: إنّ الاستعارة الديناميكية العميقة حاضرة على الدوام لتصف الجدلية الجديدة لساحة المعركة بلغة فلسفية وسياسية. وبالفعل فقد كان الجندي الفرنسي قليل التسلح يرى الموت عياناً من خلال فوهة المدفع السوداء الملتهبة التي كان يسارع إلى الارتماء عليها. لقد كان ذلك الجيش من الأقزام الذي تحدّث عنه غوته Goethe بحاجة إلى «الأحذية السحرية»، فكتب في شأنه: «لقد انتظرنا في ألمانيا، حلول عمالقة فإذا هي كتيبة من الأقزام». ولكن ليس في الأمر غرابة بما أنه تمّ تقدير طول قاماتهم **بالنظر إلى سرعتهم على الطريق**؛ لقد وقع تصوّرهم على أنهم أفراد ضخام ذوو خطوات عملاقة، ولم يفكّر أحد قطّ في ذلك العامل المستحدث ألا وهو **التنامي الهائل للطاقة الحركية لدى الجموع الثائرة**. [من الواضح] أنّ هذا الخطاب يربط اكتساب سرعة الانقضاض المهولة، أو الغزو وربما الانفجار كذلك، بـ «حركية» ثورة تجسّدت أولاً بالسيطرة على الشارع، وثانياً «بالانطلاق» على الطريق. وإنه لمن المعبّر جداً أن كلّ معركة شمولية تستنسخ هذا التمشّي؛ فالقوميون الاشتراكيون الألمان، أعداء البورجوازية أو لنقل الذين يزعمون معاداتها إلى الحين الذي **جنّدوا** فيه المشردين من أعضاء «كتيبة العاصفة»، قد سطوا على الدولة الألمانية مدينة مدينة، بل شارعاً شارعاً، ثم استولوا على الطرقات طريقاً طريقاً، ومن ثمّ تمددوا نحو أراضي الدول المجاورة، كما لو أنّ انطلاقة الجماهير الألمانية بفضل **بلاغة** الزعماء **المحمّسة** لم يكن من الممكن كبح جماحها. ولكن بعد الاستيلاء على المدينة ومذبحة «كتيبة العاصفة» استعاد القوميون الاشتراكيون القوى الداعمة لهم، أي البورجوازية الإدارية الصغيرة والمتوسطة وكبار الرأسماليين الذين موّلوا منذ العشرينيات جيش الدفاع Reichswehr، كما موّلوا صناعة آليات القائدين رومل Rommel وقيداريان Guderian، تلك التي نقلت المواجهات العسكرية بعيداً حيث توجد دبابات الهجوم. مع حرب القوميين الاشتراكيين الخاطفة اختفى بشكل جليّ الجدار الحدودي المتهالك، إذ تمّ تعويضه بالطريق السريعة. وهكذا لم تعد الأمة الألمانية قائمة هناك حيث مواطئ أحذية جنودها الشهيرة، رمز جيشها، ولكن تحت سلاسل دباباتها وفي قوة

محركها الرئيسي، أي «جبهتها الفولاذية». في نهاية القرن التاسع عشر كتب راتزال Ratzel يقول: «الحرب هي أن تمدد حدودك إلى أراضي الآخرين»؛ ولذلك **فإنّ الجبهة العسكرية لن تصبح مستقبلاً سوى خطوط إيزومترية حربية محيّنَةٍ لطقوس تأسيس المدن القديمة**. ولكن بالنسبة إلى أرباب السرعة من أهل الحرب الشاملة فإنّ فتح المدن الذي طالما كان مطمح [الغزاة] لم يعد ذا معنى، [والمثال على ذلك] مدينة فرصوفيا Varsovie التي أعلنت [من قِبل حكومتها] «مدينة مفتوحة»(٤٣)، كما لو أنها مازالت في العصور القديمة، فدُمّرت في شهر أيلول/ سبتمبر بوساطة الغارات الجوية(٤٤).

(٤٣) المدينة المفتوحة (ville ouverte) هي المدينة التي تعلن زمن الحرب استسلامها من دون قتال لتجنيبها الدمار (المترجم).

(٤٤) يشير المؤلف هنا إلى تلك المحاولة الفاشلة التي قامت بها الحكومة البولونية سنة ١٩٣٩ لدى القوات النازية لإعلان فرصوفيا مدينة مفتوحة وتجنيبها ويلات الدمار (المترجم).

الفصل الثاني

من الحق في الطريق إلى الحق في الدولة

لقد تنوعت طرق الاجتياح بحسب أزمنة اختراع آلات التدمير

أزارد المُكنّى بـ دي بار الدوق

قامت الحكومة النازية بمجرّد استيلائها على السلطة بتوجيه العمّال الألمان نحو التمتع بالرياضة والتنقل، فلم يعد هناك مجال للشغب ولا لكثير من القمع، إذ يكفي إفراغ الشارع وجعل الطريق هِبة للجميع. ذلك هو الهدف «السياسي» من تصنيع سيارة الفولسفاغن Volkswagen الذي كان بمثابة استفتاء على شعبية هتلر بما أنّه أقنع ١٧٠,٠٠٠ مواطن باقتنائها وهي لم تتوفر بعد في السوق. [وفي هذا السياق] سارعت هيئة النقل النازي N.S.K.K (National Socialistisches Kraftfahr Korps) التي كانت مهيكلة محلّياً، حسب أصناف السيارات الخاصة، إلى جمع نصف مليون سائق وتدريبهم على قيادة السيارات في كلّ الميادين وعلى إطلاق النار من على السيارات المسرعة... إلخ. لقد كان كل عضو من هذه النوادي «الرياضية» يتدرب على تقنيات الوقاية من جرائم سائقي السيارات، أمثال «بونوت» Bonnot أو «ال كابوني» Al Capone. وإذا كان من الحق أنّ [الكاتب المسرحي] براشت Brecht قد استمتع سنة ١٩٤١ في مسرحيته «صعود أرتيرو إي المذهل» La résistible ascension d'Arturo Ui[١] بأن جعل من زعيم عصابة قريناً[٢] لهتلر

---

(١) المقصود بذلك «صعود هتلر المذهل» (المترجم).

(٢) تعني عبارة sosie في اللغة الفرنسية «الشبه التام بين شخصين»، لذلك اخترنا عبارة «قرين» التي تعني في معتقدات العرب قبل الإسلام أنّ لكل آدمي قريناً من عالم الجن هو نسخة مطابقة للأصل منه (المترجم).

فإنه من الأحق أنّ أوجه الشبه [بينهما] ليست مجرد محاكاة ساخرة، فسعيُ ذلك المهاجر الوافد من الحضارة الأمريكية نحو السلطة مُشابه للتراجيديا الفاشية أو المغامرة الفوضوية لبُونّوت سنة ١٩١١، إذ لا يمكن فصل [المغامرتين] عن الثورة التي عرفتها وسائل النقل. لقد بدأ كبار زعماء العصابات الأمريكية مشوارهم في الشارع، مثلهم في ذلك مثل موسوليني Mussoloni وهتلر، إذ كانوا يهيمون متسكعين وغرباء؛ من هؤلاء [نذكر] ذائع الصيت جيم كولوسيمو Jim Colosimo الذي بدأ مشواره عامل نظافة في الشارع، ثم أفضت به طبيعة الأمور، أسوة بكثير من أبناء وطنه، إلى أن يدخل عالم السياسة كوكيل انتخابي يطرق الأبواب لبيع بضاعته.

لقد [تطوّرت الأمور بعد ذلك]، إذ ستكون البلديات تحت رحمة [النسخة الأمريكية من] «الكتيبة البنية» و«كتيبة العاصفة»؛ ففي تلك المرحلة كانت أمجاد سيارات العشرينيات (عمليات الاختطاف التي تقوم بها العصابات ورصاص معاركها [الذي يلعلع] في الشوارع ومطاردات السيارات المصفحة الجنونية بعضها بعضاً) لاتزال مجرّد حلقة في سلسلة عمليات الانقضاض السريعة على المدينة وخيراتها من قِبل جموع مهاجرة قادمة من أوروبا أو من آسيا، وذلك قبل أن تنقضّ على الدولة الأمريكية نفسها. ولكن ألم يكن «ال كابوني» مسنوداً، على المستوى الوطني، من قبل الحزب الجمهوري؟ وأوَلم يكن مديناً في «تكوينه» إلى الجيش الأمريكي عندما انضم إليه متطوّعاً؟ وبالفعل فإنّ كتائب العصابات المجهولة ستُسلّط عليها الأضواء أثناء الحرب الأخيرة، وتحديداً لحظة تحرير إيطاليا، وسيُقدّم أعضاؤها أنفسهم بأنهم «مواطنون أمريكيون صالحون».

وفي مستوى آخر، يتضح لنا الآن كيف تسنّى لحكومة الولايات المتحدة الأمريكية تجاوزُ أزمة الثلاثينيات الاقتصادية وشفاءُ جموع الأمريكيين من «غواية الشارع». فمثلما كان الأمر في العشرينيات فإنّ تجربة رجال العصابات المهووسين بالسرعة كانت مجدية. لقد تجلّت عبقرية السلطة في الاستعاضة عن القمع المباشر للمظاهرات، وعن الخطاب السياسي نفسه بالكشف عن جوهر هذا الخطاب؛ فطاقة النقل التي وفّرتها الأعداد الكبيرة من السيارات التي بدأت شركة فورد في إنتاجها منذ سنة ١٩١٤ يمكنها أن

تُحدث صولة اجتماعية وثورة قادرة على أن تغير مرّة أخرى نمط عيش المواطنين، وذلك عبر تجديد كل حاجات المستهلك وعبر إعادة تشكيل المجال برمته، علماً أنّ هذا المجال لم يكن يتعدّى بداية القرن الأربعمئة كلم من الطرقات.

كتب الدكتور هلموت كلوتز Helmut Klotz سنة ١٩٣٧: «إنّ هيئة النقل النازي قادرة، على نطاق ضيّق أن تجعل من تزويد الجيوش الألمانية بما تحتاجه من آليات أولويةً». فإذا كان [بهذا الكلام] يعتقد أن عملية تزويد الجيش [الألماني] بالآليات قليلة الفائدة في الغالب على المدى الطويل فإنّه مع ذلك يقر بأنّ لهذه العملية القدرة على **تقوية كتيبة العاصفة تقوية هائلة** على المدى القصير.

أمّا على الضفة المقابلة فإنّ التغييرات المطردة التي شملت الشكل المرعب للسيارة الأمريكية فائقة السرعة وهيكلها المفرط في الإثارة وأغطية إطاراتها تشهد كلّها بديمومة الثورة الاجتماعية (**الترقي نحو طريقة عيش الأمريكان** Progress sur l'American way of life). ولكن في الوقت نفسه تم «خَصْي» هذه الهيئة التصنيعية الكبرى، إذ لم تعد سياراتها قادرة على تحمّل «وعثاء» الطرقات[٣]، كما تمّ «لَجم» قوّة محرّكاتها. يتعلق الأمر إذاً بإجراء حكومي من جنس تلك القوانين التي أصدرتها الحكومة للحدّ من السرعة، أي هو إجراء من إجراءات الإدارة السياسية بهدف الحدّ من «**قوة الاجتياح الهائلة [للشارع]**» التي ازدادت بفعل تملك جموع المواطنين للسيارات. هذا الإحباط الذي أصاب السائق فجأة، إذ حرمه من نشوة القيادة السريعة كما حرمه من نشوة السُّكر، هذا الحرمان من لذة ركوب السيارات هو أيضاً أفق جديد تدشنه الدولة:

«إنّ آلاف الشباب الذين يقودون مركباتهم ويتربون على تركيب الآلات وتشغيلها أو على التخابر اللاسلكي وعلى سباق التحمل للدراجات النارية أو على الجولان، هم كما لاحظ ف. بوش V. Bush سنة ١٩٤٠ في كتابه «**أسلحة حديثة ورجال أحرار** *Modern Arms and Free Men*»، هم في الحقيقة في خضم معسكرات تدريب حقيقية يمكنها أن تتحوّل بسهولة في اليوم

(٣) نستعمل هذه العبارة مقابلاً للعبارة الفرنسية Tenue de route التي تعني قدرة السيارة على أن تواجه كل الصعوبات والعراقيل والحواجز التي تعترضها أثناء السير (المترجم).

الموعود وفي لمح البصر إلى طاقة لصناعة أدوات الحرب المعقدة». وهكذا يتناظر خطابا الضّفتين.

إنّ هذا الضرب من الاستغلال الدائم لقابلية الجموع الهائمة للحركة واعتباره متنفساً اجتماعياً ليس إجراء خاصاً بالدول المصنّعة؛ فقد طرحت مشكلة الأحذية على قطاع الصناعة المدنية من قِبل الجموع الحاشدة قبل أن تُطرح مشكلة السيارات؛ ففي سنة ١٧٩٢ كانت هيئة الإمداد العسكري [الفرنسية] قد وفّرت مئتي زوج من الأحذية لكتيبة «الحفاة» va-nu-pieds في الوقت الذي كانت تحتاج إلى ثمانين ألفاً»[٤]. ومع ذلك، ولمّا كان «المشي أداة استراتيجية حتى خارج الخدمة العسكرية»، فإنّ هذا الضرب من الانقضاض، كما بيّنا ذلك سابقاً، يحصل أساساً ضد الوقت، ويمكن إنجازه نظرياً عند افتقاد الوسائل المادية.

أما في الوقت الراهن فإن أحزاب المعارضة الفرنسية تخوض نضالات بخصوص «زمن تنقل» العمال. يتعلق الأمر مرة أخرى بما ينبغي «ربحه من الوقت». إنهم يعيدوننا إلى بدايات «التحوّل» الاجتماعي، فنحن هنا على صعيد «ثورةِ الثمانيةِ الثّلاثية» الأثيرة لدى رجال ثورة سنة ١٨٤٨ : ثماني ساعات من العمل ـ ثماني ساعات من النوم ـ ثماني ساعات من الراحة. وما يلفت النظر أنّ هذا المطلب قد حاز منذ البداية شرف **توحيد** كلّ الأحزاب؛ ففي كلّ الحركات الثورية المعتدلة منها والمتطرفة «يحوز هذا الضرب من (حرب الوقت) الذي يخوضه العمّال كلّ مزايا المطلب الثوري الخالص»[٥]، ولذلك اعتمدته جمهورية السوفيات منذ خريف ١٩١٧ والجمهورية الألمانية منذ ١٩١٨.

وبخصوص الجمهورية الفرنسية فقد كانت تخشى غداة نهاية الحرب [العالمية الأولى] أن يتحول عيد العمال إلى أعمال عنف دامية. وبالفعل فقد تمّ التحضير مرّة أخرى لمسيرة ضخمة تجوب الشارع يوم ١ أيار/مايو ١٩١٩، وكانت الحكومة على يقين بأنّ كلمة السر ستكون «نطالب بثماني ساعات...»، ولكن ألم يكن الزعماء الاشتراكيون متميزين في مناصبهم الحكومية؟ ألم يسيّر أحدهم وزارة التسليح؟ فاعتماد الثماني ساعات هو

---

(٤) وفي الوقت نفسه كانت مصانع السلاح تتوفر على مجموعات إنتاجية تَعُدّ خمسة آلاف عامل.

(٥) André François-Poncet et Emile Mireaux, *La France et les Huit Heures* (Paris: Société d'études et d'informations économiques, 1922).

منتهى النضال العمالي في سبيل: **الحفاظ في زمن السلم على ما كان سائداً زمن الحرب، أي الوحدة المقدسة»**[٦].

في ذلك الفاتح من أيار/ مايو سنة ١٩١٩ تمّ تسريح العمّال مجدداً من الجندية، فغادروا الخنادق الطويلة في ساحات القتال «ليواجهوا الموت» في خنادق شوارع المدينة؛ فبعد أن استقبلهم أهل المدينة، أي أولئك الذين كانوا أيام الحرب في الصفوف الخلفية، بالأحضان في أيام عودتهم الأولى، ها هم ينكرون جميل كتائب الخطوط الأمامية هذه. وليس هذا النكران سوى استعادة لمعهود الأشياء، لمشاعر الريبة والاحتقار التي يكنّونها لهذه الجموع الهائمة التي استعادت حرية الحركة وأضحت، بالنتيجة، مهيّأة للمعركة السياسية.

لقد تمّ سنة ١٩٣٦ الكشف عن طبيعة «راحة الثمانية أيام» التي ظلت إلى ذلك الوقت محاطة بالغموض: تعني الراحةُ عطلة مدفوعة الأجر، وتعني العطلةُ مدفوعة الأجر السفر وتحديداً «السفر الأخير» كما عبّرت عنه أغنية شهيرة «للجبهة الشعبية» الحاكمة التي كانت تعيش آنذاك وَهْم النصر... إنّ الأمر يتعلق بثورة التنقل لا ثورة السعادة، التنقل نحو معسكر التخييم ومراكز ضيافة الشباب.. فالأمر لا يخرج أبداً عن فكرة المعسكر، معسكر البلاد الفسيح [الذي تحدث عنه باريير Barère]. ولكن الحرب الأهلية الإسبانية سرعان ما اندلعت، فحفرت الجبهة الشعبية قبرها بيدها عندما رفضت التدخل فيها، فشُلّت حركتها نهائياً برفضها «مباهج» ما وراء تلك الرحلة الأخيرة[٧].

لقد كان خطاب رجال البورجوازية السياسية حول سلطة الحركة وفعاليتها خطاباً مخاتلاً إلى أبعد الحدود، وكان علينا أن ننتبه منذ زمن طويل إلى حقيقة نواياهم الثورية.

---

(٦) يلمح المؤلف هنا إلى حكومة جورج كليمنصو (Georges Clemenceau) التي تشكلت إثر نهاية الحرب العالمية الأولى. وكان كليمنصو يسارياً اشتراكياً ينتمي إلى «الحزب الراديكالي الاشتراكي»، وقد شغل في هذه الحكومة، إضافة إلى رئاستها، منصب وزير الحربية. ومن إنجازات هذه الحكومة اعتمادها قانون الثماني ساعات عمل، وذلك يوم ٢٥ آذار/ مارس ١٩١٩ استباقاً لتحركات النقابات العمالية يوم ١ أيار/ مايو. والملاحظ أن تحركات العمال طوال سنة ١٩١٩ لم تحقق مطالب تذكر، بسبب عدم تحمس الزعماء النقابيين ورفضهم تسييس التحركات (الثورة ضد البورجوازية) حفاظاً على وحدة فرنسا (المترجم).

(٧) إن رفض الجبهة الشعبية التدخل في الحرب الأهلية الإسبانية لنصرة الجمهوريين في مواجهة فرانكو كان يصب في مصلحة هتلر الذي حرص على عزل فرنسا للانقضاض عليها لاحقاً؛ وهذا ما تحقق فيما بعد (المترجم).

لقد زعمت ثورة ١٧٨٩ أنها ثورة ضد **الاستعباد**، أي **القيود التي تكبّل الإنسان**، والتي ترمز إليها القِنانة الإقطاعية القديمة التي ظلت ممارسة في بعض المناطق شأن إقليم جورا Jura، وأنها ثورة ضدّ الإقامة الجبرية والسجن العشوائي؛ ولكن لا أحد تصوّر، حتى ذلك الوقت، أنّ «انتزاع حرية الغُدوّ والرواح» العزيزة على مونتاني Montaigne يمكنها أن تنقلب بخدعة ما، **إجباراً على الحركة**. إنّ «الانتفاضة الشعبية» لسنة ١٧٩٣ هي تأسيس لأول **دكتاتورية للحركة**، وقد عوّضت بلباقة **حرية الحركة** التي تأسست في الأيام الأولى للثورة. إن حقيقة السلطة في هذه الدولة الحديثة الأولى تبدو أبعد من كونها احتكاراً للعنف، إنها احتكار للحركة. وفي المحصلة فإنّ استيلاء أهل باريس على قلعة الباستيل يوم ١٤ تموز/يوليو ١٧٨٩ كان الخطأ عينه الذي تحدث عنه فوكو[٨]: لقد اندهش المتظاهرون حين اكتشفوا أن **ذلك الرمز السجني الشهير هو قلعة فارغة** ولا يوجد أحد داخل جدرانها الضخمة «لتحريره».

لقد أعطت الخطة الاستراتيجية للثورة لكلّ طبقة من الطبقتين المهيمنتين بروليتارياها الخاصة: بروليتاريا الجيش، وهي بروليتاريا عسكرية صاحبة شعار «الأمة تمضي قدماً إلى الأمام»، وقد مُنحت «الطرقات تمرح فيها»؛ وبروليتاريا المصانع، وهي بمثابة «جيش من العمّال»، وقد احتُجز في **معسكر الوطن الفسيح**. وعلى هذا الأساس يمكننا التمييز بوضوح بين وظيفتين (أو بالأحرى بين طريقتين في الاشتغال) للقاعدة البروليتارية التي تمت تعبئتها، ذلك أن مفردات الظاهرة البروليتارية لم تتم صياغتها بأكثر راديكالية مما فعله المؤتمر الوطني الفرنسي من خلال منشور شباط/فبراير ١٧٩٣ الذي جاء فيه أنّ «الشبّان ينخرطون في الحرب»، في حين «يُوجّه الرجال المتزوجون والنساء والأطفال إلى التصنيع» (تصنيع السلاح والملابس والخيام والضمادات... إلخ)، باختصار يوجهون إلى التموين اللوجستي.. هكذا ندرك أن البورجوازية الجديدة، بورجوازية الأعمال، تسعى إلى الثراء عبر رسملة «**الأعمال الإنتاجية**» للبروليتاريا الصناعية (البورجوازية الجيروندية[٩] وتموين الحرب، البنك السويسري ومؤسسه بيريقو Perrégaux. إلخ)، وأنّ

---

(٨) إشارة إلى المراجعة العميقة التي أنجزها ميشيل فوكو لعالم السجون في كتابه الشهير **المراقبة والعقاب** (المترجم).

(٩) نسبة إلى مقاطعة جيروند (Gironde) في فرنسا، وهي بورجوازية متنورة (المترجم).

الطبقة العسكرية تُرسمل **العمل التهديمي** للحشود المتحركة **وإنتاج الخراب** الذي تؤمنه قوّة الهجوم البروليتاري.

يبيّن التاريخ أنّ انهيار الطبقات البورجوازية في الجيوب الداخلية يؤدي حتماً إلى اضمحلال القوى المنتجة وإلى بروز الأساليب البروليتارية العسكرية داخل الدولة؛ فعلى سبيل المثال، تبدو الدول الماركسية عملياً في بداياتها **دكتاتورياتٍ لحركة** شموليةٍ، تنتج بشكل دقيق كل ضروب **حركة الحشود**، ومن ثمّ تستثمرها. [ولا أدلّ على ذلك مما حصل في كمبوديا] فبعد سقوط العاصمة بنوم بنه Phnom Penh، ووفق القليل من الشهادات المتوفرة، أضحت كمبوديا «معسكراً ضخماً». ومع ذلك كانت السلطة الكمبودية تحتج على ماركس والسوفيات وتتهمهم «بإنشاء الغولاغ goulag». ولكن ما أتاه الكمبوديون لم يكن في الواقع سوى ذروة عملية عسكرة البروليتاريا. وبالفعل فقد تعامل الخمير الحمر مع الملايين من الرجال والنساء والأطفال من أبناء بلدهم وكأنهم «أسرى حرب». ويبدو أن حكام كمبوديا الجدد قد طبّقوا حرفياً ما ورد في بحث جامعي أنجزه كيو سامفان Kieu Samphan وأودعه جامعة السوربون منذ خمس وعشرين سنة؛ وبذلك عرفنا مصدر هذه الجرثومة التي تنخر هذا البلد التعيس. إن الصورة المثالية للثورة الكمبودية ليست سوى الصورة النقيضة للثورة البورجوازية، فقد أُفرغت المدن بكل وحشية من سكّانها الذين أُبيدوا أو أُبعدوا إلى الأرياف، بعض الأحياء دُكّت وتمّ تحويلها إلى مزارع أرز، وانقطع بذلك كل تواصل بين المدن وأريافها؛ وبالنتيجة انعدمت حركة المرور بالعاصمة فأقفرت، إذ لم يبقَ فيها سوى بضع كتائب من المشاة وزعماء الخمير الحمر وبعض البعثات الديبلوماسية. إنّ الأمر أبعد من أن يكون ثورة، إنه الخاتمة الفاجعة للحصار الذي فُرض على القلعة القديمة، إذ انتهى الأمر بأن اكتسحها مهاجموها.

في الفييتنام «المحررة» اكتشفنا أساليب أخرى لتعبئة البروليتاريا، إذ لم تقتصر أولى مشاغل الجيش الثوري بعد سقوط سايغون Saïgon، على الدفع بالسفلة من القوم كالمومسات وتجار السوق السوداء نحو أعمال التعمير اللوجستية (شقّ الطرق الاستراتيجية وخطوط السكك الحديدية، وتشييد القناطر... إلخ)، بل أضافت إليها إكساء شباب البلاد زيّاً موحداً جديداً وتدريبهم على كيفية أن يكونوا «قروداً» فيلقنونهم كيفية التعبير عن فرحتهم

بالتحرير. إنهم بذلك يظهرون هذه القوة الشبابية البريئة وهي تُختزل في أجساد مُستعبدة ومُروّضة. إن دكتاتورية البروليتاريا ليست سوى دكتاتورية الحركة (العمل) التي تُظهرها الحفلات الشمولية الكبرى بجموعها الضخمة المضطربة، شأن تلك الألعاب الأولمبية الموازية المعروفة باسم **السبارتاكياد** spartakiades[١٠] التي كان يُحتفل بها في أوروبا الشرقية، كما كان الأمر زمن الفاشية. هذه الحفلات المتزامنة تصهر آلاف الأشخاص ضمن مجموعات هندسية كما كان شأن «المُربع» سابقاً في التدريبات العسكرية[١١]، ومن ثَمّ تبث فيهم حيوية ونشاطاً وقد تزينوا بالأوسمة والنياشين[١٢] رافعين بِنَهَم شعارات زعماء الحزب أو صورهم الضخمة، فكل مناضل ثوري من بين هذه الآلاف يجد فرصته كي يعيش ولو للحظة وهْم تماهيه مع شخص ستالين أو ماو.

ولكن ما هو أكثر أهمية من كل ذلك هو مراكز إعادة التأهيل التي أنشأها الفييتناميون أسوة بالصينيين، وهي مناط فخرهم الكبير إذ يبدو أنهم ألغوا من عقيدتهم القمع الدموي والعقوبات الوحشية. هذه المراكز التي يُرسل إليها الناس **دون محاكمة** تُلفت الانتباه بتسميتها ذات الصبغة الطبية الخالصة، فإعادة التأهيل تذكّر بالبرمجة الميكانيكية للأجساد العاجزة أو المعوقة فهي تزعم **إصلاح عطبها**. وهكذا فقد كفّوا عن اعتبار المجرم المنشق عن الأيديولوجيا الرسمية معارضاً سياسياً لذلك يمنع من حق العلاج النفسي الذي كان يحظى به مثقفو الاتحاد السوفياتي أو الولايات المتحدة الأمريكية. إنّ الحتمية المادية تبلغ هنا شكلها المطلق بما أنه يتم استبعاد أية إمكانية للتعامل بجدية مع فكر مخالف أو مفهوم مختلف. فالمنشق عن السلطة ليس سوى الجسد وانشقاقه إنما هو جريمة جسد، كأن يكون مصاباً بداء الخمول أو الانحراف الأخلاقي. لقد كانوا في منتهى الوضوح فلم يعد الأمر يتعلق بجريمة رأي بل بجريمة جسد. لقد تمّ تجاوز مسألة [قراءة

---

(١٠) هي ألعاب ومسابقات رياضية دولية أنشأها الاتحاد السوفياتي السابق سنة ١٩٢٨ لمنافسة الألعاب الأولمبية (الغربية). وتعود التسمية إلى قائد ثورة العبيد في روما «سبارتاكوس». وتطلق التسمية نفسها على مسابقات في الجمباز كانت تقام في تشيكوسلوفاكيا وألبانيا (المترجم).

(١١) «المربع» هو شكل من أشكال التدريب التي كان يخضع لها جنود المشاة في الجيش الروماني القديم، ويقتضي تجمع الجنود في شكل مربعات متحركة لمواجهة العدو (المترجم).

(١٢) من المعلوم أن المشاركين في السبارتكياد كانوا يعدون بالملايين، فالرياضة للجميع، وكانوا كلهم يتلقون في نهاية الألعاب ميداليات وأوسمة وهدايا وتذكارات (المترجم).

نص][13] الاعتراف[14]، فالأجساد مُتهمة بكونها فقدت جاهزيتها، ولذلك وجب إعادتها إلى صفوف الحزب، إلى مستوى سرعة شعب مُنكبّ بأكمله على العمل الذي هو فرصة للتمارين البدنية الجماعية بدايةً من التدرب التقليدي على استعمال السلاح وانتهاءً بالتدرب على الاسترخاء ورياضة الجمباز في الشارع والمعسكر والمصنع وضمن الرياضات الجماعية ونوادي الرقص ونوبات الحراسة في الحدائق الإيكولوجية. لقد كنا نلحظ إبّان الثورة الثقافية الصينية شيئاً من الانزعاج يرتسم على وجهَي ماو تسي تونغ وشوان لاي Chou-En Lai وهما يتابعان ملايين الأشخاص يلوّحون بـ «الكتاب الأحمر» وكأنهم روبوتات. فهل ستُختزل الثورة الحضارية التي طمح إليها هذا الرجل الشاعر في هذا الحشد المضطرب المعزّز بحملة واسعة على جدران بيكين تشهّر بأعداء الثورة تماماً كما حصل قبل مئة عام مع كومونة باريس (دولة البوليس كما سماها الجنرال كلوزارات Cluseret)، وتماماً مثل

---

(١٣) كان المنشقون في دول المنظومة الشيوعية يتعرضون إلى تعذيب شديد ينتهي بإجبارهم على قراءة نص معدّ سلفاً فيه اعتراف بالتهم المنسوبة إليهم (المترجم).

(١٤) في القرون الوسطى كان يتم تعذيب الجسد «العارف بالحقيقة» حتى يبوح بها رغماً عنه. ولكن التعذيب ألغي في القرن التاسع عشر، لا لأسباب إنسانية، بل لأن ممارسيه أدركوا في النهاية أنّ كلّ فعل (حركة بشرية) يترك ضرورة أثراً ظاهراً وبصمة مادية؛ ومذ ذاك فإنّ الأدلة تنطق بنفسها بفضل العلم فتنتزع منها بمعنى ما «الاعترافات» نيابة عن المتهم، وذلك بترتيب هذه الآثار المادية وفق خطاب/مسار عقلاني. ولكن سرعان ما تبيّن للأنغلوسكسونيين بعد تجربة قضائية مبكرة أقيمت في شكل حوار مسرحي أنّه انطلاقاً من الأدلة المادية المتطابقة نفسها يمكننا استخلاص عديد الخطابات المنسجمة التي يكذّب أحدها الآخر، وذلك بمجرد قلب ترتيب عناصرها. بعد ذلك أخذ الطب النفسي بطريقة ما المشعل فاستعاض عن الأدلة المادية الظاهرة بالآثار الباطنية للجريمة. وهكذا فإنّ الطب النفسي بإمكانه الحصول على اعتراف المعني رغماً عنه، إذ تتدفق اعترافاته عبر الشفتين في شكل إيماءات وملفوظات مبهمة يتم فيما بعد إعادة معالجتها وفق أساسيات علم الطب النفسي. والحقيقة أنّ هذا الدفق من الاعترافات الحاصلة بفعل المعالجة النفسية ليس صادراً عن إرادة الذات المعنية ولا يقف عند لحظة الجريمة وملابساتها التي لا يعرفها سواها وحسب، بل هي اعترافات شاملة تمتد من لحظة ولادة المتهم إلى لحظة إصدار الحكم النهائي. وإذا نحن ما زلنا نروم سماع اعتراف عن طريق الاختبارات النفسية فمن المؤكد أنّ هذا الاعتراف ليس هو ملابسات الجريمة كما رواها مرتكبها. لقد تمّ تعزيز هذه الطرق بإصدار دليل مناطق الجريمة في المنظومات الحضرية، الذي تعزّز بدوره بحاسوب إحصاء الجريمة (Criminostat) الذي تختبره حالياً الشرطة الفرنسية. وفي هذا المستوى نعتقد أنّ الأخطاء والثغرات المتعلقة بترتيب محتوى الاعتراف قد تضمحل، فبفضل الحاسوب يمكننا أن نجعل خطاب الاتهام، سواء تعلق الأمر بالذات المتهمة أو بموضوع الاتهام، منسجماً تمام الانسجام أو هو في حكم ذلك. ومن ثمّة يمكنهم الاستغناء نهائياً عن اعترافات المتهم، فما يعرفه عن جريمته أقلّ مما يعرفه الحاسوب، وفاقد الشيء لا يعطيه. هذه بصورة عامة خلاصة العمل الاجتماعي في فرنسا.

الثورة الكمبودية وتنظيمها الجاسوسي Kang-Chhlop؟ فهل ستنحطّ الاشتراكية إلى أن تكون تعميماً للتخابر؟ في الحقيقة من الطبيعي أن تفضي الثورة **السياسية** إلى ما نشهده من إعادة توزيع للمهمات (أو للسلطات) البوليسية على كلّ المناضلين بنفس القدر الذي توزع فيه على كثير من موظفي الإدارة المرورية العسكرية الموكول إليها منذ العهد الأرستقراطي توطيد الشفافية الاجتماعية والنظر في حالات الجسم الاجتماعي وحركاته غير السويّة وكذا في وضع الجسم الوطني كحال المراقبة الحدودية تماماً. إننا إزاء صنف من البوليس الإيكولوجي الذي يقوم بنفس مهمة المراقبة الحضرية [المعهودة]، والذي يبدو بالنسبة إلى السلطة بمثابة حلّ مستقبلي.

تعلّمنا صورة كاسترو Castro وقد استبدل الزي العسكري البينوشي[١٥] بزي الثوار الرثّ، وكذا صورةُ بريجنيف Brejnev وقد تدثّر في زي ماريشال، وصورُ القادة العسكريين وقد فاضت عليهم النياشين، وهم يحضرون بكثافة في كلّ المناسبات الاشتراكية في العالم، كل ذلك يعلمنا أنّهم هم خاتمة مُرسملي العمل (المنتج) ودكتاتوريو الحركة الحقيقيون، وأنهم هم، وليس الفلاسفة والإيديولوجيون الخاملون، أصحابُ مقولة سنة ١٧٨٩ السياسية: «الأمم تمضي قدماً إلى الأمام»، وأصحاب فكرة الحشود البروليتارية العسكرية الجديدة التي تحولت منذ أواسط القرن التاسع عشر مع انتشار سلاح المدفعية الصناعية وتعميم حرب الآليات إلى مقذوفات. كتب تروتسكي Trotski في هذا الشأن سنة ١٩١٤: «إنّ المدافع الثقيلة قد رسّخت في أذهان الطبقة العاملة فكرة مفادها أنه (إذا عجزتَ عن تجاوز الحاجز فعليك أن تحتال عليه وتحطمه). وهكذا **فالمرحلة السكونية تترك مكانها للمرحلة الدينامية**».

بعد لينين، سيلقّب ماو تسي تونغ الشعب بـ «القوّة المحركة للتاريخ»، وذلك عندما طُرحت باهتمام مسألة الاستيلاء على مصادر الطاقة. وهكذا فإنّ الاستعارة السياسية تصاحب عن قرب التطور اللوجستي بما أنها تَنشُد مكانة في التاريخ. إنّ العلم العسكري مثله مثل علم التاريخ ليس سوى إدراك مستمر لحركية الأجساد الميتة، والعكس بالعكس فالأجساد يمكنها أن تكون حوامل للتاريخ مثل قواه الحيوية الموجهة له. ولقد أكّد نابليون الثالث أنّ «القدرة على التذكر هي العلم عينه بالنسبة إلى رجل الحرب».

---

(١٥) نسبة إلى الدكتاتور بينوشي Pinochet (المترجم).

القسم الثاني

التطوّر الدرومولوجي(*)
أو
تطوّر علم السرعة

(*) الدرومولوجيا مفهوم من نحت المؤلف يتكون من عبارتين إغريقيتين هما Dromos وتعني «السباق أو السرعة» وLogos وتعني «العلم»، فالدرومولوجيا هي علم السرعة الذي يُعنى بدراسة ظاهرة السرعة في المجتمعات الحديثة والدور الذي تلعبه فيها، خصوصاً بعد التطور الكبير لوسائل النقل ووسائل الاتصال (المترجم).

الفصل الثالث

من الحق في الفضاء إلى الحق في الدولة

الكائن المحكوم عليه بالعيش في الماء يعاني دواراً.

إنه ما يفتأ يفقد باستمرار شيئاً من جوهره فيدنو من موته كل لحظة.

باشلار

يصوّر رسم كاريكاتوري إنكليزي يعود للقرن التاسع عشر نابليون بونابارت ووليام بت الأصغر William Pitt Le Jeune وهما يتقاسمان بحدّ السيف قطعة من الحلوى على شاكلة كرة أرضية، فكانت اليابسة من نصيب الفرنسيين في حين استأثر الإنكليز بالبحر. تلك طريقة أخرى لاقتسام العالم، فعوض أن يتواجه الخصمان في ميدان واحد وفي ساحة معركة محددة انصرفا إلى ابتداع صراع جغرافي طبيعي حيوي بين إنسانيتين: واحدة تعمّر البرّ والأخرى تعمّر المحيطات؛ ومن ثَمَّ خلقا أمماً ليست من أمم الأرض في شيء، ومن ثمة أوطاناً لا يمكن هذه المرة وطؤها بالأقدام، إذ كفت عن أن تحويها أرض. [إنه البحر]؛ والبحر حرّ أو لا يكون، ففيه يعانق الشعب شرط الحرية (حرية الحركة). يبدو إذاً أن «الحقّ في البحر» هو اختراع غربي بامتياز مثلما سيكون لاحقاً «الحق في الفضاء الجويّ» حيث كان المارشال غورينغ Goering يحلم بأن يوطّن **أمّته النازية الطائرة**[1] **[فخاطب الألمان قائلاً]: «ينبغي على كل ألماني أن يتعلم الطيران.. فالإنسان خلق حراً طليقاً كالطير». ومع انطلاق أولى الصواريخ الباليستية قال هتلر وقد أحسّ بقرب**

(١) F. Thiede and E. Schmahe, *Die Fliegende Nation* (Berlin: Ed. Union Deutsche Verlaganstalt, 1933).

هزيمته العسكرية، مخاطباً [القائد العسكري] دورنبرغر Dornberger [المسؤول عن برنامج الصواريخ]: «لو وثقتُ في جهدك لم نكن لنحتاج إلى الحرب أصلاً»، **أو لنقل لم نكن لنحتاج إلى خوض المعارك.**

إنّ الانتصار دون قتال على عدوّ أوروبي يندفع دون هوادة فتنهك قواه ضمن الحدود الفضائية ـ الزمنية لساحة المعركة البرية هو، كما نعلم، إنجاز إنكليزي. وبالفعل فقد هزم رجال **أسطول الردع** the fleet in being[٢] هتلر كما هزموا نابليون من قبله، ويعود الفضل في انتصارهم إلى عجز العدو عن مواجهتهم، إذ تخلّوا عن المبدأ العسكري الكارثي، مبدأ مهاجمة العدو حال ظهوره والاقتراب منه. **إن أسطول الردع هو الخطة اللوجستية التي تحقق بلا ريب الاستراتيجية بما هي فن حركة الأجسام غير المرئية**، إنه يعني الحضور الدائم في البحر لأسطول مخفي بإمكانه أن يهاجم العدو أنّى وأين شاء، إنه يخلق بذلك حول العدو منطقة غير آمنة كلّياً فيسحق إرادة قوته ويفقده قدرته وثقته على «اتخاذ القرار» أي **إرادته** فيعجز عن الانتصار. حقاً إننا إزاء تصوّر جديد للعنف، فلم يعد العنف وليد المواجهة المباشرة وإراقة الدماء، ولكنه أصبح وليد تفاوت خاصيات الأجسام المتحاربة وتقييم كمية الحركة المسموح بها لكل جسم والمراجعة المستمرة لكفاءتها الدينامية. وإذا كان نابليون لا يقدّر قوّة الجيش إلّا بالنظر إلى آلياته الميكانيكية فإنّ موريس دي ساكس Maurice de Sax، أحد أوائل القادة العسكريين في القارة الأوروبية، قد أدرك أنّ القوّة يمكن أن **تُردّ إلى الحركة وحدها** فجزم قائلاً: «لا أرى فائدة من المواجهات العسكرية الميدانية، فأنا على يقين بأن جنرالاً محترفاً يمكنه أن **يظل طول حياته محارباً دون أن يخوض معركة واحدة**». إلّا أنه، وبالنظر إلى أن الفضاء في أوروبا محدود وغير مستوٍ، فإنه لا يمكننا «محو العدوّ» دون أن نُجبر يوماً ما على المواجهة المباشرة بين حشود عسكرية كبيرة. إنّ عزلة الألمان هي خير مثال لهذا القَدَر الجغرافي التاريخي

---

(٢) «منذ نهاية القرن السابع عشر شكّل أسطول الردع، بما هو أسلوب قتالي مبتدع من قِبل الأميرال هربرت (Herbert)، نقطة تحوّل في ممارسة الضغوط على العدو من الوجود إلى الموجود، فقد شكّل ذلك الأسطول انتهاء [فعالية] الآلة الحربية البحرية والحرب عن قرب، فأضحت قوة نيران القطعات البحرية ثانوية». انظر: Paul Virilio, *Essai sur l'insécurité du territoire* (Paris: Stock, 1976).

المؤسس للاحترابية الدموية الحادة التي عبرت عنها النظرية البروسية. وفي المقابل، وعلى الحادور البحري العريض، فإن الأسطول الوطني الإنكليزي يمكنه أن يتجنب، بصورة شبه تامة، المواجهة، فالعدو لا يقدر أبداً على إجباره على أن يخوض ضده **معركة خاسرة**، والسبب في ذلك أنه بمنأى عن الأنظار على الرغم من وجوده في البحر.

إنّ استراتيجية المواجهة غير المباشرة المتمثلة في تجنب خوض المعارك الخاسرة وفي العمل على توطين اليأس في قلوب الأعداء وعلى تكبيدهم آلاماً نفسية ومادية تنهكهم وتمحقهم يمكنها أن تثبط عزائم شعب بكامله دون الحاجة إلى إراقة الدماء مصداقاً للقول المأثور: «الخوف من الحرب أسوأ من الحرب نفسها»[٣]. وعلى أية حال فإنّ اختراع السعادة، تلك الفكرة الطارئة على أوروبا كما قال سان جوست، لم تكن بالنسبة إلى سكان القارة سوى طريقةٍ لمواجهة هذا القيد الأخلاقي الوافد من البحر وتعويضٍ عن جوهرهم المفقود.

كان على الحلفاء سنة ١٩١٤ أن ينتظروا سنتين حتى يُحدث حصارهم لألمانيا أثراً على السكان المدنيين. ولكن هذا الأثر سيمتد مفعوله إلى ما بعد نهاية المعارك البرية، إذ سيكون عاملاً غير مباشر في الركود السياسي والاقتصادي لألمانيا. إنّ قنوط الشعب الألماني الطويل هو الذي مهّد لبروز السياسة النازية الانفعالية ولعملية التدجين الفاشية للشعب الألماني. وبالمثل فإنّ الانهيار السريع المادي والأخلاقي الذي نلحظه حالياً في أوروبا الغربية ليس سوى النتيجة غير المباشرة للتغيير المفاجئ للجيواستراتيجا الأمريكية الذي سبب لقارتنا، عن بعد، أزمة اقتصادية وعضوية جديدة.

إن هذه الاستراتيجية غير المباشرة الأثيرة لدى جموع التجار تعيد إنتاج الحصار البلدي القديم في سياق آخر، فهي تُتيح، كما الأمر في حالة الحصار القديمة، توسيع نطاق الأعمال العدوانية ضد مجموع سكان «القارة»، وليس فقط ضد «سكان المدينة».

---

(٣) نقترح هذا القول المأثور ترجمة للقول المأثور: «La peur est le plus cruel des assassins, elle ne tue jamais mais vous empêche de vivre» (المترجم).

تمثل هذه الاستراتيجية إحياءً للرأسمالية، فهي ليست أكثر من تفوّق تقني تم بموجبه التخلي عن القلعة القديمة التي قوّضتها قوة الجيوش النظامية الجديدة. إنها تلبي الاحتياجات الاقتصادية المتنامية للطبقة العسكرية الأوروبية في سعيها نحو السيطرة على موجات حركة المرور البرية.

وفي المحصلة فإنّ الليبرالية الاقتصادية تعبّر تعبيراً دقيقاً عمّا قاله إرّاد دي بار الدوق Errad de Bar-le-Duc: **لقد تنوعت طرق الاجتياح بحسب أزمنة اختراع آلات التدمير**. هذا الرفض البورجوازي العاجل لمفهوم الحرب البرية شكّل مذ ذاك مبدأ رأسمالية أضحت «برمائية» تمارس الحرب الشاملة في البحر وفي المستعمرات، فقفزت، بالمعنى الحقيقي للكلمة، من داخل «الآلات الضخمة الصماء» إلى داخل «الآلة المتحركة»، فحوّلت بذلك المحيطات «معسكراً لوجيستياً ضخماً»، وسحبت البروليتاريا [من البرّ] لتشغّل معدات [الحرب] البحرية، فصارت بروليتاريا مُجدّفة، وصارت هي المحرّك الفعلي لآلة [الحرب]، إذ تطلقها من عقالها ساعة اندلاع المعركة.

لقد استحدث أسطول الردع تصوّراً جديداً لسطوة السرعة، فلم تعد السرعة تعني السياحة في القارات أو البحار أو التنقل من مدينة إلى أخرى ومن ضفة إلى أخرى، إذ ابتدع هذا الأسطول مفهوماً للسرعة يقتضي التنقل دون وجهة محددة ودون زمن معلوم. وهو بذلك يؤسس لفكرة أصيلة، فكرة التبخر في الفضاء عوضاً عن التحطم في المواجهات الحربية. إنه بصدد إنجاز رحلة أبدية نحو اللانهائي. وإنّ تحطمه يعني في هذا السياق ضرورةً، وأيّاً كانت الطريقة، استحالةَ عودته. إنه يعني أن لهذا الأسطول وجهة معتادة هي وجهة كلّ أسطول ضلّ طريقه في البحر بطاقمه ومعداته، أو هو يفتعل الغرق شأن تلك الغواصات التي توهم ملاحقيها بالغرق فتلقي خلفها حطاماً صورياً وتتخلص من بعض وقودها، وشأن تلك السفن الحربية المتهالكة التي تُجرّ جرّة أخيرة إلى عرض البحر فيتم الاحتفال بنهايتها وإغراقها في مشهد مأتمي بحري كبير بحيث تجد السفينة نفسها وقد ابتلعتها دوامة المياه، أو ابتلعها سيرها الحثيث نحو نقطة اللاعودة.

وهكذا فإنّ قصتي غوردن بيم Gordon Pym وموبي ديك Moby Dick[٤]

(٤) هما روايتان تقصان مغامرات بحرية شيقة وغريبة (المترجم).

ليستا سوى تنبؤ بظهور السفن الحربية النووية. إنّ الغواصة الاستراتيجية ليست في حاجة إلى التنقل، بل تكتفي بمراقبة البحر دون أن تكون مكشوفة للعدو، ولكن في توقيت محدد. وبالفعل فما أنْ أصبح أسطول الردع مُعطّى أساسياً لـ «الحق في البحر» حتى سعى المستكشفون والباحثون وهواة المغامرات بجميع أصنافهم إلى ابتداع ممرات سالكة تزامناً مع سعيهم المتواصل للظفر بأراضٍ جديدة، أي السعي إلى القيام برحلات كاملة[٥] لا تتضمن نقطة انطلاق ولا نقطة وصول، وبعبارة أخرى السعي إلى أن يكون السفر دائماً، وقد أنبتت التجارة الثلاثية (أو الدائرية) الأوروبية بهذا السعي.

وهكذا ظهر في المحيطات صنف جديد من الحقوق السياسية، هو «الحق في البحر». ولقد قيل إن هذا الحق كان في البدء إحساساً وجدانياً وشاعرياً أكثر منه فكراً عقلانياً. وفي الحقيقة إنّ الحواضر المتوسطية والأمم الجزرية التي تعاني من فائض ديمغرافي ومن الفقر وضيق المساحة وتطمح إلى «الحرث في الماء» عبر اصطناع شعب بحري، تبدو ميّالة إلى رفض الخضوع إلى أي قانون أرضي قديم؛ لذا **فالبحر المنبسط**[٦] هو البديل عن كل الإكراهات الاجتماعية والدينية والأخلاقية وكل المظالم السياسية والاقتصادية، وحتى القوانين الفيزيائية المرتبطة بجاذبية الأرض وانحسار اليابسة. غير أنّ الحق في البحر سرعان ما انقلب في الواقع إلى «الحق في الجريمة»، ومن ثمّ تحوّل إلى عنف منفلت. وسريعاً ما عوّضت «سلطة البحار» البحر المنبسط.

إنّ مؤرخ القرن السابع عشر كان قد لاحظ مؤشرات هذا التحوّل ما أن اقترب من الشاطئ، حيث كانت تنتشر «فظاعات قراصنة السفن الذين يحتالون على البحارة بإشعال النيران فيعطبون سفنهم ويقتلون الناجين منهم ويسلبونهم متاعهم...». أما في عرض البحر فلم يرَ سوى العنف الفظيع المبرر بكونه أعمالاً بحرية [مشروعة]. ثم يستنتج: «أنّ الاستبداد الفظيع يرمي، تحت غطاء الاحتكارات التجارية، إلى **الاستئثار بالهيمنة** على المحيطات.. باعتباره ضرباً من الحق في الاحتلال مارسه الهولنديون بعدما

(٥) إحالة على الحركة الأرسطية الكاملة وهي الحركة الدائرية (المترجم).

(٦) انبساط البحر هو كناية عن حرية الحركة فيه وغياب الحواجز والعوائق السلطوية (المترجم).

مارسته جمهوريات البندقية وإسبانيا ولشبونة». ثم يضيف مؤرخنا لاحقاً: «إنّ أخطر ما في الأمر أنّ كلّ هذه التنظيمات البحرية القوية لم تكن من صنع الدول، بل كانت إفرازاً طبيعياً للعبقرية التجارية الجشعة لهذه الأمم، ولم يكن للدولة من دور بعد ذلك سوى معاقبتها، ومن ثمّ احتوائها». وبالنتيجة، فلا غرابة أن يموّل نشرَ وتوزيعَ كتاب «**البيان الشيوعي**» مهرّبٌ وقرصانٌ اسمه لافيت Laffitte؛ فرؤية ماركس للدولة الأممية التي «تنبثق عن المجتمع في مرحلة محددة من تطوّره» تشبه كثيراً إمبراطورية «سفن الدّحرجة»[٧] التي انبثقت منها بصفة عفوية أول أمّة صناعية في العالم الحديث، هي إمبراطورية موجودة في كل مكان ولا تنتمي إلى أي مكان، مهووسة بالمبادلات التجارية وأسيرة المصالح الاقتصادية لا غير، سعيها محموم نحو حيازة كلّ شيء ونحو تدمير كل ما لدى أعدائها، هي بمثابة دولة دكتاتورية شمولية قد «أطلق شعبها مراكبه» وودّع اليابسة، وكان بذلك أول شعب يصدق عليه تعريف ماركس للبروليتاريا الصناعية: «ليس للعمال وطن.. ينبغي قطع الحبل السرّي الذي يربط البروليتاري بوطنه».

في إنكلترا، وإلى حدود القرن التاسع عشر، كانت الموانئ تُغلق ويُعاد البحارة إلى اليابسة بأمر ملكي في ما يعرف بـ «غزوة الصواري»[٨]. أمّا في فرنسا فقد اقتضت عملية مَكْنَنة الحرب البحرية في القرن السابع عشر تشغيل أعداد كبيرة من الموظفين، لذلك كان يتم إحصاء كل سكان الساحل وتسجيلهم ومن ثمّ «اعتبارهم منخرطين حصرياً في جيش كبير تتراوح مهمته بين الحرب والتجارة وأعمال التهيئة الترابية». هذا ما اصطُلح عليه بنظام الفرق[٩]. لقد حصل هذا المسعى الأولي للدولة لخلق بروليتاريا عسكرية عشية اندلاع الثورة الفرنسية، وكان بذلك بمثابة الاستعمال الجماهيري الأول للنقل الجماعي. وكان هناك أيضاً انشغال بـ «جنسية» البروليتاري الجديد، وهو أمر لافت في ذلك العصر؛ فلمّا كان البروليتاري من مبعدي الحرب

---

(٧) هي السفن التي تُستعمل لنقل السيارات والقطارات بمختلف أنواعها، وقد استُعملت في الحرب العالمية الثانية لنقل المدرعات والدبابات (المترجم).

(٨) استعرنا هذه العبارة من التاريخ الإسلامي ترجمة للعبارة الفرنسية razzia de matelots (المترجم).

(٩) في كل المدن الساحلية كانت البحرية الملكية الفرنسية تجمّع المجندين في فرق وتخضعهم لتدريبات يكونون بعدها مؤهلين للعمل في الأسطول الملكي (المترجم).

الشاملة فقد كان مطالباً بإثبات أصوله، فإذا كان أجنبياً وجب عليه الحصول على الجنسية في ظرف خمس سنوات. أمّا الفرار من الجندية فقد كان عقابه شديداً. يضاف إلى ذلك أنّ الدولة كانت تمارس سياسة الضبط الاجتماعي على عائلات العمال المجندين عبر التزامها بـ «رعاية نسائهم وأطفالهم». ومع ذلك فإنّ تنامي النزعة التوسعية الاستعمارية كان كبيراً إلى درجة أن انتداب البروليتاريا قد ارتبط بالقمع القضائي والبوليسي. لقد كانت عمليةً عشوائية تمّ فيها الخلط بين البروليتاريا وجماعات المنفيين والمحكوم عليهم بالإعدام الذين كانت المحاكم «تختلقهم» بأعداد كبيرة تحت ضغط الحكومة. والنتيجة أن البروليتاريا كانت في القرن السابع عشر تتشكل من جمهور واسع حقيقي من المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة، أولئك «المعذبون في الأرض». إنّ المعارضة النظرية التي أبداها ماركس وأنجلز للبرودونيين تلتقي في النهاية مع فكرة كولبارت التي أسف فيها لعجز الفرنسيين عن إقامة مملكة بحرية قوية جداً ولتأخرهم في المجال الاستعماري بالقول: «ما دام الفرنسيون منشغلين بتقليد أهل مرسيليا فلا يمكنهم تأسيس شركات تجارية، فهم يفضلون التضحية بأفضل الفرص المتاحة لهم في العالم على أن يضيّعوا لحظة لهوٍ في المنتجع الريفي، وإضافة إلى ذلك فهم لا يفضلون السفن الكبيرة ويكتفون بالقوارب الفردية»[١٠]. إن ابتداع **الحق في البحر** كما نُظر إليه آنذاك لا ينسجم مع هذا النزوع نحو سعادة أرضية قوامها البساطة والاستقلالية اللتان نعثر عليهما في الجنوب. وبالمثل، فإنّ الطوبى الاجتماعية تنشأ بسبب الضغينة ضد الأرض أكثر منها بسبب العداء الطبقي. ويمكننا التمادي إلى ما لا نهاية في لعبة المقارنة بين مشروع كولبارت الاجتماعي ومشروع إمبراطورية البحار حيث دفن ماركس[١١].

ولكن الأهم من كل ذلك علينا أن نأخذ بعين الاعتبار الصبغة الكرونومترية لهذه الإمبراطورية التي تنقل عنفها إلى ظلمات البحار، هذه الأمة العائمة التي تشبه علم التاريخ، بصفته آلة [مخصوصة] لاستعادة الزمن.

---

(١٠) G. B. Depping, *Correspondances administratives sous Louis XIV* (Paris: Imprimerie Nationale, 1850).

(١١) «المادية هي الابن الحقيقي لبريطانيا العظمى»: Marx, *Contribution à l'histoire du Matérialisme français.*

وبالفعل فإن الانتصار (القرار) في عالم بلا معالم وبلا حواجز، عالم أسطول الردع، يقتضي أن نستعيض عن عدم تموقعنا في أي موضع أرضي بالتموقع على الأقل في الزمن، أي ضمن التوقيت العالمي المنسق. ولهذا السبب البسيط ظل الإنكليز ردهاً من الزمن من أفضل صانعي الساعات، ذلك أن التحكم في البحر يتطلب التحكم في الوقت، إنه يتطلب «التعلق بما وراء العرش»، كما كان يقال.

لقد كان من الطبيعي جداً أن تنشأ لدى سكان الجزر (حرب الأميرال باولي paoli في جزيرة كورسيكا في ظل حكم لويس الخامس عشر)، أبناء أمة البحّارين (المواجهة بين إسبانيا والإمبراطورية الفرنسية)، وبتأثير من الإنكليز الصيغة الحديثة للحرب الشعبية[١٢]. وبالفعل فالحرب الشعبية كفت عن أن تكون في ميدان معيّن، إذ هي تقتضي التحام المجموعات المحاربة بالمجتمع (يشبّه المحارب الجديد داخل المجتمع بـ «السمكة في البحر»: الإشارة إلى العنصر السائل هنا ليس اعتباطياً). إن الحرب الشعبية هي من قبيل الحرب في البحر، حرب تصادم الأجساد الديناميكية. إنها تحيل على «العنف الفظيع المبرر بكونه أعمالاً بحرية»، وعلى انهيار الأخلاق والقوانين السابقة. وباختصار فالحرب الشعبية هي حرب شاملة.

لم ندرك جيداً في تاريخ الغرب اللحظة التي حصلت فيها تلك النقلة من حيوية العنصر المائي الطبيعية (المتمثلة في سهولة نشر معدات ثقيلة في البحر ونقلها وتحريكها) إلى حيوية تكنولوجية حتمية[١٣]، تلك اللحظة التاريخية التي تسرّبت فيها وسيلة النقل التكنولوجية من البحر كما لو كانت جسماً حيّاً لم يكتمل تطوّره فغادر وسطه المائي زحفاً واستحال كائناً برمائياً. وهكذا فإن السرعة من جهة كونها مجردة وبلا مضمون قد نشأت في البحر كما نشأت فيه أفروديت Aphrodite. وعندما صاح مارياتي Marinetti بأن الكون قد ازدان بروعة جديدة، روعة السرعة، مقارناً سيارة السباق بالنسر المجنح Victoire de Samothrace فقد غاب عنه أن الأمر يتعلق بنفس الجمالية، جمالية

---

(١٢) يحيل المؤلف هنا إلى الحروب البحرية التي قامت بين الفرنسيين والإسبان للسيطرة على البحر المتوسط وعلى ما عُرف آنذاك بالجمهوريات البحرية (المترجم).

(١٣) انظر: Filippo Tommaso Marinetti: *Manifeste du futurisme: Navigation Tactile*, et *Commentaire de Giovanni Lista*, coll. «Poètes d'aujourd'hui» (Paris: Éditions Seghers, 1976).

آلة النقل، فالتلاحم بين المرأة المجنحة وسفينة الحرب القديمة هو من جنس التحام مارينياتي الفاشي بسيارته «البوليد Bolide» ذات السرعة الجنونية، ذلك «اليخت النموذجي الذي يطوي الأرض طياً». هذا التلاحم هو نتيجة هذه التطورية التكنولوجية التي عُدّ تحققها أكثر جلاء من تطورية عالم الأحياء. لقد أفضى الحق في البحر إلى حق الدول الحديثة في الطريق، وبذلك أضحت دولاً شمولية.

عندما لاحظ نورمان أنجيل Norman Angell في كتابه «**الوهم الكبير**» *The Great Illusion* أنّ الحرب أضحت **غير مجدية اقتصادياً لأنها لم تعد مؤسسة على سرقة ما بحوزة «أولئك الذين هم خارج الوطن»**، أي لم تعد مؤسسة على [سرقة] **ثروة محمولة** ولكنها أصبحت بالأحرى مؤسسة من الآن فصاعداً على الاقتراض والعقد التجاري، فقد جانبه الصواب، إذ ظن أن هذا التحوّل سيضع حداً نهائياً لظاهرة «المستعمر». وفعلاً فإنّ خطابه هذا يعوزه شيء من الدقة، لأن ما سيكشف عنه تغيّر طبيعة الثروة هو حصرياً تغيّر سرعة الاقتصاد العالمي، وهو أيضاً تغيّر وحدة القياس من المنقولات إلى الزمن. إنه باختصار الانتقال إلى **حرب الوقت**.

يؤكد اختراع أسطول الردع أن بريطانيا قد ركزت جهودها على الإبداع التقني في مجال وسائل النقل، وتحديداً في مجال صناعة المَرْكبات السريعة. وهذا هو مصدر تفوقها الاقتصادي، وبالأخص مصدر هذا الخيار [الاقتصادي] الذي جعل منها أمة صناعية عظيمة ونموذجاً لبقية الأمم، الأمر الذي خلق [لدى شعبها] «ذلك الإحساس الأصيل بالتفوق التقني الذي تمحّض إلى إحساس بالتفوق في جميع المجالات». ففي الحقيقة لم تحصل هناك «ثورة الصناعة» بل «ثورة السرعة»، ولم تكن هناك سلطة الشعب بل سلطة السرعة. وانتهى علم الاستراتيجيا ليحل محله علم السرعة. ففي اللحظة التي انبجست فيها السيرورات التطورية للتكنولوجيا الغربية من البحر بدأت الثروة تتبدد ودقت ساعة انهيار الأمم والشعوب الأكثر قوة، ولا أدل على ذلك من التصريحات الأخيرة [للرئيس الأمريكي] كارتر حول نهاية نمط الحياة الأمريكي كمثل أعلى. إن السرعة باعتبارها جوهر التقدم الدروموليوجي هي التي تدمر التقدم، وإن ديمومة حرب الوقت هي التي تخلق

السلام الشامل، **سلام الاستنزاف**[١٤]. إن قضية طائرة النقل الخارقة لجدار الصوت ومن بعدها قضية طائرة الكونكورد تجسدان بشكل جلي هذه المنظومة الاستنزافية (هذه المنظومة مُكلفة جداً إلى درجة أنّ الدول المتقدمة اضطرت إلى التعاون حتى تستمر في إنتاج هذه المَركبات الخاضعة إلى قانون وحيد هو قانون السرعة). ومثلما كان الأمر مع أسطول الردع فإنّ الاستمرار في احتكار هذه الصناعة يقتضي أنّ كل مركبة جديدة تُصنّع تدفع العدو إلى إنتاج مركبة أسرع. ومع ذلك فإنّ عتبة السرعة تتقلص باستمرار، فالمركبة السريعة ما تنفك تستعصي على الاستيعاب، وغالباً ما تنتهي صلاحيتها قبل استغلالها؛ وبصريح العبارة يَفسُد المنتوج قبل أن يُستهلك لأن «سرعته» تتجاوز كل المنظومة الربحية للصناعة المتقادمة.

عندما فُكّت عزلة الثروات ورؤوس الأموال وأنماط الإنتاج فإنّ ذلك لم يكن لأجل جعلها مادة للتبادل التجاري الحر، ولا حتى لأجل إشاعتها بين أفراد المجتمع، بل لأجل أن تتحقق **قوتها التنقلية الخاصة** ومنتهى نجاعتها الديناميكية. وهذه هي الثروة «العقيمة» التي تتبختر في خضم علم السرعة.

وعلى الرغم من أنّ الإنسان الغربي قليل العدد فهو متفوق ومهيمن لأنه **الأسرع**؛ لقد **نجا** من حروب الإبادة الاستعمارية والعرقية لأنه فعلاً **الحي ـ الناجي**. إن لعبارة Vif (حي) في اللغة الفرنسية ثلاث دلالات على الأقل: فهي تُستعمل بمعنى السرعة promptitude، وبمعنى **السرعة** المقترنة **بالشدة** (بكلّ قوّة أو بكل حدة de vive force ـ arête vive . . . إلخ)، وبمعنى **الحياة** نفسها (فعبارة être vif تعني أن نكون على قيد الحياة).

وهكذا ستفقد الإنسانية تنوعها لحظة تُحقق تطوراً من النوع الذي تنتجه السرعة، إذ تتجه إلى أن تنشطر شطرين لا ثالث لهما: **الشعوب المتفائلة** (وهي المسموح لها بأن تأمل في المستقبل، وهي أيضاً التي تفتح لها «مُدّخراتها» من السرعة باب الممكن، أي إنجاز المشاريع واتخاذ القرار،

---

(١٤) سلام الحرب، سلام الاستنزاف (بريان Briand): «لا أحد اليوم ما زال يرغب في أن يرى مجدداً إحياء النظام العالمي لسنة ١٩٣٩، ففي ذلك التاريخ لم يوجد سوى بقايا نظام»: من **أعمال عصبة الأمم S.D.N** حول الانتقال من اقتصاد الحرب إلى اقتصاد السلم، أيار/ مايو ١٩٤٣.

باختصار تفتح لها باب اللانهاية. **فالسرعة هي أمل الغرب**)، **والشعوب المُحبطة**، وهي شعوب مشلولة الحركة بفعل تخلف معداتها التقنية ومحكوم عليها بأن تعيش في عالم محدود.

وهكذا فإن المنطق الذي يربط السلطة بالمعرفة قد استُبعد ليحل محله منطق آخر يربط السلطة بالحركة، أي منطق دراسة الدوافع [النفسية] والدفق [الحركي]. ولقد أضحى هذا الأمر بديهياً إلى درجة أن تم التخلي منذ خمس سنوات عن تدريس مادة الجغرافيا في المدرسة الحربية في فرنسا، وإلى درجة أن الشرطة الفرنسية تختبر حالياً «حاسوب قيس الجريمة» criminostat[١٥].

لقد أُرغمت إمبراطوريات شاسعة، شأن الصين، على أن تخضع إلى هذا النظام الجديد المجرد وعديم المحتوى منذ القرن التاسع عشر، على الرغم من محاولاتها «التحديثية» بعد أن عجزت عن مواجهة هذا الاختراق. واليوم يشهد الجيشان الصيني والفييتنامي عملية إصلاح صعبة، إذ تم تقسيمهما إلى جيشين: جيش فني محترف (سريع)، وجيش شعبي يُرمز إليه على أنه» قوة حيوانية» (بطيء) ومن ثمة «قوة استمرار» في حال كارثة نووية. ويمكن أن نذكّر في هذا المجال أنه في سنة ١٩٣٢ لعب سكان منطقة شنغهاي Shangaï الصينية هذا الدور، فقد كانوا من الأوائل في العالم الذين استعملهم اليابانيون كمخبر تجارب للغارات الجوية الكثيفة الهادفة إلى تدمير المراكز الحضرية تدميراً شاملاً. ولقد انكبت قيادة الأركان الألمانية في الحين وباهتمام كبير على دراسة الآثار الاجتماعية لهذه الغارات حتى تعدّ «خططها الأمنية» الخاصة المتمثلة في عمليات بيضاء: إنذار وتدريبات وخطط لإيواء السكان... إلخ، فمن شأن هذه الإجراءات، كما يرى القادة السياسيون الألمان، أن تساهم بقوة في التأطير النفسي للمواطنين. ومن المفارقات أنّ الصينيين هم الذين يستلهمون اليوم هذه التعبئة القومية الاشتراكية...

---

(١٥) لقد تم تجاوز موضوع اعتراف المتهم من عدمه، فكلّ المعلومات التي يتحصل عليها جهاز أمن الدولة والشرطة تُخزّن في الحاسوب المركزي لغرفة عمليات الدرك الوطني في روسني سو بوا (Rosny-Sous-Bois)، حاسوب قيس الجريمة (معاينة المعطيات الإحصائية).

في ظل حرب الوقت، أضحى المصير الاجتماعي للسكان مرتبطاً بساعة انطلاق المعركة باعتبارها أقصى أمانيهم الثورية.

لقد كانت عملية انتخاب عناصر عسكرية تقنية محضة من رحم الشعب المسلح بالنسبة إلى القادة الصينيين قراراً سياسياً سيادياً، إذ لم نشهد في أي مكان آخر من العالم متانة هذا الترابط البيولوجي بين الجيش والشعب الذي وصل إلى حد استعمال نفس الأدوات. ولكن هذا التلاحم الثوري بين الجيش والشعب قد تم تدميره بكل فظاظة وذلك بالترويج لواقع آخر، إذ عُوّض صراع الطبقات **بصراع الأسلاك التقنية للجيش حسب فعاليتها الديناميكية**: صراع جيش الطيران والبحرية، وصراع جيش البر والبوليس السياسي... إلخ؛ وهي وضعية تم استنساخها بطريقة كاريكاتورية في أمريكا اللاتينية منذ زمن بعيد.

الفصل الرابع

الحرب العملية

مرحى! لقد انفصلتُ عن الأرض النجسة

مارينتي ١٩٠٥

كانت قيادات أركان الجيوش الأوروبية خلال الحرب العالمية الأولى أسيرة نظريتَي كلاوزفيتش ونابليون في الحرب، فقد كان شغلها الشاغل إثبات مقدرتها في الحرب البرية على سرعة اختراق [صفوف العدو] وعلى أن تكون معاركها فاصلة وخاطفة. لقد كان الغرض من اختيار هذه الطريقة في المواجهة يتمثل في التغطية على المشاكل التي تطرحها التهيئة العسكرية للمجال، فالجهد اللوجيستي المطلوب كان بلا أهمية، وبالخصوص لم يكن منتظماً بما فيه الكفاية؛ لذلك كانت تلك الحرب بمعنًى ما بلا ميدان.

كلّ ذلك يبقينا ضمن ذهنية مؤتمر فيينا[1]، فالسلطات المَلَكية الأوروبية التي كانت تستشعر نهايتها وجدت في المؤتمر حبل نجاتها الأخير. وقد سعت هذه القوى دون جدوى، كما فعل كلاوزفيتش في [كتابه] «**عن الحرب**» *Vom Kriege*، إلى الفصل بين الحرب المطلقة والحرب الشاملة. الحرب الشاملة هي حرب ذات نطاق واسع ودائم، تكون أولاً في البحر لأن سطح البحر أملس لا يشكل بطبيعته عائقاً ثابتاً أمام حركة المَرْكبات فتجوب كل بقاع العالم. ولكن هذا الضرب من

(١) ضم المؤتمر المنعقد بمدينة فيينا من ١٨ أيلول/ سبتمبر ١٨١٤ إلى ٩ حزيران/ يونيو ١٨١٥ الدول المنتصرة على نابليون الأول ودولاً أوروبية أخرى لمناقشة وثيقة للسلام ولترسيم الحدود في ما بينها (المترجم).

الحروب الشمولية يمكن إطلاقه على اليابسة بشرط إقامة بنية تحتية تحتمله. وكان فوبان قد لاحظ/أنه ينبغي أن تكون للحرب قابلية الانتشار في كل المناطق المأهولة في العالم.

لقد انتهى [سلك] سلاح الهندسة الملكي الإنكليزي إلى اختصار شعاره الشهير: «**[موجودون] في كل مكان يقودنا إليه الواجب والنصر**» Ubique quo fas et gloria ducunt في عبارة ذات مغزى كبير هي: «**في كل مكان**» UBIQUE. هذا يعني أن هذا السلك تكفل بإعادة تهيئة العالم، وأن «التواصل» مع الأرض، ذلك الحادور[٢] الوحيد، يتم باعتبارها البنية التحتية لميدان المعركة القادمة[٣]. هذا هو العالم الذي «تم تحويله من الموقع الورشة إلى الموقع المخطط، إلى فضاء إمبراطوري»، كما بيّن ذلك لوكاتش Lukàcs بخصوص الاشتراكية الألمانية. عندما استقبل رينان Renan ليسبس Lesseps في الأكاديمية عاب عليه كونه صنع الحرب من حيث أراد السلام، لأنه جعل من قناة السويس بوسفوراً جديداً. ولم يمرّ سوى قرن من الزمان حتى صدقت نبوءة رينان، فحَفْر مضيق السويس كان حلم طلبة المدرسة متعددة التكنولوجيات، وهو الحلم الذي قضى من أجله الكثير من المهندسين السان سيمونيين saint-simoniens. لقد اعتبر الخبراء العسكريون أن إنجاز القناة كان [آنذاك] مؤشراً جديداً على فاعلية مجمل وسائل التواصل الدولية، ومرحلة متقدمة وهامة ضمن مسيرة تطور منطق الاستراتيجيا الدولية. فبـ «إعادة رسم خريطة العالم» انفتح الطريق نحو «شحن الحرب» باتجاه المشرق، كما انفتح في الآن نفسه أمام الشركات الاحتكارية الجديدة ذات التكامل الرأسي[٤]. لقد أضحى التنظيم الاقتصادي والاجتماعي بداية من ثورة القرن التاسع عشر الجيواستراتيجية رهين ترتيب فضاء العمل باعتباره مكان عبور، كما أضحت ظاهرة الحرب تتغذى ذاتياً عبر خلق موارد صراعاتها الخاصة وتنميتها. لقد كان الناس يموتون دوماً لأجل «سواد عيون» قناتَيْ السويس وبنما.

في سنة ١٩١٤ لم تكن فرنسا جاهزة كما ينبغي لكي تطوّر النقل

---

(٢) أي السطح المائل (المترجم).

(٣) هذا هو الرد التقني لسلاح الهندسة على هيمنة الهندسة البحرية والرأسمالية الليبرالية.

(٤) هي الشركات التي تحتكر كل مراحل الإنتاج من المادة الخام إلى المُنتَج النهائي (المترجم).

العسكري حتى يشمل كل البلاد، وذلك بسبب تريّفها وعزلتها، فالقتال الذي يعتمد معدات ثقيلة متنقلة انتهى بنهاية صلاحية هذه المعدات. لقد كفت الحرب عن أن تكون نزهة رائقة وجولة سياحية، فالأعداء قبروا بعضهم بعضاً[٥] وخاضوا معارك غير مسبوقة دامت، كما في فردان Verdun، قرابة السنة[٦] ـ من شباط/ فبراير ١٩١٦ إلى كانون الأول/ ديسمبر من السنة نفسها ـ **إن السبب في كل ذلك أن الجيوش لم تعد قادرة على الكرّ والفرّ.**

لقد كان رد فعل الفرنسيين معبّراً، فقد سعوا أولاً إلى الحفاظ على الحواجز السياسية الفاصلة، ومن ثمّة أعادوا رسم مخطط المدينة الكفيل بحفظ النظام الداخلي. إذ ذاك قسّموا البلد نصفين، ففصلوا فرنسا «المدنية» ـ التي شكلت بحكومتها الديمقراطية وأنشطتها الاقتصادية والصناعية، وبنظامها الأمومي الجديد المرتكز على نساء قوادات (وهو النظام الذي سيُلقي لاحقاً بظلالٍ من الشك على النضالات النسوية)، القاعدة الخلفية ـ عن فرنسا «العسكرية» ومجالها الحوادر العسكرية المحصّنة. كتب فارّي Ferry بشأن هذا المجال العسكري: «لم يعد القائد العام قائداً حربياً، بل أضحى **وزير مجال جغرافي**»[٧]؛ حيث تأمل السلطة المدنية بلورة المعركة والزج ببروليتارياها العسكرية في حرب مطلقة «لا حدود لعنفها»، ولكن بشرط أن لا تمتد أو تُنقل إلى الداخل [المدني]. إنها حرب الاستنزاف. أمّا على مستوى قيادة الأركان فإنّ إنهاك الفرق العسكرية إنهاكاً شديداً والاستعمال المفرط للمعدات الحربية هما الوسيلة الحديثة لإبادة العدو، لذلك كانا يُعدان في بداية الحرب مأثرةً جيّدة في سجل قائد الجيش، إذ

---

(٥) المقصود بذلك أن الحرب العالمية الأولى كانت بالأساس حرب خنادق، فكل طرف كان يتخندق في مواجهة الطرف الثاني (المترجم).

(٦) استعمل المؤلف عبارة une année بمعنى سنة، ولكن التاريخ المذكور غير مطابق (أقل من سنة بقليل) ففضّلنا عبارة «قرابة السنة» (المترجم).

(٧) Abel Ferry, *La Guerre vue d'en bas et d'en haut: Lettres, notes, discours et rapports* (Paris: Grasset ed., 1920).

آبل فاري هو نائب بالبرلمان عن مقاطعة فوج (Vosges)، مات في سبيل فرنسا يوم ١٥ أيلول/ سبتمبر ١٩١٨ موصياً زوجته بأن تنشر كتابه (المذكور آنفاً)، «بمجرد التسريح النهائي للجيش الفرنسي دون اعتبار مطالب الأحزاب المعنية...»، «درس مضاعف تعلمناه من ساحة المعركة ومن مجلس الوزراء مفاده أنه من الضروري أن يراقب البرلمان الحرب منذ الأشهر الأولى لاندلاعها». الكثير من الفقرات التي تم تحليلها في هذا الفصل مأخوذة من هذا المؤلف الرئيس.

اعتبرا دليلاً على حسن بلائه وتعبيراً عن شخصيته، بل حتى عن عراقة فنه العسكري؛ وبلغة المدارس الحربية هما تعبير عن «انعدام الرحمة والشفقة» و«الاستعمال المفرط للقوة»، وهما في نظر الجنرال البروسي كلاوزفيتش [خصلتان] تعصمان القائد العسكري من التراجع مهما كان حجم الدماء المسالة. ولكن مرة أخرى تتجاوزه الأحداث سريعاً، لقد كان يظن، أسوة بكثير من معاصريه، أن الوضع الاجتماعي للدول المتحضرة من شأنه أن يجعل حربها أقل فظاعة وتدميراً من حروب الأمم الأخرى: فقد كشف فارّي بعد أشهر قليلة فقط من بداية الحرب عن الصعوبة الكبيرة التي يجدها موظفو اللوجستيك لتقدير خسائر الحرب الميكانيكية الجديدة في أسرع وقت ممكن، وذلك لأنّ التقييم العقلاني لتراجع قوة الجيوش أضحى من مشمولاتهم حتى يتم على الفور سدّ النقص العددي للجيشين المتقابلَيْن في ميدان المعركة. ولقد كانت الخسائر غير مسبوقة على الإطلاق، فقد كانت حرب الاستنزاف حرباً شرسة، لأنها كانت أول حرب إفناء، إفناء للرجال والعتاد والمدن والمواقع على عين المكان؛ وفي الآن نفسه كانت أول حرب استهلاك، استهلاك مفرط للمؤُنة والعتاد واليد العاملة. وشيئاً فشيئاً تمت الاستعاضة عن التخطيط الذكي لكيفية إدارة المعارك وعن [المهارة في إصدار] أوامر الهجوم باعتبارات جديدة، تتمثل في تحديد عدد القذائف المستهلكة في المتر ـ مساحة من الخندق وإعداد برنامج للإنتاج وجرد المخزونات وتقدير حجمها؛ فعلى سبيل المثال استعمل الفرنسيون أثناء هجوم حصل سنة ١٩١٧، ٦,٩٤٧,٠٠٠ قذيفة من عيار ٧٥ مم، أي ما نسبته ٢٨٪ من المخزون المتوفر.. وإضافة إلى ذلك هناك ما يسمونه بـ «الاستهلاك اليومي لسلاح المدفعية». وهكذا ستتوارى نظريات قيادة الأركان الحربية ليتم الاقتصار على ما سيسمّى فيما بعد «الحرب العملية». ومن ثمة ستكون الحرب في المتناول، أي **سهلة المراس**، وستتجنب التورط فيما لا تقدر عليه. [ومن هذا المنطلق] فصلت [الحكومة الفرنسية سنة ١٩٢٠] وزارة الحرب عن وزارة التسليح وعهدت بها إلى السيد لوشور Louchour، ذائع الصيت، فكان صورة من تكنوقراطيي الحرب الشاملة، من أمثال آل بوش les Bush وآل سبير les Speer[٨]. لقد دخلت حرب الاستنزاف

(٨) هما عائلتان (أمريكية وألمانية) اشتغلتا في ميدان صناعة السلاح والاتجار به. ويشير المؤلف إلى أن الوزير لوشور كان على خطاهما، إذ نسج علاقات مع شركات صناعة السلاح (المترجم).

مرحلة جديدة هي مرحلة حرب الوقت، فلقد ظنت البورجوازية أنها قد حاصرت العنف المطلق فأبعدته إلى المناطق العسكرية، ولكن الحرب لم تجد لها المساحات الكافية فاتسعت، وكان اتساعها في الزمان الإنساني. ومثلما سيقت الجموع للتجنيد في السنة الثانية[٩] ألقي بالجموع المائجة سنة ١٩١٤ في أتون الحرب. ولكن الحرب اختُزلت في آخر المطاف إلى سلسلة من الأعمال الفردية، أي إلى حرب ضباط الصف، إلى ضرب من التسابق نحو الموت، يراوح مكانه ويتكرر من يوم إلى آخر ومن شهر إلى آخر، أو إلى «عطلة مطوّلة» قضاها الجنود متخندقين ينتظرون موتهم وقد سمّرتهم إلى الأرض شدّة القَنْبَلة. لقد عوّضت المبيتات البروليتارية في «المناطق العسكرية» المآوي القذرة في محيط «المناطق الحضرية». وهكذا تحول الخلاء إلى ضاحية وإلى فضاء قاتل للحركة يمنعها من أن تكتمل، ففقدان الحركة يعني بالنسبة إلى القلعة الوطنية، على المدى القصير، **خسران نعمة الصحة**، ومن ثمّ الموت. وعوضت ثورات الجنود وتمردهم ورفضهم لأوامر الهجوم شغب الجموع الهائجة في المدينة ومرابطتهم بها، قبل أن يصبح الأمر في خضم الهزيمة، أي بعبارة أوضح في خضم «الحرب الأهلية»، كما أنبأ بذلك أنجلز لاسال Lassalle تحوّلاً لـ «سيل الحماس البروليتاري الجارف» نحو الداخل. (تروتسكي Trotsky). سنة ١٩١٧ فقدت الحرب الوطنية في فرنسا حظوتها الثورية القديمة لدى جموع الشعب لسبب بسيط، هو كونها لم تعد قادرة على «السير قدماً»، إذ لم يعد بمقدورها بلوغ السرعة القصوى للهجوم؛ وباختصار لم تعد تنتصر في سباقها ضد الموت وضد الآلة.

دأبت الجموع العسكرية المهيبة على التنقل من الطريق إلى محطة القطارات رافعة عقيرتها بالإنشاد وهي تتهادى بين صفوف سكان المدينة الذين كانوا يهللون فرحاً بتوجهها نحو ساحة المعركة، ثم ما تلبث أن تصعد بسرعة إلى العربات المخصصة لنقل المواشي فتفترش القش كما لو كانت دواباً. ولكن هذا المشهد ما يلبث أن يختفي سريعاً عن الأنظار. وقد وضّح ذلك النقيب دي بوا de Poix بالقول: «. . . لقد شهدت مرات عديدة جنودنا

(٩) توافق السنة الثانية من تقويم الثورة الفرنسية سنتي ١٧٩٣ و١٧٩٤ (المترجم).

وهم يتوجهون إلى الحرب مفعمين حماساً متوثبين للهجوم، ثمّ يفاجئهم مدفع رشاش فيحصدهم حصداً، فتتناثر جثثهم في بضع دقائق في ساحة المعركة».

ومن ثمّة عنّت لهذا النقيب المقدام فكرة عبقرية لتجاوز معضلة اضطرار الفرق العسكرية إلى **ملازمة الخنادق**، فابتكر «سيارات مصفحة تسير في كلّ الميادين». وهكذا، أوصى في الخامس والعشرين من تشرين الثاني/نوفمبر سنة ١٩١٥ بتصنيع أعداد كبيرة من هذا الصنف الجديد من المعدات العسكرية. وفي الحادي والثلاثين من كانون الثاني/يناير سنة ١٩١٦ بدأ العمل بهدف تصنيع أربعمئة دبابة هجومية. وما أن ظهرت هذه الدبابات في ساحة المعركة حتى كان تأثيرها النفسي عظيماً، فما كان من قادة الجيش إلا أن طالبوا وزارة التسليح بتوفير الآلاف من هذه «الحصون الصغيرة المتحركة». لقد شكّل [اختراع] هذا «الكائن التقني» الجديد ذروة تفكير استراتيجي منبهر بتلك الفكرة التي استبدت بملك بروسيا فريديريك العظيم القائلة بأنّ «الانتصار يعني أن نمضي قدماً». وسرعان ما صدّقه فيري فكتب قبل أن تُحصد روحه في هجوم مدينة فوكسايون Vauxaillon: «لقد ارتفعت معنويات الفرنسيين بدرجة كبيرة، ففي الشهر الماضي استطال جنود مدينة بارناي Parnay إجازاتهم **فسارعوا بالعودة إلى جبهة القتال كما لو كانوا ذاهبين إلى نزهة. ولقد التقوا فعلاً على ضفاف نهر المُوز Meuse** ونهر الرين **Rhin**! حقاً لقد أضحت أحلامي بلا حدود..».

إنّ السرعة هي أمل الغرب فهي التي ترفع معنويات الجيوش، وإن وسائل النقل هي التي تجعل حروبها سهلة المراس. وبفضل السيارة المصفحة التي لا يعجزها أيّ ميدان إذ تزيل كل الحواجز، امّحت العقبات، وصدُق الحديث عن **انتفاء [مفهوم] الميدان**. كيف لا وهي التي تصعد التلاع، وتتخطى الأجمات، وتضرب في الأوحال، وتقتلع ما يعترضها من شجيرات وأعشاب، وتدمر واجهات المباني، وتقتحم البوابات. لقد قطعت هذه السيارة مع مفهوم المسافة الخطية القديم الذي ارتبط بالطريق وبالسكة الحديدية واستحدثت بدلاً منه هندسة رفدت بها السرعة والعنف. إنها لم تكتفِ بكونها ذاتية الحركة، ولكنها تجاوزت ذلك إلى كونها مقذوفة وقاذفة

في الآن نفسه، وهي في طريقها إلى أن تصبح كذلك جهاز إرسال لاسلكي. إنها ترسل قذائفها وفي الوقت نفسه تقتحم ميدان العدو؛ هي بمثابة موت يتحدّى موته بما أنها واجهت المدفع الرشاش الألماني الرهيب وانتصرت عليه. لقد توقّع النقيب دي بوا ميدان معركة تشغله كتلة هذه الحصون الصغيرة المتحركة. وهكذا فقد البروليتاري العسكري صلته بالطريق بعد أن ودّع الشارع، فكل الميادين والمسارات هي وجهات محتملة لصولاته، وأصبح ميدان معركته منبسطاً مثل سطح البحر بلا حواجز تمرح فيه «سفن البرّ»، تلك المَركُوبات السريعة.

وبفعل انعدام المساحات امتدت حرب الاستنزاف في الزمن، ومن ثمّة أصبحت النجاة من الموت رهينة الديمومة. إنّ الهجوم الذي لا ينحصر في ميدان بعينه أو لنقل الهجوم الذي لا تعجزه عقبات الميدان يوسّع الحرب حتى تضحى بلا ميدان، فكل ميدان هو ميدانها. وهكذا وجدنا أنفسنا فجأة إزاء حق جديد، هو «الحق في الأرض»؛ إنه حق شمولي شأن الحق في البحر، وهو يفرض على الجماهير فينومولوجيا جديدة للمصير. إن الاندفاع الجنوني لدبابات الاقتحام هو امتداد لسباق سيارات الأجرة المحموم التي كانت ما أن تبرح طرقات باريس المعبّدة حتى تنطلق بسرعة فائقة باتجاه نهر المارن Marne باعتباره نقطة بداية المعركة الرومنسية ونهاية آخر جزء من الحرب التقليدية» (جان دي بيارفو Jean de Pierrefeu). إن سرعة التنقل العسكري لم تعد مجرّد «استعارة للتعبير عن سيلان الزمن الوجودي الحثيث»، بل إنّ عدّاد السرعة في آلة الهجوم هو بالنسبة إلى ركابها «محدّد كمية وجودهم»، أي مقياس بقائهم على قيد الحياة.

إنّه من المهم أن نُفصح عن موقف قيادات الأركان الإنكليزية في تلك اللحظة الفاصلة في مسار تطور علم السرعة، فمنذ الهجمات البرية الأولى نجا السكان الإنكليز بأنفسهم ككل مرة خوفاً من أن يُحشروا في معركة لا قِبل لهم بها. «إنه شعب يفضل الحرب الآلية ـ يقصدون بذلك حربَ الآلات ـ على حرب الرجال»، كما يقول المثل الشعبي. [لقد كان يوجد تحت تصرّف] قيادات الأركان الإنكليزية ٥٥٠٠٠٠٠ ألف مقاتل على سطح البحر،

وثلاثة ملايين مجند في دور الصناعة وفي المعامل. فإذا ما ساءت نياتهم حقاً وكوّنوا [مع الفرنسيين] غرفة قيادة موحدة فسيكون من الطبيعي، وعلى عكس ما هو متوقع، أن يرسلوا إلى ساحة المعركة البرية شمال منطقة سوم Somme[١٠] «السفن البرية»، تلك الآلات الهجومية التي لا يوقفها شيء، والتي لم ينفكوا عن الاهتمام بها. ولقد شوهدت مرة أخرى في الصحراء سنة ١٩٤٢.

(١٠) يشير المؤلف إلى المعركة الشهيرة التي خاضها الجيشان الفرنسي والإنكليزي معاً ضد الألمان في منطقة «السّوم» شمال فرنسا سنة ١٩١٦، وقد شهدت هذه المعركة استعمال الدبابات لأول مرة (المترجم).

القسم الثالث

مجتمع السرعة

الفصل الخامس

الأجساد العاجزة

ولكن الخطر كل الخطر.. في الرفاهية

الماريشال غورينج

في الحرب العالمية الأولى أصبح هرمان غورينج Hermann Goering طيّاراً لأنه أصيب بمرض الرَّثيَة بسبب المسافات الطويلة التي كان يُجبر على قطعها عندما كان جندياً في جيش المشاة.

ولقد تمّ الانتباه في خضمّ مختلف الصراعات [التي عرفتها أوروبا]، وخاصة بداية من القرن السابع عشر، إلى تفاقم المشاكل الناتجة عن عدم الأهلية البدنية لبعض العسكريين، فازدهر تبعاً لذلك فنّ جديد هو فنّ جراحة العظام، إذ تمّ التفطن إلى إمكانية اللجوء إلى الجراحة الترقيعية لتعويض أعضاء الجسد الآدمي الناجي من الموت بآلات. وإذا كانت فرنسا قد أعادت تأهيل المعوقين وأعفتهم من أداء واجبهم العسكري فإنّ الأمر لم يكن كذلك في ألمانيا، حيث لا نكاد نجد سنة ١٩١٤ ضمن الجيش الألماني من هو غير مؤهل للخدمة، فلقد عزم قادة الجيش على **تشغيل ذوي الإعاقات الجسدية**، إذ تم توظيفهم حسب نوعية إعاقتهم، فاستُعمل الصمّ البكم في سلاح المدفعية الثقيلة، والحُدبُ في قيادة المركبات... إلخ. وإنه لمن المفارقات أنّ دكتاتورية الحركة هذه التي مارستها السلطة العسكرية على الجمهور قد أدت إلى الرفع من شأن الأجساد المعطوبة، ذلك أنّ استعمال المَرْكبات التقنية لم يختلف كثيراً عن استعمال الآلات المساعدة عن طريق الجراحة الترقيعية إلى درجة أن القيادة العسكرية الفرنسية انتظرت بعض الوقت لتعهد بدباباتها إلى طاقم «ربعه غير مصاب بالملاريا، وما تبقى منه مكوّن من شباب تمّ تأهيلهم ولم يشهدوا حرباً قطّ» (تقرير رينودال Renaudel).

في سنة ١٩٢١ استعار مارينتي الصورة الآتية للحديث عن السيارة المصفحة: «الإنسان الأرقى هو إنسان مضاف الوجود إنه **نوع من الغيلان**، ديدنه أن يكون سائق [مركبات]، أي صانع قرار؛ فهو جسد حيواني حلّ في القوة الخارقة للهيكل الميكانيكي [للمَرْكَبة]، وبالنتيجة فهو قادر، بفضل طاقاته الديناميكية، على طيّ الزمن والفضاء». ومن هنا، وعلى الرغم من تعدد المحاولات العبثية لتصنيف أعمال مارينتي وفق ما لا يحصى من المقاييس الفنية، فإنّ الحقيقة أن [الحركة] «المستقبلية» Futurisme لا يمكن أن تصدر إلا عن فنّ وحيد هو فن الحرب، التي جوهرها السرعة، فقد عرضت لنا الحركة المستقبلية الصورة الأكثر اكتمالاً التي بلغها تطوّر السرعة في عصرها، إنها بمثابة قياس فوري للحظةِ الحياة في العشرينيات.

ولكن الأمر يختلف في الواقع، فالجسد الآدمي القابع داخل «القبة الفولاذية» ليس هو جسد المحارب الأنيق الذي لا شأن له يُذكر بالحرب، بل هو جسد البروليتاري المحارب الذي يعاني عجزاً مزدوجاً، فهو بطبيعته مسلوب الإرادة في حاجة [ماسة] إلى مركوب آلي حتى يكون قادراً على إنجاز مهمته/صولته التاريخية. ولكنّ هذه القوة الحركية الهائلة [التي يتمتع بها] الإنسان المهووس بالحركة فقدت قيمتها فجأة، فقد بيّنت حرب الاستنزاف أنّ تلك الحشود الهائجة تعامل بازدراء عندما تفقد قدرتها على الحركة، كما بينت طبيعة المعاملة التي خُصّت بها. لقد كشفت الحرب العملية عجز هذه الحشود ذات السلطة المرتكزة على السرعة عن أن تكون قوة محركة ومنتجة للسرعة في أوروبا. إنّ الحرب العالمية قد كرّست الإفلاس الفكري للقيادات العسكرية، إذ كانت الكلمة الأخيرة فيها للآلات الميكانيكية، لذلك عبرت عدة جهات عن رغبتها الجامحة في انتداب [الكثير من] اليد العاملة. وهكذا بدت طرق تكوّن البروليتاريا العسكرية مرتبطة أشدّ الارتباط وأكثر من أي وقت مضى بطرق تكوّن البروليتاريا الصناعية، فقد أصبح قادة الجيش هم أنفسهم ورغماً عنهم «مهندسي تهيئة المجال».

كتب فرّي: «**منذ الآن يعلم الجميع بوجود بنية لساحة المعركة**. وإن التهيئة التقنية لمعظم هذه الساحة ضرورية، فلو تطلب الأمر مئتي ألف رجل فالحكومة ستناقشه مع حلفائها». وكتب أحد المبعوثين الرسميين في شهر تشرين الأول/أكتوبر من سنة ١٩١٦: «إن دولاً مثل إيطاليا والبرتغال تتوفر على احتياطي بشري هائل.. لذا فلا أحد منها سيشعر بالنقص الديمغرافي

الذي ستسببه الحرب». أما الحكومات فقد كانت تتعجل بيع وتبادل ما لديها من قطعان العمال، مثنية على «قدرتهم على تحمل برودة الطقس وعلى صبرهم ومثابرتهم في العمل». لقد جاءت بهم من مستعمراتها بأعداد كبيرة، منهم الكريوليون وزنوج السنغال وعمال مغاربة وخصوصاً عمال الحفر والتنظيف الناشطين الذين جُلبوا من الهند الصينية بعشرات الآلاف، ومنهم الملغاشيون المجندون في الحرب. وإذا كانت الحرب في البحر، تلك التي أضحت دائمة وشاملة، قد شكّلت بداية أولى عمليات التعبئة الشعبية فإنّ خطة الحرب الشاملة على اليابسة قد تطلبت منذ ١٩١٤ مشروعاً اجتماعياً جديداً، وصنفاً غير مسبوق من البروليتاريا.

قسّمت الحربُ العملية الهجومَ [على العدوّ] إلى مرحلتين؛ تتمثل الأولى في تركيز البنية الأساسية لساحات المعارك المحتملة، وتشتمل هذه البنية على استحداث طرقات ومحطات وخطوط للسكك الحديدية وعلى توسعة الطرقات [الموجودة] ومجالات التغطية الهاتفية وعلى حفر خنادق الهجوم وإعداد خطوط إجلاء المصابين وتشييد الملاجئ.. إلخ. وهكذا تهيّئ هذه الجموع الكوسموبوليتية من العمال المشهد كلّه ليكون جاهزاً بصفة نهائية للحرب[١]. إنه جيش من العمال ينطق بكل اللغات.. لقد تبلبلت[٢] أعمالهم اللوجستية. إن ترسانة الحرب وطاقم موظفيها يلبسان كلاهما لبوس السلم، أو لنقل لبوس السياسة، ويستعيدان بذلك وظيفة إدارة مصلحة الطرقات. وبفعل ذلك تأسست مقدماتُ ما سيصبح لاحقاً قوة الردع، أي اختزال السلطة في اختيار أفضل المسارات واختزال الحياة في النجاة من الهلاك. إن الوضع الراهن هو استنزاف للأرض. في سنة ١٩٢٤ كتب المرابط[٣] تيلهار دي شاردان Teilhard de Chardin في كتابه **عالمي** *Mon univers*»: «ما زلنا نحتاج إلى مدافع أكثر فتكاً وبوارج حربية أكبر حجماً حتى نجسّم **عدواننا على الخلق**».

إن عقل سلطة السرعة لا يتسلط على عدو عسكري معيّن، بل هو انقضاض متواصل على العالم، ومن ثمّة على الطبيعة الإنسانية. وليس انقراض أصناف من الحيوانات والنباتات، والتخلّي عن الاقتصاد الطبيعي

---

(١) Pierre Nord, *Double crime sur la Ligne Maginot* (Paris: Fayard, 1967).

(٢) أي اختلفت وتنوعت كما اختلفت ألسنة أهل بابل (المترجم).

(٣) اخترنا عبارة مرابط لترجمة عبارة le moine-militaire، وتعني حرفياً الزاهد المحارب (المترجم).

سوى تمهيد بطيء لتدمير [العالم] بشكل أكثر وحشية. هاتان الجريمتان ليستا سوى جزء من سلوك اقتصادي أوسع عماده المقاطعة والحصار؛ وبلغة أخرى هو استراتيجية للتجويع. إنّ الحرب الاقتصادية التي تنخر حالياً الأرض ليست سوى **المرحلة البطيئة** للحرب المعلنة، أي لانقضاض سريع وحاسم وحتمي، فهذه الحرب، وبحكم أنها ليست معركة بين جيشين، هي التي تكرّس القوة العسكريةَ سلطةً طبقيةً. لقد ظلت طائفة الصيادين/النهابين في كلّ الأزمنة طائفة غير منتجة على الرغم من أنها المسؤولة عن إطعام أبناء الطائفة، بل قد طوّرت، شأنها شأن علم السلاح، طرقاً في التجويع هي ما نسميه اليوم «**السلاح الأخضر**» Food power. ومن ثمّة عندما خسرت جمهورية البندقية Venise، تلك الأمة البحرية وذلك الوطن الذي ليس فيه «موضع قدم»، قوّتها الاقتصادية وريادتها البحرية، بسبب اكتشاف القارة الأمريكية وبسبب السياسة الأوروبية الأطلسية الجديدة، قضت الحكمة أن تنكفئ إلى الداخل، أي إلى امتلاك الأراضي الزراعية واستثمارها، لأنها على يقين بأنّ خسارة **سلاحها البحري** سيؤدي بها مباشرة إلى أن تكون ضحية «**السلاح الأخضر**». ذلك هو القانون الذي يحكم طرفي الإنسانية المتصارعَيْن. وفي السياق نفسه فإنّ الولايات المتحدة الأمريكية، وبعد فشلها الأول في الهيمنة الواسعة على العالم في الثلاثينيات (إعلان السلام في العالم) ها هي تقود اليوم حرباً بلا هوادة ضد الزراعة الأوروبية (حملات ضدّ المزارعين، احتكار الصناعات الغذائية ـ حرب زيت الكولزا... إلخ). وبالفعل فإنّ «رخص الثروات» هو الذي يستجلب الهيمنة. وما السياسة النقدية الأمريكية (سياسة الدولار) سوى مؤشر على **التنامي الكثيف** للنفوذ العسكري الأمريكي الذي حدت من **تطوره الشمولي**، مؤقتاً، الخيبة في فييتنام، والوضع النووي الراهن. ومع ذلك ينبغي علينا أن لا نخفي إعجابنا بالسرعة الكبيرة التي تجاوزت بها الولايات المتحدة الآثار السلبية لعمليات القَنْبَلة الجيواستراتيجية على شمال فييتنام (تدمير ممنهج للغابات والحيوانات وللوسط الريفي...)، وذلك عندما تخلت أمام دهشة الجميع عن عتادها التكنولوجي لحظة انسحابها من ميادين المعركة دافعة بذلك أعداء الأمس إلى أن يصبحوا أفضل زبائنها؛ وهذا ما يستشف من تصريحات [الجنرال] جياب Giap الأخيرة[٤].

(٤) في شهر آب/أغسطس من سنة ١٩٧٧ أجاز الكونغرس الأمريكي منح البنك الدولي قروضاً لكل من الفييتنام وكمبوديا وأنغولا.

إنها تذكرنا قطعاً بأساليب عريقة في الاعتماد على علم السرعة، فعندما أطلق كلوبارت في القرن السابع عشر سياسة اقتصادية قوامها تشجيع استثمار «الثروة الوطنية» و«المنتوج القومي» فقد مهّد بذلك الطريق لمجهودات لوفوا Louvois الحربية، وذلك عبر الانكباب على صناعة مواد استهلاكية كثيرة، ومن ثمة خلق شهية كبيرة لدى جيرانه لاستهلاكها، كما قال سير وليام تمبل Sir William Temple.

وبالنسبة إلى لوفوا فقد استلهم، استعداداً للحرب، وبشكل صريح، التجربة الرومانية في توظيف البروليتاريا. وأما كلوبارت فقد استعاد [طريقة اشتغال] النظام الاقتصادي الأثيني التي تُوّجت بالقضاء على قوة الأكيدامونيين Lacédémonienne. وقد أكّد ذلك ليوتي Lyautey سنة ١٩٠١ عندما كتب: «فنّ الاختراق الاقتصادي هو أفضل بكثير من كلّ الفنون التي تدرّس في الأكاديميات العسكرية». هذا ما كان انتهى إليه التوسع اليوناني المعتمد على سرعة الحركة، إذ توقف بصورة شاملة بفعل الأوضاع العسكرية الراهنة، ففي الشرق تعلّم البرابرة كيف ينظمون صفوفهم العسكرية، أمّا المستعمرات التابعة فقد ظلت معاضدة للسياسة اليونانية. ولذلك تخلت أثينا عن أسلوب الاختراق الشمولي (سريع) لتتبنى اختراقاً كثيفاً (بطيئاً)، واستعاضت عن التوجه العسكري نحو الخارج بالتوجه نحو الاقتصاد الطبيعي المحلي قصد إلغائه (إصلاح زراعي ـ توسع عمراني ـ تشييد ورشات ومصانع... إلخ). لقد انتشرت، بفعل ذلك **العملة اليونانية الشهيرة** Les chouettes d'Athènes[٥] في كلّ الحوض المتوسطي، وغمرت اقتصاديات الحواضر الكبرى، وسببت تضخماً كبيراً في المعاملات، حتى صارت خطراً مسلطاً على توازن أسبرطة التي اختارت الحلّ المعاكس، أي الحفاظ على جهاز الدولة عبر إلغاء الحركة العسكرية/النقدية[٦]. كتب أرسطو مثنياً على نظام ليكورجوس أسبرطة Lycurgue: «ينبغي أن يكون الهدف الرئيسي لكل

---

(٥) تُسمى هذه العملة Les chouettes d'Athenes (البومة الصغيرة)، نظراً إلى أن قطعها النقدية تحمل في قفاها صورة بومة صغيرة (المترجم).

(٦) تجهزّت أسبرطة لأجل أن تستكمل عملها البطولي الشاق: «لا يمكن لهذا التكيّف إلا أن يُبين عن شيء آخر أكبر من مجرّد تطوّر تلقائي، ذلك أنّ الطريقة الممنهجة والصارمة التي قضت بأن يتجه الجميع صوب هدف وحيد تدفعنا إلى أن نرى فيها تدخل رأس مدبّرة وواعية، فوجود رجل أو رجلين عملا في الاتجاه نفسه وغيّرا المؤسسات البدائية فاستصفيا منها فكرة التأهيل البدني أو التربية (Agôgê) والنظام (Cosmos) هي فرضية قوية». انظر: M. P. Nilsson, «Die Grundlagen des spartanischen Lebens,» *Klio*, vol. 12 (1912).

نظام اجتماعي تنظيمَ المؤسسة العسكرية **على غرار بقية المؤسسات**». ولكن ما حصل في أسبرطة كان على العكس من ذلك؛ لقد انطوت الديمقراطية الهيلينية الناشئة على معظم قضايا الحضارة الغربية الكبرى عدا القضية الرئيسية، ألا وهي الحركة. ومن المفارقات أنه في الوقت الذي تمت فيه التضحية بكل شيء لأجل أن تحتكر الدولة الحربَ فإنّ إمكانية تحريك آلة الحرب هذه عن طريق اندلاع صراع حقيقي بدا للأكيدايمونيين أمراً مريعاً، فقد توجسوا من أن تُحطّم مخاطر المعركة غير المحسومة تلك الآلة الحربية الثمينة[٧].

لقد صُنّف الأسبرطيون بأنهم شعب بلا تاريخ، ولكن الحقيقة أنهم شعب يعادي كلّ أشكال التحوّل الدستوري، لذلك يرفض التاريخ باعتباره مرجعاً لحركة وجوده. حصل ذلك حين بادر بإدارة ظهره للبحر وما فيه من الجواري المنشآت[٨]، وبذلك انفصل عن المدن الهيلينية ليستقرّ في قلب اليونان نفسه ويستعمر الميسينيين Messéniens، وهم من بني جلدته. ثم عزّز المبادرة بأنه لم يستثمر على مدى قرنين من الزمن، انطلاقاً من تجربة ليكورجوس، نتائج قوته فتهرب من تحمل مسؤولية ما آلت إليه انتصاراته./ وسيكون انتصار هذا الشعب على أثينا هو الذي سيقضي فعلياً على تفوّق الدولة العسكرية الأسبرطية، «فالتاريخ الذي أصيبت فيه لاكيديمون Lacédémone بأولى أعراض مرضها الاجتماعي تزامن مع تاريخ قضائها على الإمبراطورية الأثينية واستيلائها على معادنها الثمينة» (**بلوطاخرس «سيرة أجيس»** «Plutarque «Vie d'Agis).

وهكذا فإنّ ما لم يتحقق بالسلاح تحقق بالحرب الاقتصادية، وبذلك حُلّت معضلة الوضع الراهن المتمثل في عدم التدخل العسكري، ليس فقط بالنسبة إلى العالم المتوسطي آنذاك، بل بالنسبة إلى العالم الغربي مستقبلاً.

---

(٧) في مفترق القرن الثامن ق. م دفعت أسبرطة ضريبة تشبثها بالتوجه الذي اختارته، فقد كانت قد ألزمت نفسها في القرن السادس عدم المشاركة في الحرب، إذ اكتفت بإظهار أسلحتها كما لو كانت تقيم استعراضاً عسكرياً، وذلك في الوقت الذي انطلق فيه الهيلينيون الآخرون في حركة هي الأهم في التاريخ الهيليني. انظر: Arnold J. Toynbee, *War and Civilization* (London: Oxford University Press, 1950).

(٨) العبارة قرآنية وردت في الآية ٢٤ من سورة الرحمن: ﴿وَلَهُ ٱلْجَوَارِ ٱلْمُنشَـَٔاتُ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَـٰمِ﴾. وقد اخترناها مقابلاً لعبارة les empires vehiculaires de la mer. وقد وردت العبارة كذلك في ديوان ابن هانئ الأندلسي في بيت يصف فيه سطوة أسطول المعز في البحر المتوسط:

أما والجواري المنشآت التي سرتْ ... لقد ظاهَرَتْها عدّةٌ وعديدُ

وقد ورد البيت في قصيدة يقول مطلعها:

ألا طرقتْنا والنجومُ ركودُ ... وفي الحي أيقاظٌ ونحن هجودُ (المترجم)

ونتيجة لانهيار آلة ليكورجوس الحربية بعد توقفها عن الحركة لم يبقَ في أواسط القرن الثالث (ق.م) سوى بضع مئات من الأسبرطيين الذين يملكون أسهماً في الدولة، أمّا بقية الشعب فقد أصبح، كما قال بلوطاخرس، شرذمة بائسة بلا أي وضع قانوني وحشداً اجتماعياً كانت الدولة قد دربته على أن يعيش لأجل أن يكون مقاتلاً في حرب لم ترَ النور مطلقاً؛ لذلك لم يعد لوجوده معنى. فعندما انكفأت دولة أسبرطة على نفسها تجترّ أحلام الماضي وتعيش على ما تبقّى من عادات سادية فإن كلّ الأسبرطيين غرقوا في اللامعيارية.

ما فتئ الغرب يردد حكمة بلوطاخرس: «أصل البلاء في الطاعة العمياء»[٩]: فمقولة «**التوقف عن الحركة يعني الموت**» بدت له **قانوناً عاماً يحكم العالم**، إذ ما فتئت سلطة السرعة تضعف سلطة الشعب الثورية ذات الأصل الليكوجرسي... الماوتسيتونغي؛ إذ يكفينا ما نسمعه اليوم في خطب قادة الصين الجدد من حديثٍ عن «السلع الاستهلاكية» كي ندرك أن الشيخ المفكر لم يفعل شيئاً سوى أنه أخّر لحظة تركيز نظام النمو الغربي الكثيف الخطير في الصين بطريقة عشوائية بأيدي الماركسية الأرثوذوكسية أو الليبرالية.. فالأمران سيان. وبالطريقة نفسها لم يستطع هتلر أن يعلن الحرب الخاطفة إلا عبر نظام الدكتور شاخت Schacht، كما لم يستطع الرئيس روزفلت Roosevelt إعلان الحرب الشاملة إلا عبر برنامج «الصفقة الجديدة» New Deal.

التوقف هو الموت. ذلك قانون كوني. والدولة/الحصن، سلطتها وقوانينها، كلّها كامنة في الأماكن الأكثر كثافة مرورية. لقد هاجم جورج هيبّار George Huppert في كتابه الجديد[١٠] الفكرةَ الشائعة القائلة بأنّ **المعنى الكوني والوضعي** للتاريخ قد يكون ظهر في القرن الثامن عشر ولم يتجسد في مؤلفات مهمة إلا بداية من القرن التاسع عشر. ويمثّل لرأيه بكتابات مجموعة علماء مختصين، **أغلبهم من رجال القانون**، كانوا قد اقترحوا «فكرة التاريخ المثالي»، والعبارة لأحدهم وهو لابوبيلينيار La Popilinière. ففي نفس الفترة [المذكورة] كانت الدول الأوروبية الجديدة تسعى فيما بينها إلى إحياء مفهوم الحرب المشروعة، أو بالأحرى الحرب القانونية، على الطريقة الرومانية

---

(٩) نقترح هذا المثل العربي مقابلاً للمثل المنسوب لبلوطاخرس:

«Obéissant à une loi qu'il ne connait même pas, mais qu'il pourrait réciter en rêve».

(١٠) Georges Huppert, *L'idée de l'histoire parfaite*, traduit de l'américain par Françoise et Paulette Braudel (Paris: Flammarion, 1973).

(تيتوس ليفيوس Tite-Live I,32, 5-15). إن مثالية الدولة التاريخية قد ظهرت في اللحظة نفسها التي برزت فيها الحرب نفسها من جديد في أشكال مثالية. فبفضل ظاهرة المَرْكزة تميزت الحرب تقنياً عن الحملة التأديبية البسيطة، وتخلصت من التسويات المحلية لتكون أقرب ما يكون إلى مفهومها الأصيل والدقيق.

وبالفعل فإنّ التاريخ يتطور وفق نسق تطوّر نُظم السلاح؛ ففي نهاية القرن الخامس عشر كان علم التاريخ لدى دي كيمون de Commynes لايزال مجرّد ذكرى رتيبة ونَمْذَجة، فالحوليات، مثلها مثل الحرب، كانت موسمية تعود كلّ صيف، والزمن الخطّي استُبعد تماماً كما استُبعدت القلعة القديمة حيث كان استمرار صمود مواد البناء قاهراً للزمن ـ العدو. لقد بدأ إنتاج المادة التاريخية يشتغل بنفس طريقة اشتغال آلات الحرب القديمة التي كانت تنجز مهمتها التدميرية وهي رابضة في أماكنها، ولم يتغيّر الأمر حتى بعد اختراع العرّادات والمنجنيقات (حوالى سنة ٤٥٠ أثناء حصار الموصة Motza). وإذا كان هيجل قد ضجر من قراءة مؤلف تيتوس ليفيوس باعتبار أنّ هذا الأخير يردد بلا كلل أخبار الحملات العسكرية ضد شعب الفولسيك Volsques مكتفياً بالقول: «في هذه السنة تم الانتصار على شعب الفولسيك»، وإذا كان قد تبرّم من «تمثّله التجريدي» للأحداث، فلأنّ مادة كتاباته التاريخية هي نفسها التي نجدها في أي بلاغ (فتلك الصحف الإخبارية الأولى مثلت في المجتمعات الناشئة ما ستمثله في القرن التاسع عشر تقارير البوليس السياسي التافهة والمملة لعلم اجتماع بدأ يزدهر في صفوف الجمهور). إنّ الأمر يتعلق بمؤلفات عملية أكثر مما كان يتصوره هيجل.

وإذا كان تيتوس ليفيوس لا يملّ من تكرار تعليقاته الشعرية[١١] فلأنّ

---

(١١) قبل أن يظهر التاريخ في صيغته الشعرية، وقبل ظهور الترانيم السحرية، كان هناك أسلوب الهواجس والاصطبار الذي نجده في ابتهالات تيتوس ليفوس الموجزة، التي كانت محل إجماع: «لسنا محاربين ولكن في لحظة مفاجئة نعتقد أننا قادرون على الحرب فنشعلها» (لايريس Leiris). ذلك هو الهدف من التأهيل النفسي لوحدات النخبة ومن إقامة التجمعات السياسية والمراسم الاحتفالية العسكرية. وعلى العكس من ذلك، فإن السلطة في أسبرطة كانت تنفّر مواطنيها من تعلّم الموسيقى، «على الرغم من أنّ هذا الفن له وشائج وجدانية كبيرة مع فنّ العسكرية كما لاحظ ذلك توينبي، والدليل أنّه عُدّ في العالم الغربي الحديث أفضل طريقة لإعداد العسكريين». إضافة إلى ذلك كان الأسبرطيون يُمنعون من السعي إلى المنافسة على الألقاب في ألعاب القوى أثناء مشاركاتهم في دورات الألعاب الرياضية الهيلينية. وفي المحصلة فقد اعترض الدستور على كلّ ما من شأنه أن يؤدي إلى تطوّر علم الحركة.

التكرار هو الوسيلة المعتادة لولوج مجالات أرحب، إنه بمثابة مشروع يتطوّر. إنّ مادة السرد لا يمكنها أن تكون فعّالة إلا بعد أن تُكرَّر مئة مرة، فبالتكرار نتجاوز المصادفات ونجعل من العقل، مسلّطاً على التواريخ، آلة حرب تنشر قوتها مضاعفةً. وبالمثل فإنّه من البديهي أن يتحول الخطاب التاريخي من **خطاب المفاضلات إلى خطاب وضعي**، أي إلى خطاب **خالٍ من المقارنة الكثيفة**، وذلك لحظة جعل سيلّي سلاح المدفعية والإدارة المدنية العسكرية على حدّ سواء جزءاً من نظام الدولة. إنّ ولوج التاريخ يصبح ولوجاً إلى الحركة. ويعدّ هذا الولوج النتيجة غير المباشرة من قبل [ذلك الرهط من] «جوابي الآفاق» ونُذُرِ الشؤم الذين كانوا يعيشون على حافة مصيرهم الأسود زاهدين في متاع الدنيا للارتقاء إلى سدّة الحكم (ج. جراك J. Gracq)، تلك الشعوب التي كانت تجوب حدود الإمبراطورية الرومانية هازئة بالحرب، ومع ذلك **لم نستطع فرض الحرب عليها بشكل جليّ**، كما قال تيتوس ليفيوس.

غزت هذه النخب المتسلحة بالسرعة، في بداية عصرنا الحالي، أوروبا الغربية قادمة من جرمانيا ومن ضفاف نهر الدانوب ومن أماكن أخرى. وعلى نحو مفاجئ لم تعد القوة هي التي تصنع القانون، بل يصنعه الغزو وسلطة الغزو. إنّ سلطة الإغارة التي تنشأ في مسارات/الهجرة السائبة، هجرة حشود الصيادين النهابين تنتهي إلى إمضاء اتفاقيات هدنة وتقسيم. وعندما انتهت سلطة السرعة هذه إلى أن تتوطن ظلماً أرض أوروبا فإنّها مع ذلك لم تغيّر من طبيعة هيئتها الأصلية؛ لذلك ظل نظام المجتمع الإقطاعي، وعلى الرغم من مظهره المتنوع، شبيهاً بانتظام فرقة زاحفة. «لقد كانت العلاقات بين مختلف السادة الإقطاعيين محددة بدقة على الرغم [ممّا بينهم من] مشاحنات ومساومات، فعندما تُوحّد حربٌ هامة أو حملةٌ صليبية هذه الجموع الشاهرة سلاحها على الدوام فإنّ كل فارس منها يعرف جيداً دوره ومكانه». إنّ توزعها التراتبي على الطريق هو بَعدُ من باب الأمر العسكري، وإنّ مجالها الترابي المُهيَّأ هو مسرح العمليات. أمّا الهندسة المعمارية لغرف القيادة فإنّها تلعب نفس الدور الذي لعبته الرباطات البحرية أو الأبراج الجزائرية الشهيرة. إنّ المهمة الإقطاعية هي مهمة شبه استعمارية بما أنها تميّز بين **سيادة** المحتل العسكري **على الأرض وملكية** الساكن الأصلي **العقارية** لها.. وهكذا **فإنّ سيادة دولة السرعة على الأرض هي في الآن نفسه سيادة على أبعادها.**

لم يحتفظ قانون المسح العقاري القديم بأشياء أخرى [غير التي بيّناها]

كما بيّن ذلك العقيد بارادار Barrader في كتابه «**الخندق الإفريقي**» Fossatum Africae»، فكتب: «إن عملية تجزئة الأراضي وتقسيمها بين الناس هي أساس تربية الجمهور وتمدينه»... «إنها علامة لا تُمحى لحق الدولة في تملّك الأرض، **فهي تفرّق [الأراضي] من أجل أن تسود**». هذا الانقسام الثنائي الأزلي هو نفس الانقسام بين طبيعة سلطة الحركة التي ينعم بها المحتل وعجز المالك العقاري النسبي على الحركة والعاملِ المنتج المتشبث بقطعة أرضه على التنقل، بل هو نفس الانقسام بين المقيم المشدود إلى الجغرافيا والظاعن المسنود بالهندسة. إنّ مسار الطريق الرومانية ليس في غالب الأحيان سوى خط متواصل مستوحى من المخطط العام لعملية التجزئة الترابية. إن الأمر على غاية من البساطة: تطوي الدولة العسكرية الأرض [طيّاً] فيقاس مقدار الضريبة العقارية بالمتر المطوي. بلغة أخرى: إنه يُقاس بعدد الأمتار التي يقدر الجيش ووحدات الفرسان، «تلك المجموعات المترفة»، على حمايتها.. لقد كانت المهمة شبه الاستعمارية على الدوام ابتزازاً، بحيث كان المستعمر يؤمّن الجموع المنتجة مقابل ضريبة يدفعونها، هي بمثابة أجر نظير الحماية التقنية لأرضهم. والمثال على ذلك الإدارة الكارولنجية [الإفرنجية] التي كانت تسعى في خدمة دولة السرعة غير الحريصة على تثوير نظامها الداخلي عبر التأسيس لحقوق عقارية وراثية أو حتى بتوسيع نطاق حكم الملك باستثناء المحاور الكبرى (إقليم الموز La Meuse على سبيل المثال)، حيث تكمن «بطبيعة الحال» مورفولوجيتها، ساعية بذلك إلى السيطرة على كل وسائل الإعلام والإيديولوجيا الدينية والعُملة والمعرفة والتجارة الخارجية ووسائل النقل والاستعلام... إلخ.

دعت الدفاتر القانونية الكارولنجية «سادة الأراضي» الذين استقروا في المساكن الرومانية القديمة التي حوّلوها تدريجياً إلى غرف قيادة، إلى الحد من تجديب الأرض وإلى الحفاظ على علاقات ودية مع صغار ومتوسطي المُلّاك المحليين، بل إلى منحهم حقاً متعيناً للدفاع المسلح عن ممتلكاتهم انطلاقاً من مواقعهم. إنّ سيطرة سكّان البرج (donjon عبارة مشتقة من Dominus، وهي كلمة من أصل لاتيني وتعني: السيّد) على مجمل الأراضي قد خفّت حدتها بسبب ضعف وسائلهم المادية، فهم لا يمثلون سوى أقلية عسكرية مشتتة وغريبة عن البلاد؛ ومن ثمّة كانوا لا يستطيعون مراقبة سوى جزء محدود من الفضاء ومن المجتمع، ومن ثَمَّ كانوا مجبرين على التعاون

مع المجتمع المحلي. ولأسباب أمنية فضّل النبلاء الإفرنج ريفاً رحيباً على المدينة الأصيلة المزدحمة، ريفاً آهلاً بالسكان وسائراً نحو الاكتظاظ بعمال مستقلين إلى حدٍّ ما تم تشغيلهم بدايةً في أعمال واسعة لتجديب الأرض، ثم لاحقاً في أعمال صيانة المحيط. ولكن الأعمق من كل ذلك هو أنّ **وضوح [الرؤية البصرية أمام المحتل بفعل عملية] تجديب الأرض** تعني تمسكه بحقه المميز في الاستيلاء على الأرض التي يروم الاستقرار فوقها، [أي تمسكه] بقدرته على الاختراق... إنّ ابتناء الأكمات والأبراج هو طريقة أخرى لأجل السيطرة على الأبعاد التي أضحت أفقاً وهندسة بصرية تدرك انطلاقاً من نقطة ثابتة وليس انطلاقاً، كما كان الأمر سابقاً، من مسلك الفرسان، حيث يتهيّأ المشهد للناظر في عمومه. وإنه لمن المهم أن ندرك في هذه اللحظة أنّ فلاحة الأرض لدى أولئك المؤسسين المغامرين قد اقتصرت على الاستغلال الفاحش للمقاطع التي تم تجديبها، ولم تشمل البراري القريبة جداً منهم[١٢] لقد فسرنا **ظاهرة العَطَل** هذه بضعف تقنيات الزراعة، ولكن ينبغي ألّا نربط الأمر بإكراهات مادية بديهية شأن الصيد والجني وجلب خشب البناء من الغابة المجاورة... إلخ، بل بحاجات استراتيجية مُلحّة فرضها **ضمور الزاد التقني للحامي العسكري** أكثر مما فرضها ضمور تقنيات البستاني أو قاطع الأشجار اللذين يدين لهما السيّد بالمساعدة والنجدة في حالة الخطر الداهم. وقد بيّنت خرائط طوبوغرافية حديثة أن حدود الأراضي التي تم تجديبها هي منتهى ما يدركه بصر الإنسان انطلاقاً من موقع مرتفع. ولذلك يسمّى قاطع الأشجار في اللغات الأنجلوسكسونية **المستكشف** pathfinder. إنّ تجديب الأرض وزراعة الحقول خُضَراً وتناقص كثافة الغابة، كل ذلك ليس في الحقيقة سوى استحداث لمنطقة عسكرية عازلة وجعلها مجالاً للرؤية البصرية أو إنشاء لنوع من تلك البراري التخومية التي تحدث عنها يوليوس قيصر Jules César فقال إنها تمثل مجد الإمبراطورية، إذ هي بمثابة استملاك إنسان السرعة المستمر للأرض بوساطة بصره. ومن ثمّة فإنّ سرعة هذا النظر الذي لا حواجز أمامه [من شأنها أن] **تقرّب البعيد**. [وفي هذا السياق] روى مصوّر مشهور في مذكراته أنّ أوّل كاميرا مظلمة عرفها

(١٢) Georges Dubey, *Guerriers et paysans VII-XIIè siècle premier essor de l'économie européenne* (Paris: Gallimard, 1973).

كانت غرفة نومه عندما كان طفلاً، وأنّ أول عدسة تصوير استعملها كانت فتحة مضيئة من أحد مصراعي شباك غرفته المغلق. بهذا المعنى فإنّ البرج الأصلي يلعب دور عملية التصوير المتتابعة التي اخترعها [المصوّر الشهير] ماري Marey إذ إنّ برج المراقبة العسكري يوفر للغازي المحتل رؤيةً مَكِينةً للوسط الاجتماعي و[يزوّده] بأولى المعلومات عن المحيط.

إنّ التميّز الاجتماعي يرتكز على وجهة النظر البصرية قبل أن يكون مرتبطاً بالثروة أو المولد؛ إنه يرتكز على المكانة النسبية التي نتبوؤها ومن ثمة نرتبها في فضاء يتحكم في مسارات الحركة كالنهر والبحر والطريق والجسر. ومن هنا نفهم ذلك التنوع العجيب لطرق التعاطي مع المجتمع في القرون الوسطى، وهو تنوع يعكس بكل بساطة وجهات النظر الجغرافية المسلطة على «مملكة» لم تظهر في النصوص ككتلة مجالية محددة إلى حدود القرن التاسع عشر. إنّ القانون الوراثي الذي تبناه شارل الأصلع Charles le Chauve رغماً عنه سنة ٨٧٧ (دفاتر كيارسي Kiersy) جعل من امتلاك الأماكن المرتفعة وسيلة هيمنةٍ اجتماعية دائمة. المثال الساطع على ذلك عائلة غريمالدي Grimaldi في موناكو، فقد كانت الجبال الصخرية المطلة على البحر في موناكو مكاناً مفضلاً منذ ما قبل التاريخ، وقد تداول على تملكها في العصور القديمة أقوام كثيرون قبل أن تستولي عليها عائلة غريمالدي بالحيلة. ومنذ القرن العاشر لم تنفك هذه العائلة عن حيازة الرفعة وجني المكاسب بفضل امتلاكها بالتقادم لهذه النقطة المهيمنة. وإذا ما عنّ لنا الحديث عن مجتمع طبقي فلا يسعنا إثبات ذلك إلا بتنزيل الطبقات منازلها كما وضحّنا ذلك سابقاً. وإذا كان صراع الطبقات قد تطوّرَ فلأنه صراع ميداني لأجل الاستيلاء على الأماكن المرتفعة، فحصار قلعة أو حصن ليس حدثاً عسكرياً ولا حتى سياسياً وحسب، بل هو كذلك حدث اجتماعي. فعندما ينتهك الإقطاعيون وثيقة الحماية ويغالون في مبلغ الضريبة العسكرية، وعندما يعلنون أنفسهم «سادة الأرض» فيملكون القلعة والحصن، تندلع إذ ذاك صراعات عنيفة. وبعبارة أخرى تندلع هذه الصراعات عندما يجمع الإقطاعيون بين نمطَي التملّك الفضائي للمجال (السيادة والتملك) فيجرّدون الأهالي من ممتلكاتهم ويعملون على تحويل نسلهم إلى **أقنان**، أي إلي يد عاملة محرومة من حقها في استعمال السلاح للدفاع عن نفسها.

الفصل السادس

عقلنة الأجساد الحية(*)

«لا تفكّروا»

فريديريك الثاني، مخاطباً جنوده

تقتضي المرحلة الشمولية للهجوم موتاً سريعاً في حين تسبب مرحلته الإعدادية والكثيفة موتاً بطيئاً. بيّن ذلك الفريق فون ماتش Von Metsch في كتابه: «**الحرب الجديدة**» *«Wie würde ein neuer Krieg aussehen»* الصادر في الثلاثينيات، إذ كتب: «مع هذه الحرب التي أضحت شاملة نحن إزاء جبهة شاملة، ولكن ضمن هذه الجبهة الشاملة الجديدة يحسن أن نسعى إلى فهم **الجبهة الروحية للأمة**، سواء عند طرح المسائل العملية استعداداً لإعادة التسلّح أو عند طرح المسائل العسكرية النظرية، فالمسألة الأخلاقية ينبغي أن تكون في صدارة اهتماماتنا».

لقد انبجست الحرب الشاملة من البحر، وهي تهدف بحسب الأميرال فريديريك روج Friedrich Ruge إلى «سلب العدو شرفه وشخصيته، وحتى روحه». [ولا أدل على ذلك من] أنّ آخر أشكال الحرب الإيكولوجية الحديثة التي قضت على الشعوب بالموت البطيء عبر تدمير مساكنها إنما هي تعيد بشكل عجيب «روح الإنسان» إلى معانيها البدائية و«الأتنولوجية»، إذ تعيدها إلى «المانا Mana»، أي تلك المادة الكامنة غير المنفصلة عن محيطها، المادة الجماعية غير الفردية ذات الشكل السائل متعدد الصور، والمتخثرة إلى حدٍّ ما في الأجسام الاجتماعية والحيوانية والترابية.

(*) نشير هنا إلى أن عبارة Arraisonnement استعملها المؤلف هنا في صورتها المجازية، ويعني بها منح عقل أو روح للأجساد مسلوبة الإرادة حتى يتم استعمالها وسائل نقل ومركوبات (المترجم).

عندما فرض تطوّر علم السرعة فكرة وجود نوعين من الأجسام بحسب وضعهما في الفضاء فإنه فرض في الآن نفسه فكرة نوعين من الأرواح: أرواح ضعيفة متقلبة وهشة لأنها سجينة أرضها، وأخرى مقتدرة لأنها حررت روح المانا وحررت إرادتها من كلّ قيد بفضل عدم تأرضنها[1] Déterritorialisation وبفضل نجاعة تدبيرها ونجاعة وجهة نظرها. هذا ما قرره كلاوزفيتش عندما أجاب عن سؤال «ما الحرب؟» بالقول: «الحرب عمل من أعمال القوة لإجبار العدوّ على تنفيذ مشيئتنا»[2] فالواضح من التعريف أنه لا يمكن للحرب أن تخلو من مشكل قوة الإرادة، على الرغم من أنّ كلاوزفيتش سرعان ما زيّف تعريفه وعوّمه فاستعجل التأكيد على عدم وجود «قوة معنوية عدا ما يعبّر عنه في الدولة والقانون»[3]. وبالفعل فإنّ تصوّر كلاوزفيتش للحرب يتجاوز أهدافها السياسية والفكرية وما تثيره من صراعات اجتماعية وقومية ليصبّ في مسألة التأسيس «**لحضور الأجساد مسلوبة الإرادة في العالم**»[4]. إن الأمر هنا لا يتعلق بفن الحرب، بل بـ «فنّ الأجساد الحيوانية» باعتباره انشطاراً أزلياً بين قدرة المحتل على الحركة وعجز قطعان العمال النسبي عن أن يتحرروا من حركاتهم.

ظهرت على مدى الزمان والمكان كثرة من الأجساد مسلوبة الإرادة ومن الهامات[5] والجثث المتحركة والمجاذيب... إلخ، [كيف لا وقد حصل]

---

(١) مصطلح دولوزي (نسبة إلى الفيلسوف الفرنسي جيل دولوز). لمزيد من التفاصيل، انظر: جيل دولوز وفيليكس غاتاري، **ما هي الفلسفة؟**، ترجمة مطاع صفدي، مشروع مطاع صفدي للينابيع؛ ٩ (بيروت: مركز الإنماء القومي؛ المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧) (مقدمة المترجم) (المترجم).

(٢) كارل فون كلاوزفيتش، **عن الحرب**، ترجمة سليم شاكر الإمامي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧)، ص١٠٣ (المترجم).

(٣) المصدر نفسه، ص١٠٣.

(٤) هذه الفكرة عبّر عنها كلاوزفيتش بالطريقة الآتية: «فإنّ استخدام أحد الطرفين للقوة دون ندم ودون أن يأبه لسفك الدماء الذي سينجم عن ذلك، في الوقت الذي يحجم فيه الطرف الآخر عن فعل ذلك، فستكون اليد العليا للأول الذي سينجح بإجبار الطرف الآخر على أن يحذو حذوه، وسيدفع كل طرف الآخر إلى النهاية القصوى». وتفسير ذلك أن الأقوى سيجبر الآخر على التحرك في المحيط الذي رسمه له، وأن تكون تحركاته لا من إبداعه وبمحض إرادته بل مجرد ردود فعل ومتابعة لأفعال الخصم، أي أن يصبح في وضع أشبه بالشلل التام ويتحول إلى مجرد تابع. انظر: المصدر نفسه، ص١٠٤. (المترجم).

(٥) نقترح عبارة هامات (مفردها هامة) لترجمة العبارة الفرنسية morts-vivants، استناداً إلى ما =

تدمير بطيء للمعارضين والأعداء والأسرى والعبيد، [وتمّ انتهاج] اقتصاد حرب حوّل الجموع البشرية إلى قطعان وطرائد للصيادين النهابين. وإذا ما سحبنا الأمر على المجتمعات الأوروبية التي ما تنفك تتسلح وتتطور نضيف إلى هذه الأجساد مسلوبة الإرادة الأطفالَ والنساء والملوّنين والبروليتاريا. هذا عين ما فعله النظام النازي في حربه الشاملة، وذلك عندما كوّن جبهة اجتماعية داخلية معادية للغرباء من يهود وغجر وسلاف slaves. ولم تكن معسكرات الاعتقال التي أقامها سوى مختبرات عولجت فيها تلك الحشود صناعياً، فدُفعت تلك القطعان البشرية إلى العمل في المناجم وفي الأعمال اللوجستية، وحُوّلت إلى فئران تجارب طبية واجتماعية، واستُخلصت من أجسادها الدهون والعظام والشعر.. ومن أسعفه الحظ منها فنجا من الإبادة تمت مبادلته بمصادر أخرى للطاقة (وقود، شاحنات، وآليات عسكرية) بتوسط الدول المحايدة في الحرب. إننا إزاء اقتصاد تقليدي هو اقتصاد الرهينة والاختطاف والاقتلاع، وهي الأساليب المفضلة التي يقتضيها عنف السرعة.

لم يقع استيعاب الدرس الثمين لمعسكرات الاعتقال ومعتقلات سيبيريا، والأمر لا يعود إلى أنها قد قُدّمت على الدوام على أنها ظاهرة إيديولوجية، بل لأنها دُرست إضافة إلى ذلك باعتبارها ظاهرة سكونية، أي باعتبارها محتشدات للعزل. إنّ صبغتها اللاإنسانية القاطعة لم تكن سوى تحيين تاريخي بيّنٍ لطقوس القربان البشري لدى البدائيين وللحشد الهائل من الأجساد المدجنة والمجهولة وتلك التي لا سبيل إلى معرفتها. فمن عساه يكون البروليتاري منذ العصور القديمة إذا لم يكن صنفاً من العباد المدجنين بالكامل ولم يكن طبقة صانعة للمعدات وجرّارة لها في الآن نفسه، ولم يكن حضوراً عجائبياً فيما يروى [من قصص] عن تاريخ شعب مترحل ينحصر دوره في تلبية الحاجات اللوجستية الملحة!

لقد تمّ التنصيص في اللوحات الفنية التي وصفت مختلف أوجه الحياة في أوروبا الغربية في القرن التاسع على وجود أولئك العمال المهاجرين

= ورد في **لسان العرب** (هـ. و. م) من أنّ «العرب كانت تزعم أن روح القتيل الذي لم يدرك بثأره تصير هامة فتزقو عند قبره تقول: اسقوني، اسقوني» (المترجم).

(الذين تطلق عليهم عبارة Forenses) الذين لا يقل عددهم عن نسبة ١٦٪ من عدد السكان المسجلين، والذين كانوا يتنقلون من دائرة سكانية إلى أخرى دون أن يمنحوا الأراضي المجدّبة التي حازوها، باستثناء أولئك الذين كانوا في جرمانيا، وربما من كانوا في منطقة شامبان الفرنسية Champagne. وهكذا فإنّ هذه الفواضل الاجتماعية التي تشبه كثيراً ذلك «العالم الرابع»، عالم الضواحي الحزامية للمدن المعاصرة، إنّما هي النتاج المباشر لظاهرة العزل الاستراتيجي المشار إليها سابقاً، ونتاج الضبط الإقطاعي ثم البورجوازي للمجتمع.

وبالفعل لا يمكن ضمان الاشتغال العضوي للقلعة إلّا عبر ضبط حدودها، وكذا عدد السكان ومساحة مناطق التمدد العمراني، فالحساب الاستراتيجي يتطابق مع الحوسبة الإحصائية. وهكذا تبدو القلعة بمداخلها ومخارجها صورة بدائية من الحاسب الآلي الاستراتيجي. لقد اقتضى إرساء المجتمع العسكري في القرون الوسطى زوال سَكَن كان إلى ذلك الوقت يعدّ سكناً جماعياً، هو بالتأكيد الفضاء المدني، وإن **اختفاء هذا الفضاء المدني** يعني إلغاء حق الناس العادي في الفضاء وفي تكييفه. ومن ثمة لا يمكنناالحديث عن «مجتمع طبقي» دون استحضار صورة الحصار الملازمة لمجتمع القرون الوسطى. هذه العودة إلى **مفهوم العدل اليوناني القديم** Diké، ذلك العقل الانتقائي الذي استبدل القانون المدني بالقانون السياسي، هي عين الفكرة الأرسطية القائلة بأنّ «حكم الأرستقراطيين يبحث عن أكثر عدد ممكن من المواقع المحصنة، في حين يكون الأكروبول هو الموضع المناسب للحكم الأوليغارشي، والأماكنُ المنبسطة هي الأنسب للحكم الديموقراطي». وهكذا لمّا كانت السياسة مسألة مجال ترابي فنحن إزاء تقطيع فعليٍّ للزمان والمكان الإنسانيَين، من شأنه أن يضع نهاية لأمة **السلم المدني**.

لقد نشأت الصراعات الاجتماعية بسبب التنافس بين أولئك الذين يتوفرون على منظومة بيئية، يسعون إلى صيانتها باعتبارها المكان الذي يميّزهم أسرة وجماعة، ويستحق منهم كلّ التضحيات، بما في ذلك الموت المفاجئ. فإذا كان «الكائن هو الساكن» في اللغة الجرمانية القديمة (**Bûan**) فإنّ اللاسَكَن يعني انعدام الكينونة. فالإنسان المفرد والمخلوع، أي المحروم

من فضاء خاص أو بالأحرى من **هوية**، يفضل الموت العاجل على الموت البطيء.

وخلاصة القول إن قلاع العصر الوسيط قد استعاضت عن الضيافة البدائية والكرم القديم المقدس بإقصاء اجتماعي مطرد هو أهمّ ما تحتاجه لتشغّل آلتها الحربية. وهكذا فإنّ القمع المقنن بالنسبة إلى هذا المجتمع المنغلق لا يمكنه إلا أن يدفع نحو الرحيل والهجرة، أي إلى فقدان الأرض على غرار فقدان الهوية.

وهكذا تتبخر هذه الفواضل البشرية في وعثاء طرق الهجرة. وإنّ العدد المتكاثر من الذين لفظهم نظام الحصار يتحولون إلى قوى مادية متحركة لا وجهة ولا حصر، فهم ثاوون في المناطق غير المنظورة وفي فجوات المخطط الاستراتيجي المبهم وفي ما سُمح به من رحلات الحج الخطيرة ومن غزوات يقودها الأطفال والمساكين، «أولئك المشردون البطالون، وكل من له قدرة على التسول». إنهم ممنوعون من الإقامة داخل القلعة لأكثر من يوم، وفي مدن أخرى كانوا يُضربون بالسياط ويُطردون، ويمنع على الحضر استقبالهم في بيوتهم وإلا غُرّموا. ولن تنتهي هذه الهجرات الكبرى إلا بفضل حرب المئة سنة، فقد تكفل سلاح المدفعية بقلب ساحة المعركة رأساً على عقب.

ولكن بداية من القرن الثاني عشر ازداد تأثير انتشار العُملة بشكل كبير معلناً نهاية الوضع الراهن الوسيط، أي ذلك التوازن الذي طالما تباهت به الهيئات السياسية والعسكرية؛ فنظام الخدمة العسكرية الإقطاعية القديم أصبح بمقابل، ومن ثمّة ما لبث أن نال الفرسان رواتبهم. ولاحقاً سينحصر اختيار أعضاء الطاقم العسكري في طبقة النبلاء أو يكاد؛ وعلى سبيل المثال كان الابن الأوسط في عائلة النبلاء الذي يشتغل ضابطاً في فرقة خاصة يحصل على راتب كبير إلى أن اقتضت الضرورة استبعاد المرتزقة ارتياباً في أصولهم، فهم [في الأصل] قطّاع طرق وصعاليك ينحدرون من سلالة أبطال بلاوتوس Plaute المضادين «أعداء كلّ البشرية»، كما قال عنهم إيسقراط Isocrate. إنهم بمثابة بضائع متنقلة عبر الأسواق شأن بقية العمال الذين يعملون مقابل مؤونتهم وحسب. لقد كان وضعهم منذ العصور القديمة هو

نفس وضع العبيد الذين كانوا يُحررون من حين لآخر زمن الحروب ويُجندون في المعارك البحرية بالخصوص، لأن الحرب في البحر تتطلب عدداً كبيراً من الأعمال الميكانيكية المنسقة. أمّا المعارك البرية فقد ظلت إلى ذلك الوقت حكراً على «الأحرار». وهكذا وجد البروليتاري العسكري نفسه محشوراً ضمن الزمرة المهاجرة على الدوام، فهو سليلها، مثله مثل العامل المهاجر في القرن التاسع عشر ومثل العامل الأجنبي غير الشرعي في القرن العشرين. إنّ قاطع الطريق، وكما يدل عليه اسمه، يجوب الطرقات، فالطريق **هو فضاؤه الطبقي**؛ إنه يضرب في الأرض بحثاً عن عمل موسمي غير مضمون. وقد رسم كالوت Callot لاحقاً صورته في لوحته الشهيرة «قائد البارونات» «Capitano di Baroni»، فهو: متبختر في مشيته، رثّ الثياب، مشوّه الخلقة، مشرد رهيب ووضيع، يضع دائماً قبعة مزيّنة ويحمل راية مستعرضاً في مسيرته اللانهائية **مآسي الحرب**.

لقد كانت مشكلة الإقامة المؤقتة لهؤلاء الرهبان الجيروفاجيين[٦] المحاربين من جنس مشكلة الإقامة المؤقتة في التكية والمحجر البحري. وستحُلّ الرهبنة العسكرية هذه المشكلة بشكل دقيق على غرار الرهبنة المنتظمة التي وضعت نهاية للرهبنة السائحة عبر تشييد الأديرة. بعد ذلك تدخلت الدولة لتُحِلّ نظام الإيرادات محلّ المؤسسات الخيرية المجتمعية والضرائب المحلية كـ «ضريبة الملح»، وذلك قبل أن يصبح [اعتماد] مردودية قوة عمل تلك الفواضل الاجتماعية هو الحلّ الأمثل. [ولذلك نفهم لماذا] سبقت إجبارية العمل في المصانع إجبارية التجنيد بوقت قليل (في فرنسا على الأقل). إنها إجبارية فريدة من نوعها بما أنها موجهة بطريقة لا تُلحق الأذى بامتيازات المصنّعين المستقلين. وليس للعمل في المصنع أن ينجو من دكتاتورية الحركة، فلمّا كان العامل المنبوذ يعاود نفس العمل في نفس المكان في حركة دائرية إجبارية وعبثية كان في ذلك موته البطيء. أذكر أنني أقمت لثلاثين سنة خلت على ضفاف نهر اللوار Loire قريباً من مستشفى للأمراض النفسية وقد اندهشت وأنا مازلت طفلاً لمرأى رهط من المجانين

(٦) نسبة إلى الراهب المسيحي جيروفاج (Gyrovague) الذي كان يضرب في الأرض نسكاً وعبادة (المترجم).

كانوا يدفعون عربات يدوية في الجانب المجفف من قاع النهر وقد أجبرهم حراسهم على ملئها بالرمل ثم تفريغها بعيداً في الماء، وكانوا يُرغمونهم على تكرار هذا العمل السيزيفي تحت لهيب الشمس، ومن حين لآخر كان أحد هؤلاء التعساء يعوي ويرمي بنفسه في الماء.

وبالطريقة نفسها اضطرت المؤسسة الخيرية في مدينة تور Tours في القرن السابع عشر إلى أن تتخلى عن بعض ورشات غزل الحرير تحت تهديدات منتجي المادة في المدينة، ومن ثمّ دفعت نزلاء المؤسسة إلى أن يقتصر عملهم على لف خيوط الحرير وتجميعها.

وفي نفس الفترة وسّعت الدولة بشكل كبير من مجال أعمال السخرة المفروضة على الفلاحين، إذ لم تعد هذه الأعمال مقتصرة على نقل المتسولين إلى الأديرة أو إلى المعازل، بل تعدّتها إلى نقل المحاربين والمجرمين الذين سيقاسمونهم من الآن فصاعداً المصير نفسه. وبالطريقة نفسها فإنّ هذه السخرة، التي أفرزها الميثاق الإقطاعي شبه الاستعماري، قد تطلبت في حينها بروليتاريا وعمالاً فلاحين للقيام بالمهمة اللوجستية، ولكن دون أن يرتقوا إلى مرتبة العمال. ولقد أسرّ الملك لويس الرابع عشر يوماً إلى كلوبارت: «إذا أردت أن تعرف معنى الاقتصاد فما عليك إلا أن تذهب إلى مقاطعة فلاندر Flandre وستقف على بخس ثمن تحصينات المناطق التي استولينا عليها». وهو يشير بذلك إلى أعمال التهيئة والبناء الكبيرة التي تولاها وزيره لوفوا Louvois إذ طبّق الطريقة الرومانية فعهد بتنفيذ الأشغال إلى الجنود بعد إلزامهم بالانضباط العسكري، ولكن بأجور لا تسمن ولا تغني من جوع. وهكذا ما فتئ مسار المهاجر هناك ومسار هجرة عملية عسكرة البروليتاريا يتداخلان منذ العصور القديمة. إن [زيارة] مدينة غارلان Garlan الفرنسية [تجعلنا] نستحضر [صورة] تلك الطرقات والأسواق حيث كانت تتجمع يد عاملة مختصة مصحوبة بعائلاتها وعشائرها، كتلك التي كانت في منطقة خليج تينار Ténare جنوب شبه جزيرة البيلوبونيز Péloponnèse [جنوب اليونان]، على سبيل المثال. وبفعل تزايد طلب لجان زعماء المرتزقة Condottieri على القوى العاملة الأجنبية سيتم لاحقاً استحداث مسلك لوجيستي، ونعني به تلك الطريق الإسبانية الشهيرة التي شبهها باركر Parker بمَمرّ هوشي منه Ho-Chi-Minh [الشهير]. وعلى طول تلك المسارات أُنشئت

ثكنات مؤقتة جُهّزت بأسرّة تبرع بها القرويون وعُزّزت بخدمات صحية أُضيفت إلى تلك التي تؤمنها التكايا، وذلك لمواجهة الظروف الحرجة التي كان يعيشها أولئك البؤساء الذين أفلتوا من العزل والاعتقال ليستعيدوا حياة الجندية.. وإلى حدود القرن التاسع عشر كانت الثكنات عبارة عن مستشفيات، حيث فتكت الأمراض المنقولة جنسياً والأوبئة، مثل التيفوئيد، بالجنود أكثر مما فتكت بهم الحرب. وبحسب شامبراي Chambray تزايدت بمعدلات مخيفة، وبسبب المعارك الطاحنة والصراعات الاجتماعية، نسبة وفيات جنود المشاة الناتجة عن الإنهاك. وبموازاة ذلك سيشهد عدد التكايا تطوراً ملحوظاً حتّمته الظروف. وقد أعادت هذه التكايا للبروليتاريا الهائمة وِحدتها كما بيّن ذلك الطبيب واسرتير Wasserthur في تقريره المؤرخ في ١٠ حزيران/ يونيو ١٨٨٤، والمتعلق بوضعية مستشفى بلدة سيليستا Sélestat حيث كان يقيم العسكريون المرضى وجرحى الحرب والمصابون بوباء التيفوئيد والسرطان والعجزة جنباً إلى جنب.

لقد ظلت المطالب الاجتماعية للبروليتاريا العسكرية مقتصرة لمدة طويلة على ما يقيم أودها، إذ تركزت على الأجور وسلامة ظروف الشغل والتكفل بمعوقي حوادث الشغل وجرحاها؛ لذا اقتصرت أحداث الشغب والتمرد [التي قامت بها] على سلسلة من الإضرابات غير المؤثرة، فقد كانت تهدف في الغالب إلى الاحتجاج على تأخر صرف الأجور الذي بلغ أحياناً عشر سنوات كاملة. كان هؤلاء المحتجون ينتظمون باستمرار في مجموعات قتالية مستقلة ينتخبون من بينهم قائداً (Electo باللغة الإسبانية وAmbosat بالألمانية... إلخ) يساعده مجلس منتخب ديمقراطياً، وما أنْ يستكملوا تنظيمهم حتى يبادروا إلى تجديد مطلبهم الرئيسي. لقد كانوا يسعون دوماً إلى الاستيلاء على مكان محصن يرابطون به إلى أن يُجبروا مستأجريهم على الخضوع فيمكنونهم من مستحقاتهم، وعندها يرحلون. ومع ذلك لعبت تمردات الجنود هذه ذات المطالب المحدودة دوراً مهماً في التطور السياسي، لأن الاستجابة لمطالبهم ساهمت في الدفع بأجهزة الدولة إلى أن تعجّل بتطوير الالتزامات المادية للسكان الناشطين والمنتجين تجاه «هؤلاء السكان المترفين» الذين خلفوا سادة المقاطعات القدامى. إن الضريبة باعتبارها عبودية اقتصادية كانت تستخلص مباشرة من قبل الجنود بطريقة

«استعجالية لم يستسغها كلوبارت الذي ألزم جباة الضرائب (أولئك الوحوش الفظيعة كما كان الناس يسمونهم آنذاك) بأن لا يستعملوا القوة إلا في الحالات القصوى». وهكذا أصبحت خزينة الدولة قادرة على تمويل مناسب يضمن استقرار الجيش، وعلى مواجهة ظاهرة الفرار من الجندية عبر ضمان انتظام رواتب الجنود. لقد كانت فترة هشة كما بيّن ذلك كلاوزفيتش، أنجزت فيها المهام العسكرية بصعوبة بفضل أموال الخزينة وبوساطة التجنيد العشوائي لجموع المشردين، إذ لا اهتمام بماضيهم وأصولهم. لذلك لم يجد الكثير من الرجال القادرين على الحرب بُدّاً من أن يغامروا، بل ويقطعوا الطرق، فسكنوا المفاوز [ولسان حالهم يقول]: «خفيف الظهر من كلّ حق، منفك الرقبة من كلّ رق، لا يلزمه أداء الزكاة.. ولا يغتم لأهل ولا مال ولا دار ولا عقار»(٧).

لقد قيل كلام كثير منذ بابوف Babeuf وأنجلز عن حركات جسد البروليتاري/ الجندي الآليةِ وكيف كان يُجبر على خدمة آلة الحرب فيرغم على تكرار جملة من المتواليات (على سبيل المثال، في القرن الثامن عشر لا بد من عشر حركات متوالية ومتناسقة لكل طلقةِ مدفع). ثم تطوّر الكلام [لينصبّ] على معرفة ظروف حياة البروليتاري العامل دون التخلي، كما فعل أنجلز، عن نظرة الاحتقار والقرف المتأصلة تجاه جموع الأجساد الهائمة مسلوبة الإرادة، وهي:

ـ العامل الذي حررته ثورة ٨٩ ولكن قانون شابولياي Chapelier شلّ حركته.

ـ المرأة التي حبست في الدير وفي الحريم أو في بيوت الدعارة حيث يباع جسدها فيمتلكه كل من يختلف للمكان ويتمتع به.

ـ أعضاء «الفرقة المفقودة» التي شكلت أجسادهم مادة مثالية للترويض والانضباط.

ـ الانكشاري (الجندي المستجد) الذي كان يُختار يافعاً من بين العبيد المسيحيين ثم يتم تحويله لاحقاً إلى بروليتاري عسكري.

---

(٧) نقترح هذا «المثل» العربي القديم مقابلاً للمثل الوارد في النص:

«Estafette venant devant, ne devant rien payer sur les champs» (المترجم).

ولقد بيّنت معركتا غراندسون Grandson ومورتين Morat في القرن الخامس عشر الأهمية التي كان الجيش السويسري يوليها لحضور «الفرقة الضائعة» بين صفوفه، وقد كانت مكوّنة من زُعّار الضواحي الذين استُعملوا كأدلّاء منذورين للموت، إذ يُلقى بهم في الصف الأمامي لخداع العدو. . وقد لاحظ فوبان في القرن السابع عشر لدى قيامه بجولة تفقدية أنّ المملكة الفرنسية في خطر. . . «بسبب أنّ مواضعها الحصينة محروسة من قبل حاميات مكونة من مجموعة سرايا من الأطفال البؤساء الذين **اختُطفوا** قهراً من عائلاتهم أو تم **إخفاؤهم** بألف طريقة وطريقة». إن الاختطاف أو تحويل الوجهة هما وسيلتان تقليديتان اعتمدتهما دولة/ سلطة السرعة، ولذا كان من الطبيعي أن تشرعن ثورة ٨٩ العسكرية عمل الأطفال.

في سنة ١٨٤٦ كشفت مجلة *la Revue des deux mondes* أنه تم التخلي في فرنسا، في ظرف سنة فقط، على اثنين وثلاثين ألف طفل، أي أن طفلاً من كل ثلاثين طفل يفقد وضعه القانوني، أي **هويّته**. وقد ذكرت جورج صاند George Sand في روايتها «**الطفل المهجور**» *François le Champi* بتأثر كبير طريقة التخلي عن هؤلاء الأطفال، إذ يعهد بالطفل إلى مسافر يأخذه معه على متن مركبة جياد ثمّ يرمى به في الحقول. وهكذا فإنّ ضياع الهوية يظل مرتبطاً بعزل جغرافي لمجموعةٍ ما وبدفع الطفل «الذي لم يبلغ بعد الحلُم» نحو الطريق.

ما زال الفرق الجوهري بين «الليبرالي» و«الميكانيكي» قائماً؛ هو الحركة بالتأكيد، وهو فرق مرتبط بالحركة الآلية التي يمكن لغير المكلفين وحتى الحيوانات أن تنجزها لاإرادياً (Equicola 95). كتب أنطوني بلانت Anthony Blunt في مؤلفه «*Artistic Theory in Italy 1450-1600*» «نظرية الفن في إيطاليا ١٤٥٠ ـ ١٦٠٠»: «اعتبر العمل اليدوي في مجتمع عصر النهضة المبني على مركزية الإنسان شيئاً وضيعاً كما كان في القرون الوسطى». وبالفعل فإنّ جسد العامل لا علاقة له بصورة الإنسان الفيتروفي Vitruvien العاقل، المخلوق في أحسن تقويم، لأنه يعيش داخل دوائر الهندسة الإقليدية وبين خطوطها، فهي رمز تفوقه الاجتماعي؛ كيف لا وهي هندسة المسالك التي أنشأها الغزاة والمتغلبون.

إنه من الغريب أن نرى اليوم نقاشاً دائراً حول معاملة الحيوانات ومسألة إهمالها وقتلها وتشريحها حية... إلخ، وبالأخص حول الأفلام السينمائية الرائجة التي تتم فيها التضحية بأعداد ضخمة من الحيوانات. في هذا السياق يجدر التذكير بما ورد على صفحة «بريد القراء» بجريدة **فرانس ـ سوار** *France-Soir* بتاريخ ١٦ آب/أغسطس ١٩٧٧ وتحت عنوان «**محنة الحيوانات**»، حيث أجاب السيد دومينيك زردي Dominique Zardi، وهو ممثل وثّاب Cascadeur ومعوّض Doublure، لمّا سئل عن الموضوع، قائلاً: «لقد أقام الممثلون صغار السن في نفس المحلّ الذي حشرت فيه الحيوانات التي كانت في مقام إخوتنا الصغار، وبسبب أنها كانت مرعوبة يُقطع التصوير [من حين لآخر].. وإذا كان صحيحاً أنني كنت طفلاً قاسياً **فإنّ الأصح أنّ ما فعلته لم يكن ليفعله أيّ حيوان، ثمّ إنني لم أؤذِ حيواناً ولا طفلاً ولا امرأة، فلا فرق بينهم جميعاً كما هو معلوم**». إن جسد هذا الممثل المعوض الذي لا عقل له قد قرنه مخرج الفيلم، دكتاتور الحركة، بجسد بقية الدواجن التي **تقاسمه نفس المحلّ**. ولنذكر الصفقات التي كانت تبرم في المجتمعات القديمة أثناء زواج «المرأة العاملة»، وكذا ضروب الاحتفالات التي كانت تدور كلها حول تهادي مختلفِ أطرافِ الزواجِ الحيواناتِ. ونضيف إلى ذلك وجود بروليتاريا حيوانية مازالت تُشغّل صلبَ الجيوش والشرطة، وأحدثُها الثدييات البحرية، كما أنّ وحدات الكلاب المدربة على معارك المشاة مازالت موجودة، وكذا «سفينة القطط» المسؤولة عن الخدمات الصحية أثناء معركة أجينكور Azincourt التي تحدث عنها مالرو Malraux. أمّا في القرون الوسطى فقد حُوّلت أجساد الحيوانات إلى مَرْكبات، فأضحت الخيول قذائف والفيلة والثيران والجمال والبغال دباباتِ هجوم وجرافات ومجرورات، أي باختصار آليات عسكرية. أمّا الحمَام، ذلك الطائر اللاحم، فهو وسيلة اتصال اختصت بها النخبة الاجتماعية، وهي نخبة لاحمة مثله. وإن السرعة التي أوصل بها الحمام الزاجل المعلومات إلى التاجر الفرنسي الشهير جاك كور Jacques Cœur هي التي درّت عليه ربحاً كثيراً في نشاطه الاقتصادي، وخصوصاً تجارته البحرية، ولكن اللافت للنظر أن نجده في فندقه ببلدة بوجيز Bourges يفرض ضريبة الملح على قطعان «العمال/المنتجين»، فهيّأ لهم معالف لتحديد قيمة الضريبة المفروضة عليهم، إذ تقاس بكمية الملح التي تحتاجها أجسادهم (الحيوانية) كي يظلوا على قيد الحياة، ذلك أنّ

الجسم يستهلك في حالة الحركة خمسة أضعاف ما يستهلكه في حالة الراحة. لأجل ذلك قاد غاندي في الهند حملة كبيرة ضد الإنكليز بسبب هذه الضريبة، إذ اعتبرها **اقتصادَ عنفٍ وموتاً بطيئاً مسلطاً على شعب احتله غاصب غربي**. ولكن الفكرة التي مازالت منتشرة إلى اليوم بخصوص الأجساد الهائمة عديمة الهوية، أعني تلك الهامات، هي حتمية أن تتمكن منهم إرادات أخرى وتسكنهم فيكونوا مسلوبي الإرادة حقاً. وهذا هو مغزى عبارة فريديريك الثاني [عندما خاطب جنوده قائلاً]: «لا تفكّروا». فبخصوص سلب إرادة بعض الأصناف الجنسية والاجتماعية والعرقية من المهم الإحالة على وضعية أحفاد العبيد في الولايات المتحدة الأمريكية ومعركتهم في سبيل نيل حقوقهم المدنية، وفي مقدمتها حقهم في الانتخاب، الذي هو في الحقيقة **حق الإرادة** الذي كان يُمتّع به «الرجل الحر» ويمنع عن الأجساد مسلوبة الإرادة. ولم يختلف الأمر في فرنسا، بل ازداد سوءاً بصدور قانون ٢٧ آب/أغسطس ١٧٩١ الذي اشترط أن يكون الناخب **مالكاً عقارياً**، فالمشردون يظلون عاجزين دوماً عن تقرير مصيرهم. وبموجب هذا القانون واجهت المرأة صعوبات جمة لافتكاك حق التصويت حتى أصبحت جزءاً من الكونية الجمهورية العجيبة.

ومن هنا ندرك الأهمية السياسية والاجتماعية لـ «العقل الليبرالي» (من البحر الحر إلى الحرب الحرة)، لا بالمقارنة مع لامعقولية الأجساد غير المكلفة، بل مع الغياب الصريح للعقول لديهم. هذا التناظر استنسخه الهيكل التنظيمي الماركسي، وبدرجة أقل الهيكل التنظيمي الرأسمالي، على الأقل في الوقت الحالي. مع ميلاد سلطة السرعة نحن إزاء تحريف لفكرة تناسخ الأرواح لدى البدائيين، فلقد تحوّلت النفس لمّا أصبحت فردية إلى عقل، أي إلى ملكة تعقل أعمالنا وحركاتنا وحتى مجمل مصائرنا. ولكن هذا المنطق لم يسلم من الخلط بين الحس المشترك والفرضية الهندسية الرياضية القائلة بوجود **عقول متفوقة**، كعقول العسكريين مثل توران Turenne وفوبان، وكعقول البورجوازيين مثل كلوبارت، كما لاحظ ذلك مورسو دي جوناس Morceau de Jonnès في كتابه *Etat économique et social de la France de 1589 à 1715* **«حالة فرنسا الاقتصادية والاجتماعية من ١٥٨٩ إلى ١٧١٥»**.

إن ظاهرة الإحصاء مناقضة لعاداتنا العريقة، وإن نسبة وجود عقل واحد

متفوق من ضمن ٢٥٠٠٠ حالة التي توصل إليها فوبان لا يمكننا قبولها. ولكن في غياب أي مجهود لمسح إحصائي كان لا بد من اعتماد الطرائق الاستقرائية التي يمكنها أن تؤسس بطريقة غير دقيقة إلى حدٍّ ما مفاهيم توزيعية. لاحقاً سيبني أرتور يونغ Arthur Young وشابتال Chaptal ولافوازييه Lavoisier جداولهم الإحصائية على المنوال الاستقرائي لجداول فوبان، ولكن مع فارق أنّ توقعات اثنين من ثلاثة جداول كانت خاطئة. وفي موضع آخر لاحظ مورسو أن الأرقام التي يقدمها فوبان أصبحت سهلة الفهم لأنه **حوّلها إلى قياسات مترية**.

لا توجد الروح ولا تظل حية عندما يموت الجسد/الوعاء أو الجسد/الآلة. ولكن من جهة كونها عقلاً كامناً، وبالأخص عقلاً علمياً، يمكنها التأثير في أجساد أخرى متباعدة في المكان والزمان، حيوانية كانت أم ترابية أم نباتية. وقد تكون مسلوبة الإرادة أو **لم تولد بعد** وأضحت أجساداً آلية أو أشياء. ها نحن حقيقة أمام الهيمنة الاجتماعية بوجهها الحقيقي، وأمام حظيرة لترويض الحيوانات/الآلة؛ فالحصان الأصيل لم يعد يعدو من تلقاء نفسه، بل بفضل الفارس الذي يمسك بعنان لجامه ويهمزه بالركاب همزات متتالية فيسرع، وإلا فإنّه يَجمَح ويعود وحشياً.. أي يصبح سيّد نفسه.

وفي هذا المجال يشكل العقل بالنسبة إلى الأجساد وكما هي الحال في الكتاب المقدس، مظهراً من مظاهر موتها. [ومصداقاً لذلك] فإنّ مشهد مدمني المخدرات اليوم الذي أصبح شائعاً يشبه في رمزيته مشهد المجانين والمجاذيب في بداية العصر الكلاسيكي؛ لقد كانت حركاتهم وتصرفاتهم المضطربة وكلامهم غير المفهوم مجال فضول، فالمجذوب مثله مثل الحيوان يُنظر إليه على أنه لا يحس بالألم حتى وإن صرخ أو تكلم أو اشتكى، لذلك لا معنى للرأفة به. ومن هنا نفهم كنه تلك الترسانة من القوانين والإجراءات «الطبية» التي كان الأسياد والجلادون والقضاة والأطباء يسلطونها يومياً على تلك الأجساد مسلوبة الإرادة، من حرق وحقن وتقليع أظافر وشعر.. وصولاً إلى الصعق الكهربائي. إن الجسد/عبارة عن بيت بلا ساكن، وفي حال لم نحرسه جيداً سيتداول على الإقامة به ما لا يُعدّ من المستأجرين المُنغصّين؛ لذلك عملوا على جعله غير قابل للسُّكْنى. وها هو الطب النفسي يشرّع اليوم لهذه المعتقدات عبر الزعم بظهور **اللاوعي** من جديد في **تعبيرات**

الشخص العاقل الواعي. هذه الأجساد هي أبعد من أن تكون منازل، هي **مَرْكبات حيّة**. وإنّ هذه الشياطين المزعومة التي نسعى إلى إخراجها من هذه الأجساد هي في المقام الأوّل عقول عابرة اشتطت في استيلائها على «مقر القيادة» على طريقة الفارس الذي يمتطي ظهر الحصان وفي ظنه أنه يتحكم في زمامه. لقد «استولت» هذه العقول على هذه الأجساد الخاوية ونفخت فيها ديناميكية غريبة عنها، ففرضت عليها حركات متطابقة. لقد تمثلت فلسفة التقمص القديمة في سعي حشد هائل من العقول بحثاً عن مادة غير متميزة لتسكنها، واعتقدت أن عملية التناسخ تتم بطريقة طبيعية بموت أي جسد أو بولادته، وبذلك تخلق مساواة بين الأجساد تتخطى طبقية النظام الاجتماعي.
هناك ملاحظة أخرى: عندما يتحوّل مُجدّب الأرض إلى غازٍ فإنّ قدرته الروحية الكامنة على استيطان الأرض تمّحي لفائدة قدرته العسكرية، فيستبدل تناسخ الأرواح الرومنسي بالغزو، أي بترحيل الأجساد واقتلاعها من أرضها، فتنعدم المساواة بينها. انسجاماً مع ظاهرة الامتلاك الشرعي للأرض فإنّ عقلنة المركبات الحية يعني حرفياً عملية قرصنة، لذلك يعتبر الدكتور أولفانشتاين Olivenstein الطبّ النفسي بمثابة «**الأداة** الأقوى والأهم **لاختراق** النفس البشرية»، إذ يتم اللجوء دوماً إلى العنف اللاواعي وإلى الحق في «سلطة الإخضاع» وفي تقنياتها الآلية. وبعد ذلك فليس من المستبعد أن يكون الأطباء النفسانيون الروس المتهمون من قبل نظرائهم بالعنف السياسي (أثناء مؤتمرهم هذه السنة) الأكثر احتراماً لأخلاقيات فنّهم الطبي. أليس هذا الطب النفسي أفضل من العقاب الجسدي والترويض على طريقة عالم النفس سكينر Skinner وعلاج المدمنين على المخدرات على طريقة الطبيب النفساني ساكال Sakel[٨]؟ والنتيجة كما لاحظ ذلك الدكتور أولفنشتاين أنّ «مدمني المخدرات كفّوا عن تناولها ولكنهم **يهيمون في الطرقات كأنهم أشباح**»، إنهم بمثابة هامات، فأجسادهم على استعداد دائم لاستقبال عقول غريبة عابرة.
ربما كان الإظهار الاجتماعي للحب الإنساني هو أحد آخر محاولات النفس البشرية ذات الشكل السائل التي تجسدت هنا وهناك حتى تدافع عن إنسانيتها الشاعرية. فتصوير العملية الجنسية بطريقة بهيمية، وكذا التربية الجنسية، أو

(٨) كتب الاسم في النص الفرنسي Sakol، وهذا خطأ (المترجم).

بالأحرى نشر الأفلام البورنوغرافية، واعتبار كل ذلك فتوحاً تكنولوجية، إنما هي طرق أخرى لعقلنة الأجساد «غير المكلفة»، هي التتويج الطبيعي للرياضة الإغريقية حيث كان الناس يمارسون الرياضة عراة. وبعد التربية البدنية على الطريقة السويدية[٩] جاء الاندغام الحديث بين الطريق والجنس: أجساد تتلاقى عرَضاً فتمارس الجنس عرَضاً، لا فرق بينها وبين السيارات والدراجات النارية، فهذه تسرق والأخرى تغتصب ثم يتم التخلي عنها جميعاً[١٠].

«إن السلوك الحسن»[١١] لم يعد مجسداً في **الأخلاق** التي يربّى عليها الأطفال في المدرسة العمومية، بل في التربية المرورية التي أضحت مادة إجبارية في المدارس الابتدائية. ولكن ألسنا هنا إزاء مغامرة الرهبنة العسكرية، تلك التي تحوّل فيها جسد المسيح التقي إلى «فيلق عسكري»، إلى أمر عسكري بالسير؟

ولكن قبل ظهور القراصنة وفرق الهجوم والزعّار كان الراهب العسكري يجد متعته في ساحة الموت والرعب. وبالفعل فإذا كانت عسكرة المجتمع قد جعلت من كل مواطن **آلة حرب** فإنّ الراهب المحارب هو في هذا المجال قدوة ورائد. إن إصلاح أنظمة الرهبنة الكبرى الهادف إلى إنهاء ظاهرة الرهبنة العسكرية الجيروفاجية هو ثورة هامة بما أن «خلوة»[١٢] الراهب قد ضمت إليها مجموعات مسلحة هامة من داخل البلاد ومن خارجها. إنّ نشأة الترهب في أحضان الطبيعة والزمن والفضاء وبين ظهراني

---

(٩) أي اشتراط العُري (المترجم).

(١٠) «ليست المرأة هي مركوب الرجل أثناء ولادته وحسب، بل هي كذلك أثناء ممارستهما للجنس. ويمكننا القول، تحليلاً لما كتبه صامويل بتلر (Samuel Butler)، إنّ الأنثى هي الأداة الأولى التي استعملها الذكر ليتناسل، أي ليوجد. في هذا السياق تعدّ المرأة أوّل وسيلة نقل للنوع البشري، وأول مركوب عرفه الإنسان. المركوب الثاني هو عبارة عن تركيب وتزاوج أجساد غير مؤتلفة مجهزة للهجرة، للرحيل الجماعي». انظر:

Paul Virilio, «Métempsycose du passager,» *Traverses*, no. 8 (mai 1977).

(١١) استعمل المؤلف عبارة bonne conduite، وهي تعني في الآن نفسه «السلوك الحسن» و«البراعة في قيادة المركبات» (المترجم).

(١٢) عبارة solitude التي استعملها المؤلف لها معنيان: العزلة، ومكان العزلة؛ لذلك ترجمناها بـ«خلوة»، التي تعني عملية الاختلاء وتعني كذلك مكان الاختلاء (المترجم).

المؤسسات الاجتماعية والإنسانية التي ينكرها ويزهد في ملذاتها منكراً ذاته، كل ذلك قد أنبأ بعدمية الثورة التقنية التي حدثنا عنها هيدجر Heidegger. إن الراهب الذي أنكر ذاته وأقسم اليمين على أن يصمت ويعفّ، وبالأخص أن يطيع، قد أصبح الآلة التي يركبها «مدير دفة» وعيه. (صلة الوصل هذه التي تؤمن النظام هي عبارة عن عقل متفوق وكوني).

ينبغي التذكير بأن الرهبنة هي اختراع عسكري أكثر منه ديني، وهي منتشرة في كل مكان من العالم؛ فتكاثر الطوائف الدينية تزامن منذ العصور القديمة مع نضج فكرة الدولة. لقد كان من الطبيعي أن ينشأ المفهوم الحديث للدولة مع هيجل في بروسيا Prusse الموطن القديم لطائفة فرسان تيوتون l'ordre Teutonique التي تخلت عن صبغتها الدينية سنة ١٥٢٥. ومن ناحية ثانية فإنّ حركة كاربوناري Carbonari بتنظيمها «الخَلَوي» أصبحت نموذجاً احتذته مجموعات ثورية أخرى شأن تلك الحركات السرية التي أضحت في روسيا ركائز لحرب إرهابية ممنهجة ولعدمية مدمرة شديدة الشبه بالحرب الدائمة التي كانت أكبر تنظيمات الرهبنة قد قادتها ضد المسلمين أولاً، ثم لاحقاً، في أمريكا، ضد السلاف أو ضد نابليون في إسبانيا مستعملة أسلوب حرب العصابات الذي برع فيه كذلك دوغاسلين Dugesclin الزعيم السري للمعبد[١٣]. والشيء نفسه حصل في الدول الأنغلوسكسونية، حيث تطوّر المذهب الطهراني Puritanisme جنباً إلى جنب مع تطوّر حركة التصنيع. ومع وجود مبيتات في المصانع فإنّ تشغيل الأجساد مسلوبة الإرادة، أي الأطفال والنساء، في الأعمال اليدوية من شأنه أن يحررهم بما أن أجسادهم تتحرك بفضل نفوس عاقلة هي نفوس مهندسين مكلفين بضبط سلوكهم وحركاتهم، فبالعمل تصير حرّاً Arbeit macht frei. ولقد استعاد القائمون على معسكرات إعادة التأهيل النازية والصينية هذا الاعتقاد القديم في الحركة، ولكن بطريقتهم الخاصة.

تبين الأمثلة المختلفة التي سقناها أن الغازي أو المحارب يتعهّد بوظيفة

---

(١٣) انظر بالخصوص:

Archives de Morimond (Haute-Marne), Clairvaux, Bibliothèques de Besançon et Carpentras, *L'ordre de Calatrava* par Francis Gutton (Paris: Lethielleux Libraire-éditeur, 1955).

تبدو وكأنها تشوه وظيفة رجل الدين؛ فبالنسبة إلى اليهود والمسيحيين الأمر واضح، فمنذ الأسطر الأولى «**للكتاب المقدس**» عُرّف **المحارب بأنه كاهن آثم**. وفعلاً فإنّ جريمة القتل الأولى التي عرفتها الإنسانية ارتبطت بطريقة تملّك الأرض المنتجة وكيفية فلاحتها، وتحديداً بالقربان الذي تقبله/الرب: «فَنَظَرَ الرَّبُّ إِلَى هَابِيلَ وَقُرْبَانِهِ، وَلكِنْ إِلَى قَايِينَ وَقُرْبَانِهِ لَمْ يَنْظُرْ»(١٤). وهكذا ارتبطت صورة أوّل قاتل للإنسان **باستئجار الأرض**. وفي هذا السياق فإنّ «**الكتاب المقدس**» واضح كذلك: ««مَاذَا فَعَلْتَ؟ صَوْتُ دَمِ أَخِيكَ **صَارِخٌ** إِلَيَّ مِنَ الأَرْضِ. فَالآنَ مَلْعُونٌ أَنْتَ مِنَ الأَرْضِ الَّتِي فَتَحَتْ فَاهَا لِتَقْبَلَ دَمَ أَخِيكَ مِنْ يَدِكَ. مَتَى عَمِلْتَ الأَرْضَ لَا تَعُودُ تُعْطِيكَ قُوَّتَهَا، **تَائِهاً** وَهَارِباً تَكُونُ فِي الأَرْضِ»(١٥). إننا إزاء صورة مزارع سُلبت منه أرضه على حين غرة، هو أول قاتل للإنسان حوّلته جريمته على الفور إلى باني مدن (أي إلى فرد من عامة الشعب بلا أرض يفلحها): «وَعَرَفَ قَايِينُ امْرَأَتَهُ فَحَبِلَتْ وَوَلَدَتْ حَنُوكَ. وَكَانَ يَبْنِي مَدِينَةً، فَدَعَا اسْمَ الْمَدِينَةِ كَاسْمِ ابْنِهِ حَنُوكَ»(١٦).

تكمن أهمية الكاهن (أو الساحر) والأب في قدرته على إقامة هذا التبادل التجاري مع الآلهة/الطبيعة ورعايته، ومن ثمة القدرة على التخفيف من أهواء الآلهة وعنفها؛ فبفضل خبرته التجريبية عرف كيف يجعل الرب يقبل قربانه مقابل استئجار الأرض (إنه يجمع الثمار ويحدد الضريبة ويجبيها، وما العُشر وضريبة الكنيسة اليوم إلا من بقايا هذه التبادل). وعندما أقيمت تجارة المنقولات مع «الغرباء» على ضفاف المتوسط فإننا ندهش لكونها تمت على الطريقة السالفة الذكر (وهي طريقة مازالت معتمدة لدى بعض البدو)؛ فهذه التجارة لا تقتضي أن يلتقي التجار ولا حتى أن يروا بعضهم بعضاً، إذ يُلقى بالبضاعة على الشاطئ أو على جانب الطريق فيمر بها التاجر الغريب فيلتقطها ويضع مكانها المقابل المناسب ويمضي لحاله. يبدو إذاً مروره بأرض الآخرين شبيهاً بمرور شبح، فما أن يضع قدمه بها حتى يغادرها؛ إنه يذكّر بتلك الأرواح والرغبات التي تَعمُر الخلاء. ومازالت المصارف

(١٤) **الكتاب المقدس**، «سفر التكوين»، الأصحاح ٤، الآية ٥ (المترجم).

(١٥) المصدر نفسه، «سفر التكوين»، الأصحاح ٤، الآيات ١٠ ـ ١٢.

(١٦) المصدر نفسه، «سفر التكوين»، الأصحاح ٤، الآية ١٧.

الاستعمارية والموانئ الحرة تعمد بطريقتها الخاصة إلى هذه الطريقة في التبادل التجاري خارج إطار الاتفاقيات العسكرية. لقد ظل المحارب باعتباره قاتلاً (بمفعول سلطة السرعة التي يمتلكها) ومُنشئاً للمدن على مفترق الطرقات يركز كلّ جهده وخبرته مدى التاريخ على فكرة استئجار الأرض، فالقوة المسلحة هي على الدوام قوة احتلال عسكري. وفي هذا المستوى يبرز المحارب في صورة كاهن ضالٍّ. ومن الغريب أن الحرب الشاملة والوضع النووي القائم الآن يعملان على أن يستعيد المحارب هذا الدور الأصلي. وبالفعل فإنّ مبدأ الردع ليس قاعدة استراتيجية وحسب، بل هو الثمن الذي يدفعه السكان إيجاراً للأرض التي يقيمون فوقها، وبلغة أدق **إيجاراً للمساحة التي يقيمون فيها** (الحدّ والنهاية). إن المحارب عديم الجنسية ذاك الذي شيّد الصرح النووي العالمي لخليق بأن يفرض على سكان المعمورة كلها إيجاراً باهظاً نظراً لاتساع المساحة المطوية والمحمية بحساب المتر. وهكذا فإن وظيفة البطل العسكري حامي الحمى وجابي الضرائب لا يمكن أبداً أن تقتصر أو حتى تتماهى مع «التجارة الإنسانية»، كما يعتقد كلاوزفيتش على سبيل المثال. إنّ تدنيس المحارب أو المرابط أرضَ الله المضيافة لا يقتصر على تملكه تلك الأرض كما لا يقتصر على استثمار تربتها وخيراتها باسم دولة هو في النهاية [أداة] من أدواتها (أو هو رافعتها كما يقول سان جوست) بل هو جماع كل ذلك، باعتباره تمدداً غير محدود لفعل التدنيس نفسه. وإننا نجد **كبار** الغزاة يحاكون هذا الفعل بشكل صريح، فالإسكندر المقدوني كان يمضي قدماً لا شيء يشغله سوى ما **يعترضه من موانع** قد تضع حداً لقدرته على الاختراق. وإذا كان فريديريك الثاني قد رفع شعار «النصر هو أن تمضي قدماً» فإن نابليون الأول قد أكّد أنه لا يريد أن **يمتلك بل أن يؤسس**، لذلك اختزل الغزو في جمع الأموال والبطولةَ في الحركة، والنتيجة أنّ نابليون مات فقيراً ميتة مرابط، مات وهو يرتدي ثوبه الرمادي البالي، ذاك الذي كان يميزه في ساحة المعركة عن أركان قيادته العسكرية وجنرالاته المرتزقين ذوي البدلات المزخرفة بالنياشين، مظهراً بذلك الصبغة المميزة التي كان يروم أن يَسِمَ بها فنه العسكري. لقد طوّر الكهان المنحرفون المسلمون والمسيحيون وغيرهم ترسانة الحرب تعاضدهم في ذلك حرب فونديه Vendée الأهلية في فرنسا، جامعين على نفس الصعيد الفقر و«كراهية الدنيا».

لقد كانت الإيرادات المالية لمؤسسة الكهانة متأتية من خطف الأشخاص وما يترتب على ذلك من فدية، ومن تركيز لنظام «الفتوة»[١٧] الذي شوّه فكرة الخير والإحسان فاختزلها في توفير ما تحتاجه الأجساد، والفقرَ فاختزله في فقدان المال. وقد انتهى هذا الوضع إلى انهيار بابوية الكهان الرومانية بمجرد أن كفّ نظام الفتوة عن أن يكون مصدراً لإيراداتها. لقد كان هناك تلازم بين نظام مؤسسة الكهانة الأمني العسكري ونظامها الأمني الاجتماعي من جهة، وسلطتها الدينية (محاكم التفتيش) وسلطتها الزمنية من جهة أخرى. الأمر نفسه ينطبق على الفاتحين **الكبار** الذين تزف ساعة نهايتهم بمجرد تخليهم عن انتهاك حرمة الأمم، فعَظَمتهم مرهونة بالهجوم السريع المباشر وبما يوفره لهم من مساحات. إنّ الحرب هي الهجوم، هي انتهاك مستمر للأرض المضيافة، هي اختراقها. ومرة أخرى وجب النظر من جديد إلى عدّاد السرعة في مركبات السباق وآليات القتال فائقة السرعة من جهة كونه مقياساً وجودياً لذات المحارب وسيلاناً هائلاً للزمن وضريبة للسرعة تُفرَض على كل متر يُطوى. إنّ السرعة تنهك ساكن الأرض [ليس في ذلك شك]، ولكنها تدمر في الآن نفسه حياة غازيها وتدني المنية لمن بقي على قيد الحياة. وباختصار فإن اختفاء من ظل على قيد الحياة يشبه التفاف الحلقة الطوبولوجية [في علم الرياضيات] Anneau topologique حول نفسها، إذ يظل رهين الإجابة التي يمكنه أن يواجه بها، في المكان والزمان، سؤال الإسكندر المقدوني وكذا معضلة الحدود لديه[١٨].

إن مآثر الغزاة تشبه في تصاعدها الأرقام القياسية التي يحطمها نظراؤهم الرياضيون، أولئك الأبطال الأولمبيون، إذ تطورت أرقامهم من الساعة إلى الدقيقة إلى الثانية إلى الجزء من الثانية، ولكن عظمة إنجازاتهم لا قيمة لها مهما ازدادت قوتهم واشتدت سرعتهم إلا بمساعدة الآلات الإلكترونية؛ ولهذا السبب سيختفي الأبطال يوماً ما عندما يبلغون منتهى مستطاعهم، ولا أدل على ذلك من العلاج البيولوجي الذي يخضعون له، والذي يذكّر بتلك

---

(١٧) نستعمل هذه العبارة ترجمة للعبارة الفرنسية protection sociale، ذلك أن هؤلاء الكهان كانوا يعرضون على الناس حمايتهم مقابل أتاوى، مثلما كان الأمر في ظاهرة الفتوة في تراثنا البعيد والقريب بالخصوص (المترجم).

(١٨) ربما نحن نكتشف ها هنا أحد الأسباب العميقة التي دفعت الأسبرطيين إلى رفض كل شكل من أشكال الحركة في إطار رفضهم الاحتفاظ بنظام ليكورجوس.

الطرائق الطبية الاصطناعية التي يخضع لها المُحتضر حتى يظل على قيد الحياة فترة ما. إن الآلة بالنسبة إلى المهووسين بالحركة هي بمثابة جراحة ترقيعية. وإنه لذو دلالة أن السيارات الصناعية الأولى ـ العربة العسكرية التي اخترعها جوزيف كينيوت Joseph Cugnot سنة ١٧٧١ أنموذجاً ـ كانت تشتغل بالبخار، وبدت بذلك كأنها تتقمص آخر صورة من الجسد الحيواني؛ لقد كانت نقطة التحوّل التاريخي من المركوب الحي إلى المركوب التكنولوجي، فإطلاقها البخار كان الزفرة الأخيرة كناية عن أفول القوة الحركية للأجسام الحيّة.

الفصل السابع

نهاية البروليتاريا

بإمكانك أن تطلق تمرداً بروليتارياً ولكن بشرط أن لا تعطي الجهة المقابلة الأمر بإطلاق النار.

فإذا واجهوك بكتيبتين من الدبابات فالثورة البروليتارية تذهب هباء.

أندري مالرو ـ مقابلات صحفية

مما لا شك فيه أنه لا توجد نقطة التقاء بين تطور علم السرعة وما اتُّفق على تسميته بالتطور الإنساني والاجتماعي، ولكن يوجد تزامن بينهما. ويمكننا تلخيص هذا المسار التطوري كما يلي:

١ ـ مجتمع بلا آلات تكنولوجية تلعب فيه المرأة دور الزوجة التي توفر الخدمات اللوجستية، فهي مصدر الحرب وهي أوّل عربة نقل.

٢ ـ العقلنة المبهمة للأجساد مسلوبة الإرادة باعتبارها مركبات حيّة.

٣ ـ سطوة السرعة والمركوبات التكنولوجية.

٤ ـ مقاومة المركوب الحي للمركوب التكنولوجي الأرضي وانهزامه أمامه.

ويمكننا منطقياً أن نتوّج هذا المسار بنقطة أخيرة هي:

٥ ـ نهاية دكتاتورية البروليتاريا ونهاية التاريخ بفعل حروب الوقت.

وبالعودة إلى تعريف كلّ من غوبلز وأنجلز لم يكن المناضل (الثوري ـ العامل أو غيره) الذي ظهر على مسرح الأحداث سوى صورة بائسة من البروليتاري ـ الجندي، فالبروليتارية العمالية ليست سوى صيغة من العسكرة، ولكنها صيغة مؤقتة.

في أوروبا، ومنذ سنة ١٩١٤، كفت القوة الحركية أي السياسية للبروليتاري عن الظهور في ميادين القتال، ومع ذلك كانت الحاجة إليها من أجل إعداد الحرب لاتزال قائمة؛ لقد أوهمتها الطبقة العسكرية، في إطار سعيها للتحكم بها، بإمكانية اجتياح القلعة البورجوازية والسيطرة عليها؛ في حين أن هذه القلعة قد خربت، إذ اخترقتها كلّ وسائل الاتصال السريعة (الراديو، الهاتف، التلفزة)؛ لقد حكم عليها حراسها القدامى بالخراب الفوري بفضل استراتيجية الحرب الشاملة المضادة للمدن. ومع ذلك فقد وقفنا لاحقاً في براغ وفرسوفيا وبيروت على حدود هذه **الإجازة العسكرية**. الأمر نفسه حصل أيضاً في باريس في أيار/مايو ٦٨ عندما أوشكت السلطة السياسية على استعمال الدبابات ضد المتظاهرين الذين استولوا على مسرح أوديون L' Odéon.

لذلك نفهم كيف أنّ فرنسا أطلقت في العشرينيات سياسة جديدة للرعاية الاجتماعية في الوقت الذي كان فيه «التهديد البلشفي» يمتد من ميونخ Munich إلى حدود الهند. كل ذلك حتّمته إعادة الانتشار اللوجستي الذي أنجزته الأمم العسكرية الصناعية في أوروبا وفي العالم. ومع ذلك يستغرب الواحد منا عندما يقرأ في الفقرة ١٣ من مقدمة معاهدة فرساي أن «ظروف حياة الطبقة العاملة غير منسجمة مع السلم في العالم». ولكي تكون هذه الفقرة أكثر اتساقاً وإفادة وجب إضافة العبارة التالية «... حفاظاً على توازن القوى العسكرية في العالم».

هذا هو التأليف المبتَدَع [بين العسكري والصناعي] الذي سيُبِين عنه جونكر Jünger لاحقاً بشكل محدود في كتابه «**العامل** ـ Der Arbeiter» الصادر سنة ١٩٣٢ (قدّم فيه صورة العامل وقد جمع في شخصه بين العسكري والصناعي). وسيعرف هذا الكتاب انتشاراً واسعاً، بل سيصبح في وقت وجيز برنامجاً سياسياً حقيقياً للأمة الألمانية.

وبالمثل، فإنّ «اتحاد القوى اليسارية» الفرنسي[1] هو مجرد خدعة بما

(١) المقصود بذلك التحالف الانتخابي الذي جمع بين سنتي ١٩٧٢ و١٩٧٧ «الحزب الاشتراكي» و«حركة اليسار الراديكالي» و«الحزب الشيوعي» على أساس برنامج حكومي موحد (المترجم).

أنه ما زال إلى اليوم مصرّاً على أن «يظل الجيشُ العددَ المجهول في المعادلة الاجتماعية» (والعبارة للجنرال كلوزارات Cluseret). وإحقاقاً للحق لم يكن هذا الاتحاد قوياً إلا بسبب صمته عن إثارة المسألة العسكرية. ولا مفر له، والحال تلك، من ترك مسألة الدفاع القومي للشيوعيين الذين يتبنون النموذج الماركسي للبروليتارية العسكرية، يتصارعون حولها مع الراديكاليين والاشتراكيين الذين تبنوا منذ حركة أيار/مايو ٦٨ اشتراكية «ذات بعد إنساني» قادرة على حشد ناخبين جدد، خصوصاً في صفوف الجمهور غير المسيّس. ولقد تكفّل جنرالات «حركة القوى المسلحة» (M.F.A) البرتغالية بالإعلان عن «نهاية دكتاتورية البروليتاريا» في أوروبا الجنوبية. ولا ينبغي علينا أن نرى في ما حدث بُشرى كما سيقول لاحقاً الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي جورج مارشي Georges Marchais زاعماً أن في ذلك تخفيفاً من الغلو الإيديولوجي، فـ «عبارة دكتاتورية لها وقع سيئ في الأسماع منذ التجربة الفاشية»، كما قال، فمن غير الجائز أن نضفي نعوتاً إنسانية غير مستحقة على أولئك القادة العسكريين البرتغاليين وقد عادوا إلى بلادهم بعد أن قادوا حملات قمع دموية في المستعمرات. وبالفعل فإنّ دكتاتورية البروليتاريا استعادت، مع هؤلاء الجنرالات الماركسيين الذين امتدحهم الكاتب البرتغالي كونهال Cunhal، معناها العسكري الأصلي. لقد أدركوا بحسّهم العسكري أنّ الأزمنة التي كانت فيها الطاقة الحركية للبروليتاري تستأثر بالحياة السياسية بعد أن استأثرت بساحات القتال قد ولّت، تلك الأزمنة التي وجدت فيها الطبقة العمالية نفسها فجأة، كما يقول لينين، موضوع اهتمام واستمالة للرأسماليين أنفسهم. وانطلاقاً من تلك اللحظة سيفقد الجسد الحيواني للبروليتاري قيمته كما حصل قبله مع الأنواع الأخرى من الأجساد المدجنة. فنهاية دكتاتورية البروليتاريا ليست سوى الصيغة الشيوعية لقرارات الجيش الفرنسي، من ذلك مثلاً إلغاؤه للجنة الفرز Conseil de révision[٢] (قانون ٩ تموز/يوليو ١٩٧٠)، ولقرارات الـ «اللجنة الثلاثية» الليبرالية سنة ١٩٧٥ حول أزمة الديمقراطية [التي جاء فيها]: «لقد توصلنا إلى إقرار أنه إذا كانت هناك حدود محتملة ومقبولة للتطور الاقتصادي وجب علينا التسليم [في

(٢) لجنة الفرز هي لجنة عسكرية مهمتها النظر في مدى أهلية المتقدمين لأداء الخدمة العسكرية (المترجم).

الآن نفسه] بوجود حدود محتملة ومقبولة للتمدد الديمقراطي اللانهائي». إن أزمة الديمقراطيات الليبرالية تشي بنهاية ضرب من ضروب تعبئة المواطنين، فقد استغنت الكتلتان الإيديولوجيتان [الليبرالية والشيوعية] في نفس الوقت عن الصورة التاريخية الجوهرية المزعومة للمنتج المستغل، فلا حاجة بعد اليوم في العالم الرأسمالي للبروليتاري/العامل ولا للمستهلك/المنتج. لقد كانت التجربة الثورية لـ «حركة القوى المسلحة» في هذا المجال نموذجية، إذ زعمت أنها ارتقت بمجمل قوى اليسار البرتغالي درجة حتى تكون في مستوى «تمدن الجيش». وهكذا اعتبر النقيب البحري كورّيا جوسوينو Correia Jesuino ـ بعد أن صار «وزيراً للتواصل الاجتماعي» سنة ١٩٧٥ (وبالمناسبة نذكّر بظاهرة البروليتاريا البحرية التي نشأت مع م. دي فالبال M. de Valbelle، نقيب القوادس السابق في ظل حكم لويس الرابع عشر) ـ الضباط «اليساريين» «باحثين أتنولوجيين بصدد دراسة شعب بدائي»، فالشعب البرتغالي بالنسبة إليه شعب متخلف. وقد شكك ج. ف ريفال J.F. Revel، الذي دوّن هذا الحديث على صفحات جريدة **الإكسبراس** *L'Express* (بتاريخ ١٤ نيسان/أبريل ١٩٧٥)، في تخلف الشعب البرتغالي بعد أن بيّن أنّ متوسط دخل المواطن البرتغالي يساوي متوسط دخل المواطن الفرنسي في مقاطعة بروتانيا Bretagne أو في بلاد الغال. وبالفعل كل ذلك لا يمكن تفسيره اعتماداً على معطيات اقتصادية ودون تسليط الضوء على هذا الفكر العسكري المرتكز إلى سلطة السرعة والعاكف على مراجعة دور الأفراد ضمن مجمل عمل الدولة والتعامل معه على أنه يمثل إشكالاً. وبالمثل فإذا كانت المسألة النووية قد تسببت سنة ١٩٧٧ في انفراط عقد «اتحاد القوى اليسارية» فإنّ ذلك لم يكن بسبب القوة التدميرية للقنبلة النووية بقدر ما كان بسبب **الرافعة السياسية للسلطة النووية الجديدة. ومن الناحية المنطقية فقد عدّل السلاح النووي من الدساتير السياسية للدول، ولكن دون أن نتفطن إلى ذلك**، فقد قال أحد رجال القانون: «علينا أن نعترف أن السلاح النووي قد شكّل بتحويره لدساتيرنا الحالية مصدراً [من مصادر] القانون الدستوري». وهنا أيضاً، وفي موضوع الردع، فإنّ انفجار القنبلة النووية الفعلي لا يؤرق صانع القرار، الذي هو رئيس الدولة والقائد العام للقوات المسلحة، الضامن لسلامة التراب الوطني، ولا كذلك المسائل التي يثيرها الفصلان ٥ و١٥ من دستور ١٩٥٨

الفرنسي. إنّ سرعة اتخاذ القرار السياسي مرهونة بمدى استحكام وسائل النقل العسكري: كيف ننقل القنبلة الذرية؟ وبأية سرعة؟ إنها بالتأكيد قنبلة سياسية كما يحلو لهم القول؛ ولكن ليس لأنها لن تنفجر أبداً، بل لكونها أقصى تمظهرات إدارة المراقبة المرورية العسكرية.

إن البورجوازية السياسية وكذا الأحزاب «الثورية» التي انتشت بطول مدةّ تعايشها وبوفرة مناصب الشغل وبِوَهم اطراد النمو، إنّما يصدق عليها المثل الأوروبي القائل: «فما تصنع بالسيف إن لم تكن قتّالاً»[٣]. وهكذا **يتوجب** على الثورة البروليتارية أن تمر من هنا فصاعداً عبر ثورات المؤسسة العسكرية صلب الجهاز الدستوري للدولة؛ ومصداقاً لذلك لم تعد الأحزاب السياسية هي الفاعل المهيمن [على الساحة السياسية]، بل تركت زمام المبادرة في السنوات الأخيرة بيد الجيش والنقابات، بما فيها النقابات العسكرية. ومن المفيد أن نلاحظ هنا الصبغة الكونية لهذه الأحداث، ففي فرنسا انبرت «الكونفدرالية الفرنسية الديمقراطية للعمل» C.F.D.T للدفاع عن العمل النقابي مقترحة إنشاء «مجالس عامة للجيش»، وفي الفترة نفسها عبرت المركزية النقابية الشهيرة بالولايات المتحدة الأمريكية (الكونفدرالية الأمريكية للعمل ـ مجلس المنظمات الصناعية A.F.L-C.I.O) عن استعدادها لضم النقابات العسكرية إلى صفوفها. إننا إزاء شيء مهم يحدث ولكن لا أحد يشير إليه: إنه الحوار غير الحزبي الناشئ في أرجاء المعمورة بين قوى العمل والطبقة العسكرية، [والنتيجة أننا] سنشهد على المدى القريب «لَيْتَنَةً» Latinisation لأوروبا شبيهة بتلك التي عرفتها قارة أمريكا الجنوبية. وإنّ التصريح الأخير للجنرال فارغاس برياتو Vargas Prieto «أحد أكثر قادة الجيش البيروفي كفاءة وتقدمية» (جريدة **لوموند** *Le Monde*، ٤ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٧٥) والقائل إنّ «القوات المسلحة هي الطليعة الحقيقية للثورة البيروفية، **وهي الجوهر الأصيل المؤسس للشعب لأنها ابنة هذا الشعب**»، يدفعنا إلى أن ندرك أننا إزاء نكوص إلى مرحلة سابقة للماركسية السياسية، مرحلة نفي القوى الثورية البروليتارية للدولة ـ المدينة.

---

(٣) نقترح هذا المثل مقابلاً للمثل الفرنسي:

«On peut tout faire avec une baïonnette sauf s'asseoir dessus».

أعلنت جريدة **لوموند** في شهر آب/أغسطس ١٩٧٧ أن الجنرال بينوشي Pinochet حلّ جهاز البوليس السياسي (إدارة الاستخبارات الوطنية DINA) وعوضه ببوليس عسكري. هكذا تتوضح الأمور إذاً؛ فنحن نشهد حقاً نهاية الدولة الديمقراطية الرشيدة، وذلك بانخراطها في مسار لا سياسي تصدرته النقابات والجماعات الأشد تنوعاً والأقل «اجتماعية». إن الأمر آيل إلى انفجار أساليب الإنتاج القومي وإلى فردانية العمل النقابي، كما هي الحال في الولايات المتحدة الأمريكية على سبيل المثال، حيث لا يرتبط العمل البشري بالإنتاجية قدر ارتباطه بلعبة المصالح في سوق اليد العاملة. ولقد أباح هذا الوضع مُعزّزاً بانخرام وحدة العمل السياسي أقصى ما يمكن تخيله من الأعمال توحشاً وعشوائية لأجل أن تحفظ الدول السياسية القديمة وجودها، لا غير. إن نهاية الديمقراطية في تشيلي كانت بتخطيط وكالة المخابرات المركزية الأمريكية C.I.A وترتيبها من جهة، وبالضغط الذي مارسته نقابات النقل والاتصالات... إلخ على منظومة إدارة المرور من جهة ثانية. ولكن ماذا عن الوضع المتأزم في القلاع الحضرية القديمة: نيويورك أو مونتريال؟ لقد سعت النقابات هناك، ومن بعدها المجموعات الإجرامية، إلى أن تحلّ بشكل كامل محلّ الإدارة وأن تعوّض الخدمات التي كان يسديها المشغّل البورجوازي القديم؛ لذلك ساد الأمن في منطقة برونكس Bronx بنيويورك بفضل المافيا التي بدأت تنتشر في كافة أرجاء العالم، وهي تسعى حالياً إلى التنسيق المباشر مع الطبقة العسكرية؛ هذا ما كشفت عنه مؤخراً فضيحة الاتصالات المرصودة بين جنرالات إسرائيليين وأعضاء من عصابات دولية. إن الأمر أبعد من أن يكون لعبة سياسية عسكرية عابرة للحدود غير آبهة بالاستقرار الحضري الوطني بكل أشكاله أو بغيره، إنّما هو إعادة اعتبار مخصوص للأعمال المحلية التي يقوم بها صغار المجرمين وكبرى التنظيمات الإجرامية.

وشيئاً فشيئاً انفصلت الطبقة العسكرية عن شريكها البورجوازي وتخلت عن مهامها القديمة في موضعَيها الطبيعيين: الشارع والطريق، لتشتغل «فُتوّة» تحمي المؤسسات الصغرى والمتوسطة. لقد سعت نقابات مدينة نيويورك إلى أن تستعيض عن النشاط الإنتاجي لمنتسبيها بالاكتفاء بإدارة الأزمة فتحوّل أعضاؤها إلى إداريين ومصرفيين. وفي إيطاليا توالت جرائم القتل وحوادث

الاختطاف، ونتج عن ذلك عدم القدرة على التمييز بين الأموال التي يغنمها المجرمون وتلك التي تغنمها مجموعات صغيرة تنعت نفسها بالثورية، وبذلك دخلت العدالة في أزمة؛ فهذه المجموعات تشنف أسماعنا بالحديث عن تحرير الشعب وفي الآن نفسه تسطو على المليارات، والنتيجة أنّ الرأي العام اغتاظ لهذا الخلط. ولكن الحقيقة أن استحكام هذا الإجرام النابع من جمهور الشعب ليس سوى **مطلب سياسي** سقط في المحظور لأن الإيثيولوجيا éthologie الوطنية القديمة ـ المُثل الاجتماعية ـ أضحت ثانوية وفقدت قدرتها على التعبئة.

وعلى هذا الأساس يمكننا فهم الزيارات المفاجئة التي أداها الزعماء السياسيون من أمثال السيّدين مارشي Marchais وشوفانمون Chevènement إلى العمال في مكاتبهم ومعاملهم لا على أنها استفزاز لأصحاب المعامل أو للسلطة الحاكمة، بل على أنها محاولات غير معلنة عمد إليها ممثلو الإيديولوجيات الثورية المفوّتة لاستعادة زمام القاعدة العمالية. وإذا كان الحزب الشيوعي البرتغالي قد فشل فشلاً ذريعاً في محاولاته الانتهازية المتكررة للتقرب من قادة العسكر فإن الحزب الشيوعي الفرنسي قد تبنى أو كاد، بعد فترة تردد، الحلول الإيطالية الجريئة التي اعتمدها السيد برلنغوير Berlinguer، وقد انبنت على فكرة «التسوية التاريخية» الشهيرة[٤] التي لم تكن في الحقيقة سوى تعبير عن آخر محاولة يائسة من الأحزاب التقليدية للتوحد في مواجهة خطر الانقراض الصريح الذي يتهددها من الداخل والخارج.

في فرنسا، وفي الوقت الذي كان السعي فيه حثيثاً لإلهاء الجمهور بقضايا استراتيجية واجتماعية بالية، كان الجيش ينشر موظفيه في المواقع الرئيسية للأنشطة المدنية ويضاعف عدد أفراد الشرطة في المهمات المرتبطة بإدارة المرور؛ ومن ثمّة فقد انحصر عمل البروليتاري/العسكري مذ ذاك فصاعداً في مراقبة الطرقات والمطارات، في جمع القمامة من الشوارع (حيث كان بعض رجال السياسة موضع سخرية شأن عمدة مدينة نيويورك البائس عضو الحزب الديمقراطي أبراهام بيم Abraham Beame)، وفي مجال

(٤) إشارة إلى تسوية الخلافات السياسية بين الحزب الديمقراطي المسيحي الإيطالي والحزب الشيوعي الإيطالي في السبعينيات (المترجم).

الاتصالات والإسعاف. ومن حين لآخر يُتكرّم عليه ببعض الأعمال «النبيلة»، مثل مكافحة التلوث وحماية المواقع والبحوث الطبية حول مرض السرطان، أو تنظيم عديد المهرجانات الرياضية والثقافية (إشراف الجيش الفرنسي على مهرجان تويلوري Tuilerie ومعرض الأطفال)، أو إنشاء شركات عالمية ضخمة، أو إنقاذ أطفال في جمهورية بيافرا Biafra[٥]، أو تركيز وحدات طبية جراحية استعجالية في المناطق التي اجتاحتها الكوارث الطبيعية... وبلغت هذه الأعمال ذروتها بـ «تحرير» مجموعة من الرهائن في مطار عنتيبي بأوغندا[٦]. وفعلاً، ففي ظل انعدام الأمن الاجتماعي وفي ظل مجتمعات بشرية نُعتت بإسهاب بأنها مجتمعات إجرامية، ينجُم الجيش كقوة حماية وملجأ لمواجهة نهب الشركات الجشعة. إن الجيش لم ينفك بعد من الضحك على ذقون «مناوئي العسكرة» الذين تعوزهم المعلومات والدراسات حول قوّته الديناميكية.

مثلت **عملية ديميتير** Déméter (سمّيت باسم آلهة الأرض عند الإغريق) ردّ الجيش الفرنسي على التظاهرات البيئية في هضبة لارزاك Larzac[٧] وعلى الأحداث الأليمة بمالفيل Malville[٨]. فلولا أنّ تظاهرات أهالي هضبة لارزاك عملت، وإن اتفاقاً، على تجريد الجيش وقادته من وظيفتهم الأساسية، أي من سلطة الغزو، لما أطلقوا على هذه العملية اسم ديميتير، ولما برزوا في صورة أسياد كوكب الأرض ومحتليه، ولما اغتصبوا الحقول وخرّبوها. ولكن ما الذي دفع «أصدقاء الأرض»[٩] في تلك اللحظة إلى أن يفكوا ارتباطهم بها وأن يتقاعسوا عن الدفاع عنها؟ للإجابة عن السؤال يجدر بنا التوقف عند المفردات التي استعملها الصحافي جاك إزنارد Jacques Isnard

---

(٥) هي جمهورية انفصلت عن نيجيريا سنة ١٩٦٧ وأنهت انفصالها سنة ١٩٧٠ (المترجم).

(٦) يشير المؤلف هنا إلى العملية التي قام بها الجيش الصهيوني يوم ٤ تموز/ يوليو ١٩٧٦ لتحرير ركاب طائرة الخطوط الجوية الفرنسية التي اختطفها فدائيون فلسطينيون وكان على متنها ركاب صهاينة (المترجم).

(٧) عرفت هضبة لارزاك الفرنسية حركة عصيان مدني قادها سكان المنطقة بمساندة قوى سياسية ونقابية، ودامت من ١٩٧١ إلى ١٩٨١، رفضاً لانتزاع أراضيهم من قبل الجيش لتوسيع قاعدة عسكرية، ولم ينتهِ العصيان إلا بعد تراجع الجيش عن مشروعه (المترجم).

(٨) يشير المؤلف إلى المظاهرة الكبيرة التي نُظّمت في المدينة يوم ٣١ تموز/ يوليو ١٩٧٧ ضد مشروع لبناء محطة نووية بالمنطقة، وقد تم قمعها بعنف (المترجم).

(٩) جمعية فرنسية لحماية الإنسان والبيئة تأسست سنة ١٩٧٠ (المترجم).

في مقاله بجريدة **لوموند** بتاريخ ٩ أيلول/سبتمبر ١٩٧٧، حيث كتب ما يلي: «نظّم جيش **البر** في الفترة الممتدة بين موسم الحصاد وانطلاق موسم الصيد في المنطقة الفاصلة بين بوس Beauce وبارش Perche أولى مناوراته الجادة على **أرض فسيحة بعيداً عن الطرقات السيارة والسبل الريفية** وعلى مساحة تمسح ألفي كلم٢ من الأراضي الزراعية والمراعي». لقد أنجز الجنود «مناورات فرجوية» في سبيل ربط **علاقات حسن جوار بين الجيش والمواطنين**. ومصداقاً لذلك قبل الفلاحون، دون استياء يذكر، عملية ديميتير، وهم الذين لم ينسوا المساعدات التي قدمها لهم الجيش في السنة الماضية عندما عمّ الجفاف أراضيهم. ولقد أسرّ الكونيل روشيغوند Rochegonde قائد اللواء الثاني المحمول: «إنّ الآلهة ديميتير معنا»، وقال آخر: «لسنا سوى **قيّمين** على سلامة الأمن الوطني، وبهذه الصفة نحن مسؤولون عمّا نفعل». «ومن أوجه استفادة الجيش من تنظيم هذه المناورات في أرض فسيحة إرسال لواء مسافة خمسين كلم بعيداً عن قاعدته في مهمات استطلاعية هجومية ولإرساء **علاقات عامة** [مع أهالي] مقاطعة أور ـ لوار Eure-et-Loir». [وهكذا أنهى الجيش عمليته الشهيرة ولسان حاله يقول]: «إننا لا نزج بأرباب سلطة السرعة في المعتقلات أو في المحتشدات حتى لو كانت في لارزاك».

لقد قضى معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني بالاشتراك مع مختصين في الدعاية ستة أشهر في إعداد حملة تستمر ثلاث سنوات (بكلفة ستين مليون فرنك فرنسي) تهدف إلى توعية الشعب بقيمتَي الدفاع والحماية. وقد تمّ التوسل في هذه الحملة بكل أساليب التواصل الممكنة بغية تغيير الصورة المميزة للجيش (جريدة **لوموند** بتاريخ ٩ أيار/مايو ١٩٧٥)، الشيء الذي دفع السيد جوّال ليتول Joël le Theule النائب عن حزب «اتحاد الديمقراطيين من أجل الجمهورية» U.D.R، وبصفته رئيس لجنة المالية، إلى أن يبدي في مذكرته حول «ميزانية الجيش للفترة ١٩٧٧ ـ ١٩٨٢» انشغاله المشروع بـ «غياب إحصائيات حول استخدام الموارد المالية»؛ فهذا **الغموض** لا يساعد على تثمين التغيرات التي أدخلناها على سياستنا الدفاعية. . فالجيش متمسك باستعادة استقلاليته في ما يتخذه من إجراءات وبتقديم نفسه على أنه **مرفق عام قادر على أن يؤمّن في كنف النظام والأمن** أكبر قسط ممكن من الخدمات

المدنية والعسكرية، ولمَ لا كلّها. وهو بذلك يضاعف مشاريعه الاجتماعية والصناعية في إطار مبادراته الموازية. وهكذا نتبيّن الآن بوضوح كيف أن المطالب النقابية العسكرية التي رفعتها الرابطة الشيوعية أو الحزب الاشتراكي الموحد P.S.U أو الكونفدرالية الفرنسية الديمقراطية للعمل C.F.D.T، تمثل جزءاً من برنامج العمل الاجتماعي للجيش على الرغم من تفاهتها. وإنه لذو دلالة أن يتأسس أول فرع نقابي [عسكري] داخل الوحدة التاسعة عشرة لسلاح الهندسة، تلك حجة على أن هذه الوحدة تظل بمقياس الفكر العسكري الثوري وحدة طليعية.

عندما زار بلزاك Balzac بعد سنة ١٨٣٠ ميدان معركة فاغرام Wagram، **سعياً منه إلى توسيع نطاق تحاليله الاجتماعية، تساءل عن المجال الحقيقي للمعنى التاريخي**، هذا المجال الاستراتيجي الذي أضحى فجأة، بفضل تطور وسائل الاتصال (استعمال التلغراف مثلاً)، مجالاً شاملاً نظراً إلى أنّ الأحداث المحلية والعالمية يؤثر بعضها في بعض بصفة فورية. ولمواجهة الضغوط المادية المتأتية من ميدان المعركة تم إحداث هيكل «البوليس السري» الجديد، الذي اعتبره بلزاك أهم ثورة اجتماعية في زمانه؛ لأن استحداثه أعقب مرحلة طويلة من القمع الدموي الصارخ مارسه «جيش الثورة الفرنسية» ضد المدنيين. حينئذ لم يعد القمع الذي يمارسه الجيش مرئياً بالضرورة، إذ أصبح يرتكز على أساليب مراقبة ورصد متطورة. لقد كان لهذه المحاولات الأولى للاختراق أو «الغزو» المستتر للجسم الاجتماعي هدفٌ محدد، كنّا قد أشرنا إليه سابقاً، ألا وهو استغلال القوات العسكرية لطاقات الأمة الخام (قدراتها الصناعية والاقتصادية والديمغرافية والثقافية والعلمية والسياسية والأخلاقية...). ومذ ذاك ارتبط اختراق المجتمع بالتطور الهائل لتقنيات الاختراق العسكرية؛ فكلما حصل تطوّر في الوسائل والمعدات طوينا مرحلة من الطريق نحو التلاحم بين الجيش والحضارة.

عندما قدّمت الفاشية نفسها على أنها Ostkolonisation، أي أنها تروم خلق حالة استعمارية ومن ثم تعميمها على القارة الأوروبية، زاعمة أنّ هدفها هو الإطاحة بالمجموعات الاجتماعية والسياسية القائمة، فقد كشفت بذلك عن أنّ سلطة السرعة الشمولية التي انبجست أثناء الحرب العالمية الأولى بفضل المجهود اللوجستي غير المسبوق الذي بُذل [آنذاك] قد عرفت زخماً

كبيراً بترددها ذهاباً وإياباً بين الحواضر والمستعمرات. وهذا الزخم هو الذي حقق وحدة الحضارة الغربية الأصيلة في العشرينيات. في هذا السياق عرّف وزير المستعمرات الفرنسي السيد ألبرت سروّت Albert Sarraut سنة ١٩٢١ هذه الوحدة بكونها «الارتباط بين الحركة الاستعمارية والحياة الوطنية لأجل حلّ المشاكل الخطيرة التي سيولّدها مستقبلاً تطوّر الإنسانية». إنّ إعادة قراءة **القانون الأسود** من الميثاق الاستعماري أجدى من أي بحث سوسيولوجي يدّعي فهماً سليماً لمجتمعات السرعة وكيفية نشأتها؛ فقد كتب كولبارت: «لا ينبغي أن تنشأ في المستعمرات **حضارة راسخة**». هذا التشريع القديم ظل قائماً في مستعمراتنا إلى سنة ١٨٤٨، وبموجبه كان الزنجي يُعتبر **بضاعة قابلة لأن تُنقل** من مكان إلى آخر، وبالنتيجة انحصر وجوده القانوني في صفته كبضاعة منقولة. أمّا الثقافة السائدة اليوم في أمريكا فتذكرنا بانتشار موسيقى الجاز الزنجية بعد الحرب العالمية الأولى، وكذا تلك الحركة الهائجة التي أظهرها أول فيلم ناطق، حيث تم طلاء وجه ممثلة بيضاء باللون الأسود ومن ثمة تطويعها لتكون على هيئة العبد ـ البضاعة. كل ذلك يذكرنا بحكمة بالدوين Baldwin العميقة: «غداً ستصبحون كلكم زنوجاً».

وبالفعل، فمنذ البدء لم تتوفر الإيديولوجيا الأمريكية على مقياس للمقارنة بين قيمة الرسائل المرسلة والمجهود المبذول المطلوب لنقلها. في الولايات المتحدة الأمريكية تبدو طرق نشر الرسالة أكثر أهمية من محتواها، فهذه الطرق هي أدوات ضرورية تحتاجها [أولاً] لعلاقاتها البحرية مع حواضر أوروبا و[ثانياً] لعلاقاتها مع إفريقيا، منجم اليد العاملة، و[أخيراً] هي تحتاجها لإرساء نوع من مركزية الدولة فوق مجال واسع يقتضي حكمه أن تخترقه أولاً ثم تتواصل معه ثانياً. تشكل وسائل الاتصال الأدوات المفضلة في الولايات المتحدة الأمريكية، فهي وحدها القادرة على كبح جماح الفوضى الاجتماعية للإنسانية الأمريكية، وهي الضامن لشيء من التماسك المدني، أي السلم المدني نفسه. وعلى العكس مما هو منتظر فإنّ الديمقراطية الأمريكية لم تبذل، خلافاً للنموذج الاستعماري القديم، أي جهد ملموس لصهر الأقليات الإثنية والطوائف الدينية ضمن حضارة راسخة وضمن نمط عيش اجتماعي مشترك حقيقي، ذلك أنّ نظام التفرقة هو الذي يسوّغ هيمنة الفلسفة الإعلامية التي تستند إليها طبيعة سلطة الدولة الأمريكية.

إننا إزاء أحد أسباب نشأة العنصرية القديمة واستمرارها لدى **مواطني** أمريكا الحرة **الصالحين**. وسوف نلاحظ كذلك أن الاضطرابات الكبيرة التي عاشتها أمريكا في الداخل وفي الخارج مرتبطة بشكل مباشر بوقائع مرتبطة بالسرعة، أي بتقنيات الاختراق والإرسال؛ والأمثلة كثيرة، فمنها أن سبب كارثة بيرل هاربر Pearl-Harbour[١٠] هو تأخر وصول رسالة لاسلكية، ومنها أن فضيحة ووترغيت Watergate ارتبطت بأجهزة تنصت، ومنها مقتل كيندي. ويعدّ فيلم «**المواطن كين** *Citizen Kane*» المنتوج الأكثر تمثيلاً للثقافة المدنية الأمريكية (وقد أُدرج فيما بعد ضمن تيار «الثقافة الشعبية» Pop-Culture)[١١]، فالشخصية الحقيقية التي ألهمت مخرجه أورسن والز Orson Welles لم تكن شخصية وليام راندولف هيرست William Randolph Hearts إمبراطور الصحافة، بقدر ما كانت شخصية هاوارد هيوجس Howard Hughes المواطن الخفي[١٢]؛ فهيرست وفّر المعلومة، أما هيوجس فقد اكتفى بالنظر دون تمييز في ما وفرته المعلومة؛ إنه الوحيد الذي نقد جذرياً نظريات العولمة التي أطلقها فوللر Fuller وماك لوهان Mac Luhan. هذا الرجل الذي فقد كل روابطه الاجتماعية واختفى من على وجه الأرض، وكان يتجنب الاختلاط بالناس خوفاً من الأمراض المعدية، بل وترعبه أنفاس عائديه على قلّتهم، ولم يكن يهتم سوى بعالم الإعلام من صناعة الطيران إلى السينما، ومن البنزين إلى المطارات، ومن الكازينوهات إلى صناعة النجوم السينمائية، ومن تصميم حمالة صدر الممثلة جين روسال Jane Russel إلى تصميم طائرة مقنبلة. إن حياته تعدّ نموذجاً يُحتذى. لم يتعلق هواه بغير الحمّالات والناقلات[١٣]، فحياته كانت

---

(١٠) يشير المؤلف هنا إلى الهجوم المباغت الذي نفذته البحرية الإمبراطورية اليابانية يوم ٧ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤١ على الأسطول الأمريكي بقاعدة بيرل هاربر بجزر هاواي. وقد خلف الهجوم خسائر فادحة في صفوف الأمريكيين (المترجم).

(١١) هو تيار فني وموسيقي احتجاجي ظهر في أواخر الخمسينيات (المترجم).

(١٢) يحيل المؤلف هنا إلى الخلاف الحاصل بين نقاد الفيلم، فقسم منهم يرى أن الفيلم هو استلهام لحياة إمبراطور الصحافة وليام راندولف هيرست، في حين يرى قسم آخر أنه استلهام لحياة المليونير هاوارد هيوجس، خصوصاً أن هذا الأخير قد أصبح بعد بضع سنوات من عرض الفيلم مالكاً للشركة التي أنتجته (المترجم).

(١٣) أي لكل ما يحمل شيئاً مثل حمالة الصدر (حمل ثديي المرأة)، والطائرة (حمل الركاب والقنابل)، والمطار (حمل الطائرات)... إلخ؛ أمّا الناقلات فبمعنى كل شيء يتحرك وينتقل من مكان إلى آخر مثل السينما التي تنقل المشاهد التمثيلية، وكذا الكازينوهات حيث حركة الجسد تنقل الشخص من حال إلى حال (المترجم).

ضرباً متواصلاً في الأرض وصورة مصغرة لما عاشته هذه الأمة الأمريكية القوية، التي يعشقها، على مدى قرنين من الزمن، ولا شيء غير ذلك يحرك أحاسيسه. وقد انتهى به الأمر أن مات في طائرته معانقاً السماء.

وبالمثل فإنّ الأساليب التجارية الأمريكية هي التي استحوذت على السوق في أوروبا إبّان الحرب العالمية الأولى، وذلك بفضل الأبعاد اللوجستية غير المسبوقة التي اقتضتها الحرب. وإذ ذاك ربحت الولايات المتحدة الأمريكية واحدة من أولى حروب النفط في القارة الأوروبية، فقد استولت شركة ستاندارد أويل Standard Oil لإنتاج النفط ونقله وتكريره وتسويقه على السوق الفرنسية، مجبرة جيشنا على التوجه نحو ساحات القتال وليس بحوزته سوى أربعمئة صهريج من الوقود، في حين كان بحوزة الأمريكيين أكثر من عشرين ألف صهريج. ومرة أخرى يتأكد أن وسائل نقل البضاعة هي التي صنعت الأسواق وليست البضاعة في حد ذاتها.

ومن المهم أن نلاحظ، وقد انتهت الحرب وعاد السلام إلى أوروبا، تراجع هيمنة الأمريكيين على الأسواق الأوروبية، وخصوصاً على السوق الفرنسية، حيث بدت شركاتهم عاجزة عن تسويق منتجاتها «فارتكبت أثناء حملاتها الإشهارية أخطاء مستهجنة في فهم نفسية الفرنسيين». والخلاصة أن الثقافة الأوروبية نجحت في مقاومة هيمنة ثقافة الولايات المتحدة الأمريكية. وستحاول الحكومات الشمولية لاحقاً استخدام حوامل ثقافية مشابهة [لتلك التي استخدمها الأمريكيون]، ولكنها ظلت في الغالب حبيسة الثقافة النخبوية وحبيسة العادة، إذ ما لبثت تولي الأهمية للرسالة على حساب حواملها. ولمّا استعملت هذه الحكومات الدعاية الإيديولوجية لم تعانق قمة المقدرة اللوجستية الأمريكية التي «لم تختزل» كلّ أمريكا في وطن واحد إلا بشق الأنفس. [ولكن الأمر لن يدوم] فستتدفق البضائع الأمريكية لاحقاً على أوروبا بعد انتهاء الحرب الشاملة، أي بعد التحطيم الواسع للشخصية الأوروبية (فالحرب الشاملة هي مثل الحرب الاستعمارية حرب إبادة للحضارات الراسخة)، وحينئذ لم يفقه الأوروبيون كنه تلك الأدوات والبضائع التي تدفقت عليهم على ظهر **سفن الحرية** Liberty ship[١٤] فقد كانوا

(١٤) هي سفن البضائع التي صنعتها الولايات المتحدة الأمريكية (وتعد ٢٧١٠ سفينة) أثناء =

أسرى للدلالات الجمالية والوظيفية وغيرها من الدلالات، نظراً للأجواء التي خلقتها تلك السيارات الضخمة، ولتلك الوفرة من الأدوات المنزلية التي ترصّف في المطابخ ذات الألوان البراقة، ولكن لا يطبخ فيها طعام، إذ يجد أصحابها في الساندويتشات والمعلبات ما يسدّون به جوعهم. «كل هذا المشهد الذي يعرض لموضوعية بلا ذات مفكرة يجعل مفهوم الوعي نفسه بلا قيمة»، وهو إلى ذلك مسخ لمجمل وسائل التواصل الطبيعية التي تؤسس فنّ التبادل والاتصال [بين الشعوب]، واستيلاء غير شرعي عليها اعتماداً على قوانين تقنية مرتبطة مباشرة بأساليب الإنتاج.

تتعانق حركات الجسد والروح وتتحقق بشكل مدهش في الثقافة الشعبية الأمريكية؛ فالجسد مسلوب الإرادة هو جسد مسنود بأعضاء اصطناعية. وبخصوص الولايات المتحدة فإننا نصنع جميلاً عندما نذكّر بالمعنى الأصلي لكلمة «comfort» (رفاهية) الذي ينحدر من الكلمة الفرنسية القديمة «assistance» (رعاية): إنه معنى يحيل على طقوس القربان البشري القديمة، حيث كانت الأجساد تُذبح ثم تُلقى في الطبيعة. ولقد فتحت عملية تحرير وسائل الإعلام[١٥]، التي أُطلقت بداية من العشرينيات، الباب أمام ما سمّي آنذاك بـ «حرب السوق المحلية»، متمثلة في حملة إيديولوجية مكثفة استهدفت رأساً مختلف أصناف العائلات، زاعمةً لمّ شملها، ولمَ لا إعادة تشكيلها حتى تكون «فاغرة فاها على الدوام للبضائع الاستهلاكية». وستؤدي هذه الحملة الإيديولوجية سريعاً إلى عملية تدجين حقيقية للمواطن الأمريكي. ومما هو لافت للنظر أن حكومة الولايات المتحدة الأمريكية لم ترَ من الضروري إنشاء نظام حقيقي للرعاية الاجتماعية فوق أراضيها، فقد كانت على اقتناع في تلك الفترة بأن ترويج ثقافة **الرفاهية** ذات المنزعين الأبوي والإنساني كفيل بتعويض الرعاية الاجتماعية، وذلك بفضل **المعاضدة التقنية** التي توفرها هذه الحضارة للفرد بدءاً بالروبوتات المنزلية وانتهاء بآخر أصناف السيارات مروراً بتركيز العيادات النفسية في مواطن الشغل. ولا يختلف

= الحرب العالمية الثانية لتوفير المعدات العسكرية واللوجستية لحلفائها في أوروبا. وبنهاية الحرب لعبت هذه السفن دوراً بارزاً في تزويد أوروبا بما تحتاجه من غذاء وأدوات البناء (المترجم).

(١٥) Daniel Crivelli, *La Fin de la crise* (Paris: Editions Bossard, 1932).

الثقافة ما قبل الثقافة الشعبية والثقافة الأوروبية.

الوضع اليوم كثيراً عن الأمس في هذا البلد، حيث أينعت مشاعر ودّ تجاه الأجساد البيو ـ تقنية، تلك الظاهرة التي أحيتها المدرسة المستقبلية الفاشية عندما عرضت تعويض بعض أعضاء الجسم البشري الطبيعية بأخرى صناعية من شأنها أن تخلق أبطالاً يحققون إنجازات خارقة.. ولكن سياسة الرفاهية هذه استُعيض عنها بسياسة **المنزلة الاجتماعية الرفيعة** Standing، فألفى الفرد نفسه فجأة منتهك العرض أمام جيرانه، مجبراً على أن ينسج على منوال المستهلك الأمريكي ذي المنزلة الاجتماعية الرفيعة. ولمّا كان هذا المستهلك المثالي نموذجاً للتحضر تشاع كل حركاته وإيماءاته وهيئته بلا كلل بين الناس، عبر الإذاعة والصحافة والتلفزة والسينما، وتُضمّن في الومضات الإشهارية.

على المستوى السياسي نحن في زمن الماكارتية، زمن القائمات السوداء ومطاردة كل أعداء أمريكا، زمن محاكمات المثقفين والفنانين الذين نعتهم تقرير اللجنة الثلاثية لسنة ١٩٧٥ بأنهم يمثلون خطراً على الديمقراطية بفعل قابليتهم لأن يشكلوا هوامش منفلتة ومتمردة.

وبالفعل فإن الرعاية الاجتماعية على الطريقة الأمريكية تودي بالسكان إلى تخلف ثقافي. وإنه من اللافت للنظر أن تتبجّح الدول الديمقراطية الحديثة بأن حكمها يرتكز على **الأغلبية الصامتة** من الشعب. ولقد أضحى صمت الشعب الأمريكي في مثل صمت الشعب الروسي، ولذلك بدت سياسة المنزلة الاجتماعية الرفيعة خطوة نحو صناعة البروليتاري ـ الشرطي.

لقد عملت ظاهرتا سرعة الاختراق والهجوم بتدرج على خلق أطياف متعاقبة للبروليتاري، بحيث يمحو كل طيف الطّيف الذي سبقه، كما في تقنية البزوغ والأفول السينمائية[١٦]. لقد بدأ هذا التحول مع المؤتمر الوطني الفرنسي (١٧٩٢ ـ ١٧٩٥) الذي طالب بشكل صريح بإعادة هيكلة المجتمع، ثم تواصل مع ماركس وأنجلز، اللذين لم يستطيعا تبيّن الملامح المثلى

---

(١٦) البزوغ هو ظهور تدريجي للصورة يتلو مرحلة الإظلام التام، أما الأفول فهو الاختفاء التدريجي للصورة. وفي لحظة ما تلتقي الصورتان، الآفلة والبازغة، وهذا هو معنى Fondu-enchainé الذي أحال عليه المؤلف (المترجم).

للعامل الكامل[١٧] حتى في إنكلترا القرن التاسع عشر التي كانت تعجّ بعمال المصانع؛ فأنجلز لم يتوصل إلى اكتشاف **العيّنة المطلوبة**، ولا نياندارتال التطور التاريخي[١٨]... ولم تتوضح صورة البروليتاري إلا في شهر حزيران/يونيو من سنة ١٨٤٨ في شوارع باريس وفي أجواء من الحرب الأهلية، حيث كان «عدد العمال في مثل عدد جنود معركة ليبزيك Leipzig»؛ فقد انطلق ما بين ثلاثين وأربعين ألفاً من العمال لخوض معركتهم. وهكذا، فمثلما بدأ المسار الثوري لنشأة البروليتاريا العمالية من رحم حرب الجماهير وحرب الحركة، فإن أسطورة «العامل السماوي» قد **تضخمت** بدورها في ساحات الحرب الميكانيكية الكبرى. وقد اعتبر هذا العامل صورة مستمدة من «**الكتاب المقدس**» عن الألم الأول الذي أصاب الإنسان عندما لعنه الله فأضحى بدوره لاعناً وقاتلاً حتى يشابه الإله في عملية الخلق. وعلى سبيل المثال، يعتقد تيلار دي شاردان Teilhard de Chardin، مثله مثل أكثر معاصريه، أن الحرب هي إحدى أهم حواضن التطوّر التقني، ولكن فكرة «الإنسان غير المكتمل» وقعت عليه إبان تجربته في جبهة الحرب، تلك «التجربة التي لا تنسى»، كما كتب سنتَي ١٩١٧ و١٩٤٥؛ فلمّا انتهت الحرب الشاملة تبيّن له أنّ «الحرب **ظاهرة عضوية من ظواهر علم تطور النوع البشري**، وبهذه الصفة فإن المسيحية تعجز عن إلغائها عجزها عن إلغاء الموت». لقد استعاد طريقة تاسيتوس Tacite ليعبر عن هلعه من هذا السلام الذي أسبل على أمم العالم «غشاوة من التفاهات وحُجباً من الرتابة» (**الحنين إلى الجبهة ١٩١٧**)، فكتب [يصف نهاية الحرب]: «شيء ما كوميض النور انطفأ في الأرض». لقد كانت [عملية] **تسريح الجنود** تعني بالنسبة إليه، باعتباره عضواً في «الرحلة الصفراء la croisière jaune» (أو ملحمة فتح آسيا الوسطى على متن السيارات)، **تجميدَ** مسار تطور الثورة المضادة؛ فإذا كان الإعداد للحرب يتصف بالتأني، إذ يتطلب أشهراً وربما سنوات من الاستعداد، فإنّ الهجوم النهائي لا يستغرق سوى ساعة أو بضع دقائق. لقد

---

(١٧) ترجمة لعبارة العامل مكتوبة بحرف التاج (المترجم).

(١٨) «ومع ذلك هلا كان بإمكاني أن أتخيّل أن هذا التطور التاريخي الذي كان ضرورياً في ظروف محددة قد شكّل نكوصاً وأنتج أناساً أدنى من المتوحشين». انظر:
K. Marx et F. Engels, *La Nouvelle gazette rhénane.*

حفظت لنا النظرة التطورية الثورية المسلطة على تاريخ الفاعلين في حركة التاريخ بقية من أخبار مثلية جنسية homosexualité مخزية كان عليها كبار القادة العسكريين في العصور القديمة، وكذا المستبدون العادلون والسلاطين، الذين كانوا لا يفترون عن إجبار «أولئك الصفاعنة[١٩] ـ الذين يسرك منظرهم إن لم تكن ممن يتلقون الصفعات ـ»[٢٠] على تكرار خزعبلاتهم. لقد كان بهم نهمٌ لا يقاوم أمام جسد البروليتاري/ الجندي المعروض، لقد كانت أجساد البروليتاريا كتلاً هائلة من «الآلات المتنقلة التي ظلت على الدوام رهن همزات سائقها/ راكبها» (بابوف Babeuf). فقوة العمل العسكري لم تعد مجبرة على أن تبيع نفسها لمرتزقة الحرب، بل لأن تهبها لهم، فهي تخدمهم كما تخدم المرأة أو الدابة الفارسَ في ميدان المعركة، تدفعه إلى أن يغشى الوغى فإما أن تتسبب في مقتله أو أن تهلك وهو فوقها، فالإسكندر المقدوني لا قيمة له من دون مروءة حصانه/ بوسيفالوس Bucéphale، وريشارد الثالث Richard III فَقَدَ في معركة بوسوورث Bosworth حياته ومُلكه وحصانَه دفعة واحدة. وهكذا فالبروليتاري الذي نشأ عسكرياً ثم أضحى عاملاً يمتلك حركة دائبة لا تفتر أبداً، يتناسل بعضه من بعض بلا هوادة وهو يمسك بمقود التاريخ الذي يسير به ويوجهه في المكان والزمان ويلهمه الحركة، وهو إلى كلّ ذلك قائد حربي شأن لينين وتروتسكي وستالين وماو تسي تونغ. إن صورة العامل الثورية التي لم يرسمها النظام الصناعي بقدر ما رسمها النظام العسكري لهي كفيلة بتقليص الفارق في الحركة بين الحرب البطيئة والحرب السريعة؛ فشعار الثائر الروسي العدمي نتشاييف Netchaïev، مُنظّر الحرب الإرهابية الممنهجة القائل: «دمّروا كلّ شيء بالسرعة والجنون القصويين»، ليس مجرد تعبير مجازي، وإنما هو خطة حربية خطيرة تهدف إلى تعويض الأخطاء الناتجة عن البطء الذي يتطلبه الهجوم التدميري، وذلك بتسريع وتيرة الهجمات العنيفة. وبذلك يظل التطور التاريخي في حالة حركة دائمة، والفضل في ذلك يعود إلى وجود **محرك للاحتراق** بمعناه الحقيقي.

---

(١٩) الصفاعنة هم مهرجون ومثليون جنسيون وقواد جيش، كان الخلفاء العباسيون يتسلون بهم في مجالسهم عبر صفعهم على أقفيتهم. ونستعمل العبارة هنا لترجمة عبارة: milices fort plaisantes à voir (المترجم).

(٢٠) رسالة السفير جزلان دي بوسباك (Ghislain de Busbecq) إلى الملك كارلوس الخامس (Charles Quint).

كانت الفاشية الألمانية تفكر بالطريقة نفسها، فقلَب هيدجر شعار نتشاييف سالف الذكر إلى شعار «التعبئة الشاملة» «die total Mobil-Machung» باعتباره «المرحلة القصوى لإرادة القوة وتحقّقِ جوهر التقنية، أي [تحقق] العدمية». فالبروليتاري الجندي يمكنه التمادي في مهمته الثورية (الهجوم) زمن السلم فيستعيض عن مهاجمة العدو بالاعتداء على الطبيعة. هذا هو التدمير الشامل للعالم كما قال باخونين Bakounine. إن المشاريع الجيوسياسية الكبرى التي تقوم بتهيئة الأرض للحرب تحفظ للبروليتاري السماوي صورته المرئية، أو هي تمنحه إياها عبر الثقافة. على المستوى العملي تُرجِم شعار هيدجر أولاً بمد يد المساعدة الإنسانية للمواطنين الألمان العاطلين عن العمل، وثانياً بدعوة هيدجر [نفسه] المثقفين إلى القيام بعمل تطوعي تمثل في «خدمات تتعلق بالشغل والمعرفة والسلاح». وسرعان ما أدّى ذلك إلى نشأة المحتشدات التي استقبلت سنة ١٩٢٦ أوائل المتطوعين، وكانوا خليطاً عجيباً من العمال والفلاحين والطلبة.

يمكننا أن نرى في كل ذلك نزعة ليبرالية قصووية ففي تلك اللحظة كان الجميع في كل أرجاء العالم الغربي في حاجة ماسة لليد العاملة لسد الحاجات الملحة للحرب الميكانيكية التي طواها النسيان اليوم. [وللتذكير] فقد عمد آنذاك بيروقراطيو الدول شبه العسكرية في أوروبا وعلى الضفة الأخرى من المحيط الأطلنطي وفي مقاطعات ما وراء البحار إلى جعل تشغيل السكان وسيلة لتدجينهم، (كان المكتب الدولي للعمل في جينيف متكفلاً في فترةٍ ما بين الحربين بمجمل مشاكل اليد العاملة في العالم)؛ ففي المستعمرات تمّ التشريع للعمل الإلزامي عبر «دائرة تشغيل اليد العاملة في الأشغال العمومية ذات المصلحة العامة» (Smotig) على طريقة إجبارية العمل في أمريكا (Forcing)، أمّا في بلغاريا، على سبيل المثال، فقد أصبح العمل المدني إجبارياً للجنسين منذ سنة ١٩٢٠، تؤطره وكالة عامة مرتبطة بوزارة الأشغال العامة. ولكن العمال المعنيين استُخدموا لإنجاز مشاريع طالبت بها وزارة الحرب، تتمثل في شق طرق استراتيجية ومدّ السكك الحديدية وبناء المطارات والمصانع. وهكذا فالمشروع الفاشي ليس في النهاية سوى تسوية لخلاف طالما تَواجَهت فيه، داخل الدولة، الطبقةُ الأرستقراطية والطبقةُ العسكرية والطبقةُ البورجوازية، وكان مداره من يمتلك البروليتاريا.

في ألمانيا أصبح العمل المدني إجبارياً منذ سنة ١٩٢٨، وكل من يرفض يُعامل كما كان يُعامل سابقاً الفارّون من الجندية أو المتقاعسون عن حمل السلاح زمن الحرب، فيتعرض للاحتقار والعزلة والملاحقة؛ فمنذ سنة ١٩٢٤ أخذت معسكرات العمل طابعاً رسمياً، ومن ثمة تحولت إلى معسكرات اعتقال، لتتحوّل لاحقاً في ظل اللامبالاة التامة إلى معسكرات إبادة. [والجدير بالذكر] أنّ السلطة لم تكلف نفسها حتى عناء إزالة الشعار الأصلي «العمل حرية» من على واجهتها. هذا الانحراف طبيعي جداً، فجسد البروليتاري العامل لا يختلف عن جسد البروليتاري العسكري مصداقاً لقول كلاوزفيتش: «إن الجنود مناجم ينبغي استغلالها».

وأمّا الدول الشيوعية فقد سارعت بدورها على الفور إلى ترجمة مطلب تيلار دي شاردان بـ «التعبئة الشاملة» على أرض الواقع، إذ لم تكتفِ بتحطيم الطبقة البورجوازية، بل قضت على بروليتارياها المنتجة؛ فالصين رفعت منذ الستينيات شعار «لتتّخذ الجيش قدوة»، فدُفع الشعب إلى أن يلبس زياً موحداً باهتاً هجيناً هو خليط من زي العامل وزي الجندي. وعلى العكس من ذلك أُلزم الجندي في فرنسا على أن يلبس باستمرار، وحتى بمناسبة الاستعراضات الرسمية، الرداء الكاكي، رداء العمال.

كل العظمة تكمن في فعل الهجوم! هل نحن إزاء تأويل فاحش لأفلاطون أم إعادة صياغة لشعار إجبارية العمل الأمريكي؟[٢١] فما كان للفاشية أن تكون حُكماً كلياناً إلا لأنها سعت إلى أن تتسلح بسلطة السرعة من ألفها إلى يائها، فـ «المجال الحيوي» [الأثير لدى الفاشية] ليس سوى اختفاء الدول الأوروبية من الخريطة لتصبح أوروبا مجرد مساحة وصحراء بلا أبعاد يتمدد فيها تنظيم «اجتماعي» مُحرّكه الأساسي تراتبية السرعة. هذه التراتبية هي التي حتمت أن يظهر الحزب النازي في أرصفة شوارع برلين قبل أن يستعيد، مع انطلاق الحرب العالمية الثانية، جذوره الثقافية النخبوية؛ فمنذ البدء دأبت الدعاية النازية على إبراز ذلك الرجل الآري الضخم الطبيعاني (naturiste) الأشقر في صورة الغازي، وإنّ ما شاهدناه في ملعب

(٢١) «كل الأحداث التاريخية الكبرى هي وليدة المصادفة»، هذا الشعار حوله هيدجر غداة الحرب الشاملة إلى شعار أقل تشاؤماً، هو: «كل عظمة تكمن في فعل الهجوم».

برلين بمناسبة الألعاب الأولمبية [يشهد لذلك]، فالأجساد مرتبة هناك بحسب سرعة الاختراق، فجسم الرياضي مُقدّم على غيره، فهو قاذف ومقذوف في الآن نفسه، ذلك أنّ حُمّى تحطيم الأرقام القياسية بالسرعة أو بالمسافة هي نفس حمّى الهجوم [العسكري]؛ ثم إنّ القاعدة التي ينبني عليها الإنجاز الرياضي الناجح، أي **ذلك العد العكسي في الزمان والمكان**، ليست سوى إظهار للمتسابق وهو يعانق «سدرة المنتهى»، ولهذا الهجوم العسكري الذي يبدأ بطيئاً ومنتظماً ثم يعقبه تسريع متدرج للآلة العسكرية المعنية بإعلان الانطلاقة الحاسمة.

اكتمل معنى «التعبئة العامة» أثناء الحرب الشاملة، إذ اختفت كل عناصر الشبه بين البروليتاري الجندي والبروليتاري العامل؛ الأول كائن سام محبي بـ «حركة رائقة»، كما قال الإنكليز قديماً، ويجسده الجندي الألمانيّ الذي يخترق بسرعة جنونية السهوب والصحارى لا يلوي على شيء؛ أما الثاني فهو مكلف بالمساهمة في الدعم اللوجستي، وتجسده جموع المعوقين والمحكوم عليهم بالإقامة الجبرية والمسجونين والمبعدين في المحتشدات والعجزة والمهربين.

أمّا بالنسبة إلى الفاشي الإيطالي، الذي مرّ مباشرة من تحطيم الرقم القياسي في الرياضة إلى شنّ الحرب المطلقة، فإنّ سحر الجسم المقدام كان كلّياً، وقد تجسّد مع موسوليني Mussolini في «شعرية الطائرة المقنبلة». وبالنسبة إلى مارينتي فهو يعتقد مثلما اعتقد قبله دانونزيو D'Annunzio أن «المحارب النبيل» هو «الذات الوحيدة القادرة على أن تدرك **وتعانق** في خضم القتال ما في الجسم البشري من قدرات فولاذية كامنة»، وعلى الجمع بين معدات تقنية أكثر إرهاقاً من الحصان إلى حد ما، والمركوب البشري التقليدي الذي توسلت به النخب الحربية، كالزوارق السريعة وكـ «الطوربيدات» يوجهها الرجال الضفادع المميزون من تحت الماء بحثاً عن الأسطول الإنكليزي. وسيتكفل الانتحاريون اليابانيون/الكاميكاز بأن يحققوا في الفضاء حلم النخبة العسكرية في العناق الأبدي بين الإنسان والآلة، وذلك عندما ذهبت أجسادُهم هباءً مُعانِقَةً سلاحَها الطائر في ملحمة التِّقانة النارية. إنّ أقصى رمزية يحوزها الجسد المقدام تكمن في فنائه محترقاً بلهيب الانفجار. إنه [من غير المعقول] أن يبدي كثيرون اليوم خشيتهم من

عودة الفاشية عقب الكشف عن الجرائم التي ارتكبتها النازية ضد الإنسانية، فالفاشية لم تضمحل في الواقع حتى نخشى عودتها، ذلك أنّ الأمر ليس مجرد قصص ومشاهد تُعرض عن [جرائم] النازية لغايات سادية ودعائية. لقد مثلت النازية إحدى الثورات الثقافية والسياسية والاجتماعية الأكثر اكتمالاً في الغرب المرتكز إلى سلطة السرعة، شأنها في ذلك شأن السيادة على البحار والتوسع الاستعماري. ومن المؤكد أن خشية الفاشية من «المستقبل» هي أقل بكثير من خشية شيوعية فقدت ماركسيّيها ولم يبقَ لها منهم غير الاسم، وكانت نهاية البروليتاريا اعترافاً منها بهزيمتها التاريخية.

ما زالت الفاشية إذاً على قيد الحياة، لأن كلاً من الحرب الشاملة والسلم الشامل قد أدمج القيادات العسكرية للمؤسسات القومية الكبرى (الجيوش ـ قوى الإنتاج... إلخ) في سيرورة جديدة فضائية وزمنية، وبلغة كانط Kant في التاريخ الكوني. فالمشكل لم يعد مشكل تاريخ ممتد في الزمان (تاريخ كرونولوجي) ولا في المكان (في الجغرافيا)، بل المشكل في أي زمان وفي أي مكان؟

أكّدتُ في مقال لي صدر مؤخراً على ضرور أن نراجع **مفهومنا الفيزيائي للتاريخ**، وأن نتبنى مفهوماً جديداً حتى يصبح التاريخ [متحققاً في التصوّر الآتي]:

«... باختصار، إن ما يجعل الحرب (باعتبارها مشروعاً متجانساً نشيعه في الزمان والمكان ونعيد إنتاجه على الدوام لنفرضه متى أردنا على خصمنا) محركاً للتاريخ ليس كونها أداة، بل كونها مصدر خطاب كلياني في التاريخ. هذا الخطاب هو السعي المشترك بين الدول الأوروبية وبقية العالم نحو الجوهر المطلق للحرب، الذي هو السرعة. وبذلك يتخذ هذا السعي معنى السيطرة المطلقة للعقل العسكري الغربي على التاريخ الكوني. وهكذا لن يكون التاريخ الخالص سوى ترجمة للسبق الميداني الاستراتيجي المحض [لهذا العقل العسكري]. وبالنتيجة ستنحصر قوة هذا التاريخ في الريادة والانتصار على الآخرين، وسيتحوّل المؤرخ إلى **قائد حرب الوقت**»[٢٢].

(٢٢) Paul Virilio, «La Guerre pure,» *Critique*, vol. 31 (octobre 1975).

الفصل الثامن

الأمن بضاعة مستهلكة

الأمن لا يتجزّأ

م. بونياتوفسكي

٤ آذار/مارس ١٩٧٦

صرح الرئيس البرتغالي، الجنرال كوستا غوماس Costa-Gomes، في بداية الأحداث التي هزت البرتغال [سنة ١٩٧٤] بأنّ «الثورة أسرع خطى من الشعب».

فكيف لأمر كهذا أن يكون ممكناً؟ الجواب بسيط: لأن الثورات المزعومة في الغرب لم تكن في الحقيقة من صنع الشعب ولكن من صنع المؤسسة العسكرية، فليبرالية الغرب الاقتصادية لم تكن سوى تعددية ليبرالية من جنس [تعددية] سرعة الاختراق [العسكري]. فكثيراً ما عمد هذا الغرب لمواجهة ثقل وطأة النموذج الذي تعتمده البورجوازية المعزولة والخطة الأحادية الماحقة التي فرضتها إيديولوجيا «التعبئة الشاملة» الماركسية (الرقابة الصريحة على المنقولات من ممتلكات وأشخاص وأفكار)، إلى التنويع في بنيته اللوجستية، وإلى إيديولوجيا الثروة الوطنية التي تُستثمر في شراء السيارات والرحلات ومشاهدة الأفلام السينمائية وفي الأعمال البطولية. لقد أضحت الرأسمالية رأسمالية الفئات فاحشة الثراء، دائبة الحركة[1]، ورأسمالية البنوك ذات الخدمات الفورية عن بعد. إننا إزاء فائض من **الوهم الاجتماعي** ليس في الحقيقة سوى تبيع لاستراتيجية الحرب الباردة. ونحن لا نجانب الصواب عندما نقول بأنّ الدّيمقراطيات العسكرية

(١) نستعمل هذه العبارات ترجمة للعبارة الفرنسية jet-sets (المترجم).

ـ الصناعية قد استطاعت أن تجعل من المنقطعين عن الدراسة ومن جيل البيتلز beat-génération والمغرمين بقيادة السيارات والعمال المهاجرين والسواح والأبطال الأولمبيين/ووكلاء الأسفار.. وأيّاً كانت انتماءاتهم الاجتماعية، **جنودَ الخفاء في بُنَى السرعة** التي لا تني الدولة (قيادة الأركان) عن مراقبة مستوياتها يومياً، [بدءاً] من سرعة المترجلين [وانتهاءً] إلى سرعة الصاروخ، ومن حركة المَرْكبات الحيوية إلى حركة المركبات التكنولوجية؛ ففي الستينيات عندما أراد أحد أثرياء أمريكا أن يتبجح بمكانته الاجتماعية الراقية لم يشترِ «أفخم السيارات الأمريكية» ولكن» سيارةً أوروبية صغيرة الحجم»، غير أنّها أسرع، بل هي غير محددة السرعة. فالنجاح رهينٌ بلوغ أقصى مقدرة توفرها السرعة، وهو إلى ذلك يعني أن يتملكنا إحساس بالإفلات من حظيرة التدجين الاجتماعي. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية لم نشهد حروباً خارجية بالمعنى الحقيقي للكلمة، مصداقاً لما قاله عمدة مدينة فيلادلفيا Philadelphie ذات صيف أمريكي مضطرب: «اليوم انزاحت الحدود فأضحت داخل المدينة [نفسها]». [وبالفعل] أضحى الطريق مثله مثل الشارع جزءاً من الحادور الصحراوي التخومي. ولقد شهدنا هذا الصيف، صيف ١٩٧٧، حائط برلين وقد اكتملت تعزيزاته من ألغام أرضية ونظام مراقبة سمعي بصري؛ إنه فعلاً يتجمّل. وبعد بلفاست ها نحن نشهد انهيار بيروت، تلك الحاضرة البورجوازية القديمة، تحت وطأة المهاجرين الفلسطينيين. لم تعش بيروت حالة الحصار التقليدية، بل نوعاً من حالة الطوارئ الدائمة والخاوية، فلكي تستمر الحياة فيها توجّب على كل سكانها أن يظلوا موصولين بالراديو حتى يعرف كلّ واحد منهم الوضع العسكري في حيّه، بل إن كل فرد ملأ سيارته أسلحة فحوّلها إلى آلة اقتحام حتى يضمن حرية حركته. إنّ العنف هناك لا يميز بين المقاتل والمدني، ليس بسبب استحالة التمييز بين لباسيهما وحسب، بل لأنّ المقاتلين كانوا ملثمين على شاكلة المجرمين المسلحين الذين يحرصون على ألّا يتعرّف إليهم الجيران أو الأصدقاء وكأنهم يستعيدون صورة المقاتل المحلي وصورة «الحرب الحرة»؛ إنّ سلوكهم يبدو كأنه استعادة لضرب من التخلف الجماهيري التكنولوجي في مجال التسلح، وتطور جديد في مجال تضليل المواطنين موازٍ لعملية التخريب العمراني.

عندما رفضت الدولة الأمريكية مساعدة مدينة نيويورك المنكوبة، وأغلقت المستشفيات والمدارس أبوابها، وتراجع حجم المساعدات الاجتماعية [المرصودة لسكان المدينة]، وتوقف رفع القمامة، انصهرت المدينة/ في ضاحيتها بأن أخذ المواطنون على عاتقهم تدبير أمنهم الاجتماعي. لقد ساهمت الحرب الشعبية على نطاق واسع في تحويل الصمود في ساحات القتال إلى نمط وجود. ولقد استعارت الدولة الحديثة هذه الأساليب لحسابها الخاص، فعندما قرر ملك المغرب خريف سنة ١٩٧٥ استعادة الصحراء الغربية من أيدي الإسبان لم يرسل جيشه هناك بل أطلق «المسيرة الخضراء»، وقد حوت جموعاً من الفقراء أوتي بهم من شوارع المدن وأُلقي بهم عزّلاً في الصحراء يتقدمون دبابات الجيش، كما لو أن الأمر يتعلق في نهاية المطاف بحسم قضية إيكولوجية أطرافها مدنية أكثر مما هي عسكرية.

أخذت الحرب الشعبية مع القضية الفلسطينية بصورة مفاجئة أبعاداً عالمية. وفعلاً فقد كان تكتيك [المقاتلين الفلسطينيين] المتمثل في الانتشار عبر أوسع ما يمكن من المساحات لاتقاء بأس آلة القمع العسكرية [الصهيونية] لا معنى له ما دامت قضيتهم التي يناضلون من أجلها هي حرمانهم من مجالهم الجغرافي. ولكنهم لم يتأخروا عن أن يجدوا لهم مستقراً في المناطق الزمنية، بمعناها الحقيقي، أي في المطارات الدولية؛ هناك كان يتجمع أولئك المقاتلون المجهولون الذين كانوا ينبجسون فجأة من قاع الأرض. لقد **كانوا يخوضون معركتهم في الزمان الاستراتيجي، في تفاصيل أوقات السفر**[٢] **بعدما حُرموا من مكان ينفذّون عليه استراتيجيتهم العسكرية**، فلا وجود لطريق غير قابل لأن يتحول لاحقاً إلى طريق استراتيجي. وبالنتيجة كفّ الطيران المدني في معناه الأصلي عن أن يوجد. ولذلك من الطبيعي أن تكون الطائرات الأمريكية الخارقة لجدار الصوت، وطائرة الكونكورد لاحقاً، عرضة للمنع من الطيران وموضوعاً لجدل عنيف؛ فبسبب فعاليتها الكبيرة أضحت تقلق العسكريين. وهي باعتبارها وسيلة من وسائل النقل المعتمدة في الوضع النووي الراهن، تذكّر بظاهرة غزو

(٢) يشير المؤلف إلى عمليات اختطاف الطائرات المدنية الصهيونية والغربية التي اعتمدتها بعض الفصائل الفلسطينية في السبعينيات وسيلة نضالية (المترجم).

السيارات لشوارع الحواضر البورجوازية في العشرينيات.

صرح السيد ميشال بانياتفسكي يوم ٤ آذار/مارس ١٩٧٦، وكان وقتها وزيراً للداخلية، قائلاً: «الأمن لا يتجزّأ». ولكن لكي يكون كلامه أكثر صدقاً كان عليه أن يقول: «من هنا فصاعداً الأمن لا يتجزّأ». وهذا نفس ما عبر عنه بعد ثلاثة أشهر الرئيس جيسكار ديستان Giscard d'Estaing في خطابه بالأكاديمية الحربية حيث قال: «علاوة على وسائلنا المتطورة لحفظ الأمن نحن نحتاج إلى نوع من استتباب [دائم] للأمن، أي إلى **وجود جسم اجتماعي منظّم وفقاً لحاجاتنا الأمنية**». وبعد مدة قصيرة من تصريحات ديستان أكّد السيد أوليفيي ستيرن Olivier Stirn كاتب الدولة المكلف بمقاطعات وأقاليم ما وراء البحار بمناسبة انعقاد مجلس الوزراء يوم ٢٥ آب/أغسطس أن» عملية إجلاء سكان جزيرة باستير Basse-Terre المهددين بثورة بركان جزيرة سوفريار Soufrière قد كشفت عن قدرة المجتمع الليبرالي على التحرك من تلقاء نفسه». وقد تبيّن لنا فيما بعد أن حضور الحماية المدنية والاجتماعية في مثل هذه الأوضاع لم يعد مجرد استجابة للأحداث وإنما هو يستبقها، بل يختلقها إذا لزم الأمر[٣].

وبالفعل فإنّ تلاعب السلطة بمتطلبات أمن المواطنين بهذه الطريقة الإرهابية المكشوفة إنما هو الحل الأمثل لمجمل القضايا غير المسبوقة التي واجهتها الديمقراطيات [الغربية] بسبب تطوّر الاستراتيجية النووية؛ من ذلك أنّ سياسة الانعزال النووي الجديدة، كتلك التي انتهجتها الولايات المتحدة الأمريكية، هي الآن بصدد تجديد الاستراتيجية السياسية الميدانية تجديداً شاملاً. لقد سعت هذه الديمقراطيات إلى إحياء فكرة **الاتحاد** عبر خلق حالة إجماع جديدة حول احتياجات المجتمع، فكما خلقت سابقاً وسائل الإعلام الحاجة إلى السيارة والثلاجة يتم [الآن] خلق شعور جماعي بانعدام الأمن مما سيفضي حتماً إلى خلق نوع جديد من البضاعة الاستهلاكية، هي [بالتأكيد] الحماية. وتدريجياً قفزت هذه البضاعة إلى الصدارة وأصبحت

---

(٣) صرّح الوزير ستيرن مفتخراً يوم ٢٠ تشرين الثاني/نوفمبر ١٩٧٦: «لقد انتهينا من موضوع بركان جزيرة لاسوفريار». ولكن حسب الصحافة فإن تكاليف «إيقاف هذا الانفجار البركاني» قد بلغت في الحد الأدنى مئتي مليون فرنك [فرنسي] إلى حدود منتصف شهر تشرين الأول/أكتوبر، وهو إحصاء غير نهائي.

محصّلة كل الدورة الاستهلاكية. هذه الفكرة هي تقريباً نفسها التي عبّر عنها مؤخراً ريمون آرون Raymond Aron عندما آخذ المجتمع الليبرالي على تماديه في التفاؤل. إن إشاعة فكرة عدم تجزؤ الحاجة إلى الأمن من شأنها أن تخلق مواطناً بملامح جديدة، فلم يعد المواطن هو ذاك الذي يُغْني الأمة بما يستهلكه من بضائع، بل هو ذاك الذي يبادر إلى استثمار أمواله وجهده في تأمين نفسه فيوفر لها أفضل حماية؛ إنه في النهاية يشتري أمنه على حساب حاجاته الاستهلاكية الأخرى.

ومع ذلك ليس في الأمر تناقض كما يبدو من الوهلة الأولى؛ فالمجتمع الرأسمالي قد دأب منذ البدء على الربط الوثيق بين السياسة وإظهار الخوف، وبين الأمن الاجتماعي ووفرة الاستهلاك والرفاهية. ولقد وقفنا سابقاً على أن الوجه الآخر لهذه الحركة الإجبارية هو تقديم المساعدة، فمع حرب الحركة أضحى لأصحاب الأجساد العاجزة حضور اجتماعي قوي وذلك من خلال استحقاقات العمل العسكري. وإذا كانت معاهدة فرساي قد انشغلت بموضوع المساعدة [الاجتماعية] فلأن مصير وزارة الدفاع الوطني يقتضي ذلك ويفرض، حينئذ، على الدول إجراءات اجتماعية ممنهجة لتكون جزءاً من الدفاع الشامل. ولقد لاحظ جلبار موري Gilbert Mury أن المساعدات الاجتماعية الأولى الحقيقية [التي قُدّمت في فرنسا] لم تكن **عفوية** بما أنها كانت من توفير «الحزب الاجتماعي الفرنسي» الذي تزعّمه الكولونيل دي لا روك De La Roque. ويجدر بنا [في هذا السياق] أن نذكّر بدعاة «الأمن الاجتماعي» الجديد في بريطانيا (السير بيفيريدج سنة ١٩٤٢ Sir Beveridge على سبيل المثال)، فقد جعلوا منه هدفاً من أهداف الحرب الكونية. وإننا نصادف في القارة الأوروبية حركات مشابهة ذات منزع فاشي أو بيتاني (نسبة إلى المارشال بيتان Pétain) مثل منظمة «الإغاثة الوطنية». ومن المهم أن نؤكد أن بعض أعضاء عصبة المخبرين الفاشيين قد انخرطوا في هذه المنظمات (وقد كانت هذه العصبة مكلفة قبل ذلك بمهمة مراقبة المواطنين وقمعهم) فأدمجوا ضمن الطاقم الجديد للإغاثة الاجتماعية بالطريقة نفسها التي تتم بها اليوم الاستفادة من خبرة قدامى مساجين الحق العام. إن أنشطة هؤلاء التقنيين المكلفين بتسوية الأمور لا يمكن فصلها عن نزوع إدارة الدولة إلى التسلط، فالمهمات المنوطة بـ «اليد العاملة الاجتماعية» تتكاثر وتتنوع

وفق الفرص المتاحة، والعامل الذي يشتهر أمره هنا والآن على أنه مدرّس خصوصي أو منشّط برامج إذاعية أو تلفزية أو مربٍّ.. إلخ يؤمّن في مكان آخر أعمالاً أخرى؛ فمع نهاية الاستعمار تحولت وزارة «شؤون السكان الأصليين» إلى وزارة «الشؤون الاجتماعية». وعلى سبيل المثال أسّست السلطات الاستعمارية البرتغالية في البرتغال نفسها «وزارة الاتصالات الاجتماعية»، وأمّا في تشيلي فقد أسس الجنرال بينوشي بكل وضوح، وهو الذي لا ينطق عن الهوى في العادة، وزارة «الشؤون المدنية».

منذ سنوات، وفي خضم الازدهار الاقتصادي، صرّح عمّال الإغاثة الاجتماعية في فرنسا: «نحن لا نختلف عن غيرنا من العمال [في القطاعات الأخرى] لأننا نقوم بإصلاح الجهاز الاجتماعي ـ الإنتاجي». هذه اللهجة الواثقة خفّت بعيد أحداث أيار/مايو ٦٨ [فأصبحت الصيغة كما يلي]: «لدى عمال الإغاثة الاجتماعية إحساس حاد بغموض مفهوم العمل الاجتماعي، وهم واعون بما ينطوي عليه [هذا المفهوم] من التباس». وبالفعل، ففي ظل اقتصاد الندرة الجديد لم يعد هناك مجال للانخراط في مجتمع الوفرة (الأقل جدوى إلى حد ما). ذلك ما صرّح به السيد برلنغوير Berlinguer في شهر كانون الثاني/يناير من سنة ١٩٧٧، إذ قال: «نحن الذين سعينا إلى التقشف حتى نغيّر نمط التنمية ونبني **منوالاً تنموياً جديداً**»، **وأمام دهشة الجميع** مثّل لذلك بنظام وسائل النقل: «عندما نعيد تنظيم المدن ستنتهي أسطورة السيارة الفردية، وبالنتيجة **سيؤدي حلّ مشكل وسائل النقل إلى تغيير جذري لميكانيزمات الدولة، وذلك من خلال تعديل طبيعة المشاريع**». وهكذا تقلصت في كل مكان قدرات جموع الناس على الحركة وقُمعت، إذ تراوحت الإجراءات [المتخذة في هذا الشأن] من تحديد السرعة وتقليص كمية البنزين المسموح بها إلى إلغاء امتلاك السيارات الفردية. لقد أنهت السلطة أسطورة السيارة الفردية تماماً، كما اضمحل العامل، ذلك الفاعل التاريخي الرئيسي في الدولة اللوجستية. لقد كانت انعكاسات سياسة التقشف التي اتبعها أنريكو برلنغوير كارثية، فحتى أوساط الحزب الشيوعي الإيطالي لم تنفك عن مقارنة هذه السياسة بنظام حكم أسبرطة. ولكن كان من الأجدر مقارنتها بنهاية نظام ليكورجوس/أسبرطة، حيث تفكك «المجتمع» الذي تعوّد أفراده منذ قرون على أمر وحيد هو «الاقتحام»، واستحال وجودهم بلا هدف عندما

حرموا فجأة من هذه الحرفة. فإذا ما حرمنا الإنسان الغربي من السيارة أو الدراجة فلن نترك له شيئاً يفعله، اللهم إلا أن يحقق نبوءة م. أي. س. بلوخ M.I.S.Bloch الذي أعلن منذ سنة ١٨٩٧ «لا أحد ينتصر في الحرب، ولذلك فالجيوش التي تعجز عن تسديد الضربة القاضية لعدوها تظل مُتَواجهة على الدوام مكتفية بالتهديد. وبالنتيجة فإنّ ما يتوعدنا به المستقبل هو الآتي: لا حرب ولكن مجاعة، لا مجازر تبيد الأمم ولكن يبيدها الإفلاس وانهيار كل نظمها الاجتماعية».

في كلّ مجتمع هش التوازن تهدده المبادرات الرعناء يتم ربط الأمن بغياب الحركة، كما يتم الربط بين توسيع مجال البروليتاريا مسلوبة الإرادة وتوسيع مجال فعلها المسلوب. ويعد ارتفاع معدلات البطالة الصورة الأكثر وضوحاً وتعبيراً عن هذا التوسع، وتبعاً لذلك يعاد توزيع العمل الاجتماعي، فيتم إبراز إمكانيات المعوقين عضوياً وذهنياً والأرقام القياسية التي يسجلها ذوو الاحتياجات الخاصة في الألعاب الأولمبية الموازية، ويتم إقناع الناس تبعاً لذلك بأنّ عجز الجسد عن الحركة لا يشكل في الحقيقة مشكلاً عويصاً. ومرة أخرى نحن إزاء **أمر غريب**، فالجيش هو المبادر بهذه الأفعال **ذات الطابع الإنساني الخيري**. لنقرأ مذكرات الراهب أوزيول Oziol، ذلك الكاهن القروي الذي أنشأ بأبسط الإمكانيات مراكز لإيواء الأطفال المتخلفين ذهنياً حماية لهم من [عسف] مستشفيات الأمراض العقلية، فقد ورد فيها قوله: «يتعجب أحياناً بعض زوّارنا من سماع عبارة: (ولدي [موجود] في الجيش). هذه العبارة لا تعني أنّ هذا الطفل المسكين المتخلف ذهنياً هو بصدد أداء واجبه العسكري، ولكنها تعني أنّ المركز الذي يقيم فيه إنما هو بتمويل من الإدارة المالية للجيش، التي قدمت لنا فيما بعد مساعدات أخرى». وبالفعل فالجنرال مالباك Malbec مدير هذه الإدارة المالية نفسها هو الذي أطلق الشعار الرهيب لهذه المراكز «[الإقامة فيها] من المهد إلى اللحد»؛ وهل فعل الجيش شيئاً غير هذا؟

تهدف إعادة توزيع المساعدات الاجتماعية إلى تشغيل المعوقين كما فعلت الدولة البروسية القديمة سنة ١٩١٤. وقد كانت هذه المساعدات المالية في صيغة مكافأة أو راتب. [والجدير بالملاحظة] أنّ الحكومة كانت حريصة على تقديم مكافآت للمواطنين الذين يقدمون خدمات للشرطة عبر الوشاية

ببعضهم البعض. إنّ [سياسة] «الأمن الذي لا يتجزأ» تميط اللثام من خلال صورة ذلك العجوز الساخط والمُقصى عن الدورة الاقتصادية بمقتضى جراية تقاعده ومدخوله الزهيدين، عمّا تبقى من البروليتاريا وعن صنف من الجنود الحراس يقظ وواقف بذهول في خضم الجلبة الاجتماعية الصاخبة. و[بالفعل] بدأنا نصادف هذه الكائنات الفضائية في الشوارع: كهولاً مجهزين بنظام إنذار إلكتروني أكبر حجماً من الساعة اليدوية مشدود إلى معاصمهم وموصول بمركز مراقبة. لقد أسس جلبار كوتو Gilbert Cotteau هذا النوع من الإغاثة الاجتماعية وذلك عندما أنشأ «مؤسسة دلتا ٧ الخيرية» ذات الخدمات الكثيرة؛ ولكنها تمتعت هي بدورها في انطلاقتها بمساعدة مالية من الجيش (جيش الطيران بالخصوص). أما المنتفعون بخدمات هذه المؤسسة فقد كانوا بالخصوص أطفالاً فييتناميين أصمّهم هدير الطائرات المقنبلة فمُنحوا سمّاعات، وعجائز من مدينتي بواتيي Poitiers وباريس منحوا أجهزة هواتف مزودة بنظام إنذار موصول بحاسوب في مقر الشرطة المركزية. وتجدر الإشارة إلى أن الاتحاد القومي لمكاتب الخدمات الاجتماعية ووزارة الصحة كليهما يقف وراء كل هذه الإجراءات، وكذلك وزارة الداخلية.

إن الملصقات الحائطية التي تعطي إشارة الانطلاق للحملات التحسيسية الواسعة من أجل سلامة كبار السن، وكذا الومضات السمعية البصرية وما شابههما من سموم تنشر وتذاع على نطاق واسع في العمارات السكنية وفي النوادي والمنازل كما لو أن الأمر يتعلق بتعبئة بوليسية.. كل ذلك يوفرونه لك بالمجان بمجرد تقديم طلب في الغرض.

أما بخصوص بعض الطبقات الاجتماعية الأخرى فإنّ التلاعب بحاجاتها إلى الأمن اتخذ صيغاً مختلفة: منذ العصور القديمة كان المعدن النفيس، المعيار الذهبي «قيمة آمنة»، وكان بلسماً للقلق، وبالنتيجة كان رمز الأمن الفردي؛ إلا أن هذه القيمة «التأمينية» تمّ تحريرها وتحويلها كما هو معلوم إلى ما لا يحصى من أنظمة صرف العُملة. ومع ذلك فإنّ التخلي اليوم عن هذه القيمة الآمنة وعدم اعتبارها المعيار الأساسي للنظام النقدي تذكرنا بشكل كبير بأحداث بنك لاو Law قبيل قيام الثورة الفرنسية؛ فقد اعتبر الذهب آنذاك من أسباب زعزعة «الأمن الاجتماعي». وإننا لنجد في خضم الوضع النووي الراهن الأسباب التي كانت دفعت دولة أسبرطة إلى [إصدار

قرار] بعدم استخدام المعادن النفيسة باعتبارها أحد نتائج حالة اللاحرب (حرص الدولة على أن يكون السكان في أقصى حالات اليقظة للدفاع عن البلاد هو الذي دفعها إلى أن تمنع عنهم كلّ وسيلة للطمأنينة عدا وسيلة واحدة هي انخراطهم الكامل في آلة الحرب الأكيدومونية).

إن قانون الإنتاج نفسه يهدف دائماً إلى [خلق] «استهلاك بلا حدود»، ولكنّ هذا الاستهلاك أصبح استهلاكاً للأمن كلّه؛ ذلك أنّ الاستعمال غير العقلاني لردود الفعل الدفاعية اللاإرادية يؤدي إلى تغيير جمالية البضاعة وطبيعتها. إن معنى إصلاح المؤسسة التجارية يختلف تماماً عن المعنى الذي تتبناه السلطة. وهكذا فإنّ انتشار «منتوجات بلا علامات تجارية ولكنها جيّدة» في السوق دون أن تثير الانتباه يبدو لي حدثاً مهماً، ذلك أنّ المنتوجات ذات الاستهلاك الواسع تعرض ملفوفة بالأبيض «بلا علامة تجارية»، فقد اقتضت أسبابٌ «اقتصادية» التخلص من العلامات التجارية الطفيلية. ولقد تمّ الترويج لهذه المنتوجات بتنظيم حملة كبيرة من الإشهار المضاد، فقيل لنا إنها «منتوجات خام»، أي أنها بمنأى عن الأساليب التسويقية المشبوهة التي كانت تُروّج بها البضائع سابقاً. وهكذا فالدعاية التنفيرية تزيد في حجم المبيعات أكثر من الدعاية التسويقية، فبفضلها ينتظم الوجود الاجتماعي الجديد حول المنتوجات الوقائية. فإذا كانت جمعيات الدفاع عن المستهلك قد دعت الشركات إلى التخفيف من حجم حملاتها الإشهارية فلأن قوى إنتاجية أخرى تطمح من خلال هذه الدعوة إلى إشهار منتوجاتها، شأن أعضاء معهد الدراسات العليا للدفاع الوطني الذين أشرنا إليهم آنفاً.

بعد حرب السوق المحلية جاء دور حرب السوق العسكرية؛ [ومفاد ذلك] أنه لم يعد هناك نظام استهلاك/إنتاج يهدف إلى أن يرتبط بالديمقراطية، بل هناك نظام أشياء يهدف إلى اختيار مباشر للطبقة العسكرية، وبعبارة أدق هناك تطور تكنولوجي أو صناعي في مجال التسلح مثلما صرح بذلك ماريو سواراز Mario Suarès بعد هزيمته في الانتخابات البرتغالية في نيسان/أبريل ١٩٧٦: «لست في حاجة إلى أن أحكم مع السياسيين، يمكنني أن أحكم جيداً مع العسكريين والخبراء»؛ وهذه اللغة نفسها نجدها لدى المسؤولين الصينيين. إن «الاشتراكية العسكرية» لم تنشأ في البيرو أو في

البرتغال سنة ١٩٧٦، ولا هي ظهرت في برلين في الثلاثينيات أو في القرن المنصرم مع بيسمارك Bismark أو مع نابليون الثالث و«اشتراكيته الإمبريالية». إن القضاء على حليف البورجوازية السياسية ليس سوى تحقيق لحلم استراتيجي مبني حصرياً على الفكر العلمي والتكنولوجي: أمم معسكرة ولكن دون الحاجة إلى جيوش (فكرة الجنرال غالوا Gallois عن الحد الأدنى الحيوي).

وبالنسبة إلى كلاوزفيتش فإنّ السياسة هي «وسط عصيّ على الترويض وحاجز مانع للتفريغ الكامل»[٤]. مثل هذه الوصفة تكشف بوضوح عن طبيعة تطلعات الطبقة العسكرية وتنبئ بالوضع النووي [الراهن]، فقد «حوّل بونابارت الحرب بقوّة وقسوة إلى تلك الحالة فأصبحت الحرب تشنّ من قبله وتتواصل دون هوادة حتى استسلام العدو، كما تتوالى الضربات المقابلة بنفس الشدة تقريباً. وستدفعنا هذه الظاهرة الطبيعية، والتي لا مفرّ منها، إلى العودة دون شك إلى المفهوم الخالص للحرب مع كل مضامينها الصارمة»[٥]. تعد الكفاية الديناميكية الميزة الأساسية لآلة الدولة، وتتكفل الدولة النووية باعتبارها أقصى [ما بلغه] تطور علم السرعة بتأمين تماسك هذا المفهوم (الكفاية الديناميكية)، وذلك بفضل الحاسوب الاستراتيجي. وفي مواجهة هذه الآلة الحربية العظمى يقف آخر بروليتاري عسكري خاضعاً لها مسلوب الإرادة، إنه [بالتأكيد] رئيس الجمهورية القائد الأعلى لجيش مفقود. إن جسد الرئيس يشبه أجساد أولئك المجندين القدامى المحاصرين بين نارين، بحيث لا يبقى له من مخرج سوى الهجوم.

---

(٤) كارل فون كلاوزفيتش، **عن الحرب**، ترجمة سليم شاكر الإمامي (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧)، ص٨٠٠ (المترجم).

(٥) المصدر نفسه، ص٨٠١.

القسم الرابع

حالة الطوارئ

السرعة هي جوهر الحرب

سان تسي

لقد أضحى تقلص المسافات حقيقة استراتيجية ذات نتائج اقتصادية وسياسية خطيرة نظراً لاقترانه بنفي الفضاء.

ولقد فقدت الاستراتيجية العسكرية التي بنيت في السابق على مبدأ **التخلي عن الأرض لربح الوقت** كل معنى، فأمّا ربح الوقت فقد تكفلت به اليوم حصرياً مركبات نقل السلاح، وأما الأرض فقد عدمت كل قيمتها لصالح المقذوفات. **وبالفعل فقد اقتضت السرعة أن يكون للّامكانِ قيمة استراتيجية بدل المكان.** [وبناء على ذلك] تمت الاستعاضة عن موضوع امتلاك الأرض بموضوع امتلاك الوقت. ضمن هذا النقصان[1] الجغرافي الشبيه بحركة الانجراف القاري التي وصفها ألفراد فيجنر Alfred Wegener[2] تتخذ العلاقة بين «إطلاق النار والحركة» معنى جديداً مفاده أن التمييز بين **القدرة التدميرية** لإطلاق النار **والقدرة الاختراقية للحركة** وللمركبة العسكرية بدأ يفقد «صلاحيته»؛ فحركة الناقلات المخترقة لجدار الصوت (طائرة ـ صاروخ ـ موجات الأثير) هي في الآن نفسه اختراق وتدمير، فسرعة فعلها الفائقة عن بُعد يضارعها اندحار العدو بفعل المفاجأة، ويضارعها بالخصوص اندحار العالم باعتباره مجالاً ومسافة ومادة.

---

(١) نستعمل هذه المفردة القرآنية الواردة في سورة الرعد، الآية ٤١ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ﴾ لترجمة المصطلح الفرنسي contraction (المترجم).

(٢) Alfred Wegener, *La Genèse des Continents et des Océans: Théorie des translations continentals* (Paris: Librairie Nizet et Bastard, 1937).

إنّ الاختراق المباشر أو المتهيّأ لأن يكون كذلك يعني التدمير الفوري للوسط الذي نعيش فيه بما أنّ تطور فعالية وسائل النقل العسكرية المتزايد (الدقة ـ المدى ـ السرعة) قد أفقدنا **المساحة/ الزمن** بعدما أفقدنا **المساحة/ الفضاء**. من هنا فإنّ التسمية الثنائية **إطلاق النار/ الحركة** لا يمكنها أن تستمر في الوجود إلا بمعنى حركة مزدوجة [هي حركة] الانبجار[٣] والانفجار، ذلك أنّ **قوة الانبجار** قد عوضت قوة الاختراق القديمة لدى المَرْكبات ما دون سرعة الصوت (وسائل النقل ـ المقذوفات)، وأما **قوة الانفجار** فقد عوضت القوة التدميرية للمتفجرات الجُزَيئية التقليدية. هذه المادة المتناقضة **الانبجارية والانفجارية في الآن نفسه** هي التي تجعل من آلة الحرب الجديدة جِماعاً لنوعين من الاضمحلال: **اضمحلال المادة أثناء عملية التحلل النووي، واضمحلال الأمكنة تحت وطأة اكتساح المركبات الساحق**؛ مع فارق ينبغي الإشارة إليه وهو أن عملية تحلل المادة يتم إرجاؤها باستمرار لضمان توازن ردعي من أجل تعايش سلمي، في حين أن الأمر ليس كذلك بخصوص تبديد المسافات؛ ففي أقل من نصف قرن تزايد تقلص المساحات الجغرافية بتزايد السرعة، فإذا كانت **العُقدة** هي وحدة قياس سرعة «قوة الردع» البحري في الأربعينيات، وهي قوة تدميرية هائلة آنذاك، فإنّ هذه السرعة أصبحت بداية من الستينيات تقاس **بالماخ mach**، أي بسرعة آلاف الكيلومترات في الساعة. ومن المحتمل أن البحوث الجارية حالياً حول الطاقات العالية ستمكننا من الاقتراب من سرعة الضوء بفضل سلاح الليزر.

إذا كانت الاستراتيجية، كما قال لينين، هي «اختيار مكان الضربة الرئيسية في المكان الحاسم» فعلينا أن ندرك أن هذا «المكان» لم يعد اليوم **نقطة ارتكاز جيواستراتيجية** بما أنه يمكننا مستقبلاً، انطلاقاً من **أيّة نقطة**، أن ندرك نقطة أخرى أنّى وُجدت وفي زمن قياسي وبدقة فائقة. ولذا علينا أن نعترف بأن **استراتيجية تحديد المواقع الجغرافية للعدو قد فقدت قيمتها نهائياً**. وعلى العكس من ذلك فإنّ هذه القيمة الاستراتيجية أصبحت تُعزى إلى **عدم ثبات وسيلة النقل العسكرية** نظراً إلى أنها في حركة دائمة. ومهما كان موضع حركتها في الجو أو في الفضاء أو في أعماق البحر أو تحت

---

(٣) الانبجار أو الانفجار نحو الداخل (implosion) هو عملية تتعرض لها الأشياء نتيجة انهيارها داخلياً أو تعرضها لضغط من داخلها (المترجم).

الأرض فالمُعتمد على الدوام هو سرعتها وقدرتها على إخفاء مسارها.

لقد انتهى بنا أمر حرب القوى المُمَكْنَنَة المتحركة إلى **استراتيجية الحركات البراونية**[٤] بما هي نوع من الحرب الكرونولوجية المنتظمة التي عوضت الحرب الشعبية والطوبوغرافية القديمة، وذلك بتطبيق جيواستراتيجيا تجعل من المعمورة كُلاً متجانساً. وللتذكير فإنّ هذه الجيواستراتيجا كان قد أعلن عنها عالم الجغرافيا الإنكليزي ماكيندر Mackinder منذ نهاية القرن التاسع عشر من خلال نظريته عن «قلب العالم»، التي تقول بأن أوروبا وآسيا وإفريقيا تشكل مجتمعة قارة واحدة في مقابل القارة الأمريكية. ويبدو أن لهذه النظرية امتدادات اليوم في ما يعرف بلا جدوى استراتيجية تحديد مواقع العدو. ولكن ينبغي الانتباه أيضاً إلى أنّ لاتمايز المواقع الجيواستراتيجية ليس النتيجة الوحيدة لتطور فعالية وسائل النقل الحربية؛ فبعد سعي الإمبريالية[٥] البحرية والجوية نحو تحقيق تجانسية العالم، وإثر تحقق ذلك، ها نحن اليوم إزاء **استراتيجية فضائية جديدة قوامها استعمال أصغر التقنيات وأجودها**.

أعلن الجنرال شاسان Chassin سنة ١٩٥٥ أنّ «كروية الأرض لم تدرس بما فيه الكفاية من وجهة النظر العسكرية»، وسرعان ما أنجز حرّ ما وعد... فاحتداب الأرض ما فتئ يتقلص بتطوّر مدى الأسلحة. وبالنتيجة فإنّ تسارع إيقاع «سباق» التسلح سيحوّل الكوكب كلّه إلى كتلة واحدة، وليس القارات فقط. وإنه لمن المدهش أن نظريتَي الانجراف القاري والصفائح التكتونية[٦] للجغرافي والفيزيائي فيجنر، واللتان تزامنتا ونظريةَ الاندماج القاري الجيواستراتيجي للجغرافي ماكندر، قد حلّت محلهما ظاهرة أرضية وتقنية تتمثل في تقلص العالم ونقصانه. هذه الظاهرة وضعتنا اليوم إزاء عالم طوبولوجي مصطنع، فكل مساحات الكرة الأرضية تقف مواجهة بعضها بعضاً.

لقد انتهت بصورة مفاجئة الحرب بين المدن وبين الأمم كما انتهى الصراع المحتدم بين الممالك البحرية والقوى البرية ليتركا مكانهما لصراع

---

(٤) نسبة إلى عالم الأحياء روبرت براون (Robert Brown)، وتعني الحركةَ العشوائية لجزيئات ميكرونية في مادة مائعة (سائل أو غاز) (المترجم).

(٥) يستعمل المؤلف مصطلح إمبريالية في هذا السياق بمعناه الأول، أي بمعنى «التوسع بقوة السلاح» (المترجم).

(٦) هي النظرية العلمية التي تصف الحركات الكبرى لغلاف الأرض الصخري (المترجم).

غريب الأطوار **تتماس فيه كل المواقع وكل المواد وتتجاور**. فكتلة كوكبنا لم تعد سوى «كتلة حرجة»[٧]، وراسبٍ[٨] ناتج عن تقليص زمن التفاعل إلى أقصى حد ممكن، واحتكاك مرعب بين أماكن وعناصر كانت إلى وقت قريب متمايزة ومنفصلة عن بعضها البعض بوساطة حاجز المسافة، الذي أضحى فجأة ملغياً. كتب ألفراد فيجنر في مؤلف له صدر سنة ١٩١٥ بعنوان «**تكوّن القارات والمحيطات** *La genèse des continents et des océans*»: «**في البدء لم يكن للأرض سوى سطح واحد**»، وهو أمر يرجحه اليوم تنامي قدرة الصلات البينية، فمستقبلاً لن تكون الأرض سوى جملةِ الأسطحِ البينية.

فإذا كانت السرعة تبدو من التداعيات الأساسية الأكيدة لأساليب الصراع والحرب فإنّ «السباق الحالي نحو التسلح» ليس في النهاية سوى «**تسليح للسباق**» **نحو إفناء العالم باعتباره مسافة، أي باعتباره مجالاً للفعل.**

إن عبارة «الردع» تكشف عن هذه الوضعية الملغزة التي يؤمّن فيها السيفُ الحمايةَ بدل الدرع، وتكون فيها المقدرة على أذية الخصم ومهاجمته هي [الطريقة] الوحيدة الكفيلة بالدفاع عن النفس بشكل كامل في مواجهة القدرات «الانفجارية» للأسلحة الاستراتيجية. ولكنها [في المقابل] عاجزة كل العجز عن مواجهة القدرات «الانبجارية» لفعالية وسائل النقل الحربية. ووفق هذا الوضع المعكوس فإنّ الحفاظ على مصداقية «قوة الردع» يتطلب تجويداً مستمراً لأداء المعدات الحربية، وبعبارة أخرى تطويراً لقدراتها على طي المسافات [بالمعنى الحقيقي للكلمة]. وبالفعل فمن دون عنف السرعة فإنّ عنف الأسلحة لم يكن ليمثل كلّ هذا الخطر. وهكذا فإن **نزع السلاح يعني اليوم، في المقام الأول، التخفيض في السرعة**، أي نزع سلاح السباق نحو النهاية. **فكل معاهدة لا تنص على خفض سرعة هذا السباق** (سرعة وسائل الاتصال التدميرية) **لن تحدّ من** [انتشار] **الأسلحة الاستراتيجية**، لأن أهم ما ستتضمنه الاستراتيجية مستقبلاً هو عدم الاهتمام بالوسائل الحربية مجهولة المكان، فذلك كفيل بربح بضع جزيئات من الثواني الضرورية لحرية الفعل. ومصداقاً لذلك كتب الجنرال فوللر: «عندما كان المقاتلون يستعملون

---

(٧) بمعنى كتلة انشطارية. لمزيد من التفاصيل راجع كيفية تصميم السلاح النووي وأنواع القنابل النووية (المترجم).

(٨) الراسب هو عملية تشكل جسم صلب في محلول من خلال تفاعل كيميائي (المترجم).

الرماح فإنّ سرعة هذا السلاح كانت تمكنّ من رؤيته وهو منطلق في مساره، ومن ثَمَّ كان يمكن تفاديه باستعمال الدرع؛ ولكن عندما حلّت الرصاصة محل الرمح أصبحت سرعتها أكبر بحيث بات من المستحيل تفاديها» بحركة مراوغة من الجسم، ولكن يمكن تفاديها بالانسحاب خارج مدى السلاح الذي أطلقها، كما يمكن تفاديها بالاختباء خلف ما هو أكبر من الدرع، أي الخندق؛ بعبارة أوضح يمكن تفادي الرصاصة بفضل الفضاء والمادة.

في الوقت الراهن تم اختصار وقت الإنذار [بحصول هجوم معادٍ] بسبب سرعة وسائل الهجوم الخارقة لجدار الصوت، ذلك أنّ هذه السرعة لا تترك الوقت الكافي [للقيادة] حتى تحدد موضع المهاجمين وهويتهم فتصدهم، مما يحتم في حالة هجوم مباغت أن تغامر القيادات العليا بأن تتنازل عن صلاحيتها في اتخاذ القرار لأصغر رتبة في المنظومة الدفاعية حتى تطلق على الفور الصواريخ المضادة للصواريخ. ولكنّ القوتين السياسيتين العظيمتين اختارتا التوافق لتجنب هذه الوضعية متخليتين في الآن نفسه عن منظومة الدفاع الصاروخية.

إنّ أقلّ ما تتطلبه منظومة الدفاع النشطة يتمثل في امتلاكها الوقت الكافي للتدخل في ظل عدم امتلاكها الفضاء. ولكن في خضم التسريع بتطوير فعالية وسائل الاتصال التدميرية يتوارى ذلك «العتاد الحربي»، فلا يبقى هناك سوى الدفاع السلبي الذي لا يتمثل في إحكام تصليب قوات [المنظومة الدفاعية] في مواجهة قوة السلاح النووي الميقاتونية بقدر ما يتمثل في تعبئة هذه القوات لتقوم بسلسلة من التحركات الدائمة والغامضة والفاقدة للمعنى، أي تحركات فعالة من وجهة نظر استراتيجية.. إلى حين أو هكذا نتصور الأمر. وبالفعل فإنّ الحرب ترتكز اليوم على التخلص من ضوابط المكان والزمان؛ ولهذا السبب حلّت الاستراتيجية **التقنية** التي تعمل على تطوير قدرات وسائل النقل الحربية بصفة نهائية محلّ الاستراتيجية **التكتيكية** الميدانية، كما بيناه آنفاً. وقد أوضح ذلك الجنرال أيلورات Ailleret عندما قال في كتابه «**تاريخ التسلح** *Histoire de l'armement*»: «**إن تحديد برامج التسلح قد أضحى أحد العناصر الأساسية في الاستراتيجيا**». فإذا كان الحديث عن الحرب التقليدية يجرنا إلى الحديث عن جيش يقوم بمناورات في الريف فإننا في الوضع الراهن نقول: لو قُدّر لهذه المناورات أن تجري فلن تحتاج إلى «ريف»، لأنّ

اجتياح اللحظة قد حلّ محل غزو الميدان، والعد التنازلي أضحى موضع المجابهة وآخر التخوم.

بمقدور الكتل المتعادية أن تحظر بسهولة خيار الحرب الجرثومية والجيوديسية[٩] وحرب الأرصاد الجوية، ولكن الإشكال الحقيقي في الوقت الراهن تثيره معاهدة سالت ١ (S.A.L.T.1) للحد من الأسلحة الاستراتيجية، إذ لم يعد الأمر متعلقاً بموضوع الانفجار بل بناقل السلاح، **حامل الأسلحة النووية**، وإذا أردنا الدقة فإن الأمر يتعلق بفعالية هذا الحامل؛ والسبب في ذلك واضح، فإذا كانت مخلفات الانفجار (الجزيئية أو النووية) تجعل الفضاء غير صالح للحياة فإنّ مخلفات الانبجار (الوسائل الناقلة للسلاح) هي التي لا تسعف المعنيين بالوقت الكافي للرد عسكرياً ولأخذ القرار سياسياً. لقد شكّل الانفجار النووي منذ أكثر من ثلاثين سنة خاتمة لدورة حروب الفضاء، وأمّا في نهاية هذا القرن فإنّ الانبجار قد دشّن (علاوة على المساحات التي تم غزوها سياسياً واقتصادياً) [دورة] **حرب الوقت**. فعلى الرغم من التعايش السلمي السائد وعلى الرغم من غياب أي تصريحات عدائية، وبالتأكيد أي نوع من الصراعات، فإنّ السرعة تنتزعنا من هذا العالم؛ لذلك علينا الصَّدْع بالحقيقة: السرعة في وقتنا الراهن مرادفة للحرب، بل هي منتهى كلّ الحروب.

لنعد بالذاكرة لخمس عشرة سنة خلت، أي إلى سنة ١٩٦٢، إلى ذروة قضية كوبا؛ في ذلك الزمن كان الوقت المحدد للقوّتين العظميين للإنذار بشن الحرب لا يتجاوز **خمس عشرة دقيقة**، غير أنّ نصب صواريخ روسية في جزيرة كاسترو كاد يخفض مدة الإنذار الأمريكي إلى **ثلاثين ثانية** فقط؛ لقد كان الأمر مرفوضاً من قبل الرئيس كيندي مهما كلفه من مخاطر. بقية القصة نعرفها: فتح **الخط الهاتفي الأحمر المباشر** وتبادل المكالمات الهاتفية بين زعيمي الدولتين.

بعد عشر سنوات، أي سنة ١٩٧٢، تقلصت فترة الإنذار إلى بضع دقائق فكانت عشر دقائق بالنسبة إلى الصواريخ الباليستية ودقيقتين اثنتين فقط بالنسبة إلى أسلحة الأقمار الصناعية. ومع ذلك وقّع نيكسون وبريجنيف في موسكو معاهدة الحدّ من الأسلحة الاستراتيجية. وفي الحقيقة فإنّ تلك المعاهدة لم

---

(٩) الجيوديسيا (Géodésie) علم يبحث في موضوعات تتصل بحجم الأرض وشكلها وأبعادها وباطنها ومجالها المغناطيسي (المترجم).

تكن تهدف إلى تقليص عدد الأسلحة كما زعم الإخوة/الأعداء بقدر ما كانت تهدف إلى الحفاظ على نظام سياسي «إنساني» بأتم معنى الكلمة. والأمر مرتبط بالتطور المستمر للسرعة الذي يوشك بين يوم وآخر أن يقلص فترة الإنذار بحرب نووية إلى **أقل من الدقيقة المصيرية**، مبطلاً بذلك كل مستطاع رئيس الدولة على التفكير واتخاذ القرار، فيكون القرار بكل بساطة آلياً تتكفل به الأنظمة الدفاعية. وهكذا فإنّ بعض برامج الحاسب الاستراتيجية هي التي ستتكفل لوحدها مستقبلاً بإعلان الحرب؛ **فبعد أن كانت آلة الحرب بكل قدراتها التدميرية تعادل حرباً شاملة** باعتبار أنّ غواصة الصواريخ الباليستية النووية، على سبيل المثال، قادرة بمفردها على تدمير خمسمئة مدينة، فإنّ هذه الآلة أصبحت فجأة بفضل ردود الفعل الآلية للحاسب الاستراتيجي قرار الحرب نفسه. فما الذي تبقّى إذاً من أسباب الردع «السياسية»؟ لنتذكر أنّ من بين المسوغات التي استند إليها الجنرال ديغول de Gaulle سنة ١٩٦٢ لطلب مصادقة الشعب على قراره بأن يتم انتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الاقتراع العام مصداقيةَ سياسة الردع ومشروعية الاستفتاء باعتباره عنصراً أساسياً من عناصر هذه السياسة نفسها.. فما الذي استبقاه الردع الآلي وكذا القرار الآلي من كل ذلك؟

لم يكن علينا أن ننتظر سوى بضعة عقود كي نمر من **حالة الحصار** المرتبطة بحروب المكان إلى **حالة الطوارئ** المرتبطة بحرب الوقت، ولكي يتوارى الزمن السياسي لرجل الدولة ليحل محله الزمن اللاسياسي لجهاز الدولة. وإنه لحري بنا إزاء ميلاد هذا النظام الجديد أن ندرك أننا في مواجهة ظاهرة أكبر من أن تكون مجرد ظاهرة زمنية. لقد **اكتمل زمن عالمنا المحدود** في نهاية هذا القرن، لذلك نحن نعيش مقدمات تحسين غريب للفعل، ذاك الذي فضّل آخرون نعته بالآلي. كتب أندراي ستراتون Andrew Stratton موضحاً: «جرت العادة أن نعتبر الفعل الآلي بديلاً عن إمكانية الخطأ البشري؛ ولكن الحقيقة أن الفعل الآلي ينقل هذه الإمكانية من مرحلة الفعل إلى مرحلة المفهوم. لقد أدركنا اليوم مرحلةً تكون فيها احتمالات حصول حادث أثناء اللحظات الحرجة التي تحط فيها طائرة مسيّرة آلياً أقل مما لو كانت مسيّرة بشرياً. ولنا أن نأمل بإمكانية الوصول إلى مرحلة يتم فيها التحكم آلياً في الأسلحة النووية حتى يكون هامش خطئها أقل من هامش

الخطأ البشري. ولكن التطور المحتمل قد لا يسعف القرار البشري بالوقت الكافي للتأثير في سير النظام الآلي للسلاح النووي».

إنه أمر عبقري، فتقلص الزمن واندثار المجال الأرضي بعد اندثار المدينة المحصنة والدرع يفضيان إلى أن مفهومَي الأَمَام والخَلْف لم يعد لهما في النهاية من معنى سوى دلالتهما على المستقبل والماضي ضمن شكل من الحرب ينزع فيها «الفعل المضارع» إلى أن يضمحل في آنية القرار.

وهكذا فإنّ السلطة النهائية لن تكون سلطة الفكر بقدر ما ستكون سلطة التوقع، إلى درجة أن مفردة حَكَم **لن تعني مستقبلاً سوى** توقّع وحاكى وخزّن هذه المحاكاة في الذاكرة، وإلى درجة أن «معهد البحوث» الحالي يمكن أن نأخذه على أنه نموذج، بالحجم الطبيعي، من سلطة التوقع.... فخسارة الفضاء المادي يؤدي بنا إلى أن لا نتحكم سوى في الوقت. إن **وزارة الوقت** الموشومة على واجهة كل ناقل للسلاح يكتمل معناها باكتمال حجم أكبر ناقل ممكن للسلاح، ألا وهو **الدولة ـ الناقلة**. كل التاريخ والجغرافيا المتعلقين باقتسام الأراضي والدول سينتهي ليحل محله أمر وحيد، هو **رتق فتوق الوقت**. فليست السلطة سوى شيء شبيه بـ «التوقعات»، هي ضرب من التوهم الهش سرعان ما تتحول فيه السرعة إلى قدر، إلى ضرب من التقدم، أي إلى «حضارة» يشكل فيها كل نمط من السرعة «قطاعاً» زمنياً.

كتب ماكيندر بأن قوى الدفع تعمل دوماً في نفس الاتجاه، وأنّ هذا الاتجاه الوحيد للنظرية الجيوسياسية هو ذاك الذي يقود إلى **الاستبدال** الفوري بين الأشياء والأماكن. فليست الحرب كما زعم فوخ Foch «ورشة نار» متوهماً مستقبلاً ما للمواد الكيمائية المتفجرة، بل كانت منذ الأزل معملاً للحركة ومصنعاً للسرعة. إن **الفتوح التكنولوجية**، آخر شكل من أشكال حرب الحركة، قد أفضت بفضل معاضدة مع سياسة الردع إلى اضمحلال ما كان **يفصل** [بين السلم والحرب]، بل إلى اضمحلال ما كان **يميّزهما**، وإن غياب التمييز هذا يحيل في رأينا على عمى سياسي. وبإمكاننا التأكد من ذلك بمجرد قراءة مرسوم ٧ كانون الثاني/يناير ١٩٥٩ الذي أصدره الجنرال ديغول، إذ أُلغي فيه الفرق بين زمن السلم وزمن الحرب. من ناحية أخرى، فطوال نفس هذه المدة، وعلى الرغم من الاستثناء الفييتنامي، الذي يؤكد القاعدة، تقلصت مدة الحرب من بضع سنوات إلى بضعة أيام، بل إلى

سويعات. وفي الستينيات حصل تحوّل مهم، إذ **انتقلنا من زمن الحرب إلى حرب زمن السلم**، ذلك السلم الشامل الذي ما زال البعض يسمّيه «التعايش السلمي». إن السرعة العمياء لوسائل الاتصال التدميرية ليست تحريراً للإنسان من العبودية الجيوسياسية، بل هي إبادة للفضاء باعتباره مجال حرية الفعل السياسي. ويكفينا فقط أن نحيل على عمليات المراقبة والتثبت والإكراهات التي تفرضها [علينا] البنى التحتية من سكك حديدية ومطارات وطرق سيارة كي ندرك حجم هذا الضغط الكارثي، فكلما زادت السرعة تناقصت الحرية. إن الجهاز ذاتي الدفع يؤدي في النهاية إلى اكتفاء الحركة الآلية بذاتها. وإنّ ما يحدث في حالة سائق سيارات السباق من ترقب قلقٍ لاحتمال حصول كارثة أثناء قيادته للسيارة يتم استنساخه في الميدان السياسي عندما تحتّم الظروف إنجاز العمل في وقت حقيقي[١٠].

وأقدّم فيما يلي مثالاً لوضعية أزمة: «عند انطلاق حرب الأيام الستة سنة ١٩٦٧ كان الرئيس جونسون Johnson في مركز القيادة بالبيت الأبيض يدير باليمنى دقّة الأسطول السادس ويضع اليسرى على الهاتف الأحمر. لقد برزت أهمية الجمع بين هاتين الحركتين عندما تصدت طائرات إحدى سفن الأسطول لهجوم إسرائيلي على سفينة الاستطلاع ليبرتي Liberty. أما سلطات موسكو فقد كانت تحلل كلّ ما يظهر على شاشات الرادار بنفس حرص سلطات واشنطن، فهل سيفسّر السوفيات تغير مسار الطائرات وتوجيهه على أنه عمل عدائي؟ هنا تبرز الحاجة إلى الهاتف الأحمر، فقد طمأنت واشنطن موسكو بأن شرحت لها على الفور دوافع تلك العملية» (هارفي ويلهر Harvey Weelher).

من خلال هذا النموذج من الفعل السياسي الاستراتيجي المنجز في وقت حقيقي يبدو رئيس الجمهورية «قائد دفة السفينة العظيم» فعلياً. ولكن طبيعة قائد الشعوب التاريخي المهاب تركت مكانها لشخصية أكثر ابتذالاً وتفاهة من شخصية «طيّار في طور الاختبار» يحاول جاهداً أن يعالج طائرته في هامش ضيّق من حرية [الحركة].

لقد مرت عشر سنوات على «حالة الأزمة» هذه. ولكن السباق نحو

---

(١٠) يمثل هذا الوقت، من جهة السيطرة، الوظيفة التي يؤديها الحقل الزمني عندما يتعاضد داخله التصور والقرار والفعل.

التسلح زاد من تقليص هامش الأمان السياسي حتى أشرفنا على حافة وضعية حرجة قد تُبطل فيها «دولة الطوارئ» كلّ إمكانية لفعل سياسي بشري حقيقي، وقد تلغى فيها كل الاتصالات الهاتفية بين رجال الدولة ليستعاض عنها بتواصل أنظمة الحاسوب بعضها ببعض، فهي آلات حديثة بإمكانها إعداد الاستراتيجية ومن ثمة السياسة. (لنذكّر بأن المهمة الأولى التي أُنيطت بالحواسيب تمثلت في حلّ سلسلة من المعادلات الرياضية المعقدة دفعة واحدة في سبيل أن يتقاطع مسار مقذوفات المدفعية المضادة للطيران مع مسار الطائرة فتصيبها).

والمثال الساطع هو ما نشهده من تصادم بين الأجهزة سليلة «الجيل الهجين»، من ذلك الاحتكاك الكبير بين القطع [الحربية المتقابلة] **بحيث تكون فورية المعلومة سبباً فورياً في الأزمة**، ومن ذلك هشاشة القدرة على التفكير باعتبارها نتيجة حتمية لعملية تقليص الفعل الناتجة بدورها عن ظاهرة تقليص الفضاء باعتباره مجالاً للفعل.

وإن لمسة بسيطة لإرادية للوحة مفاتيح حاسوب، أو نظرة عابرة يلقيها ربّان طائرة حربية فيلمح من خلالها حزمة بسكويت ملفوفة في شريط لاصق[١١]، يمكنهما أن تطلقا سلسلة من الردود الكارثية كانت قبل اليوم من باب اللامفكر فيه. ولكننا نتعمد تجاهل الحقيقة التالية: ليس تزايد انتشار الأسلحة النووية بسبب إمكانية حيازة السلاح النووي من قبل جهات لامسؤولة هو الخطر الوحيد، بل يوجد خطر آخر هو خطر انتشار نواقل هذا السلاح النووي التي تعفي موضوعياً مالكيها أو مستأجريها من كل مسؤولية.

[وعلى سبيل المثال] كانت باريس في بداية الأربعينيات تبعد عن الحدود مسيرة ستة أيام مشياً وثلاث ساعات بالسيارة وساعة طيراناً... ولكنها اليوم لا تبعد سوى بضع دقائق عن أي مكان في العالم، كما أنّ أي مكان لا يبعد عن أقصى نقطة فيها سوى بضع دقائق. [هذا الوضع] الجديد حتّم على الذين كانوا ينصبون أسلحتهم التدميرية على مقربة من أرض العدو، كما كانت الحال في أزمة الصواريخ الكوبية، قلب استراتيجيتهم رأساً على عقب. إن التوجه الحالي في هذا السياق يركز على التحرر من

(١١) أي أنها بدت له وكأنها قنبلة موقوتة (المترجم).

الجغرافيا. ولا تفسير لهذه الحركة **النكوصية** سوى [أنها ناتجة عن] تطور ناقلات السلاح التدميري وتضاعف مداها، (من أمثلة ذلك أنه أصبح مدى الصواريخ الجديدة للغواصة الأمريكية ترايدنت Trident ما بين ثمانية آلاف وعشرة آلاف كلم، في حين كان مدى الصواريخ السابقة من نوع بوسيدون Poséidon ما بين أربعة آلاف وخمسة آلاف كلم).

وهكذا لن تجوب اليوم مختلف القوى النووية الاستراتيجية (الأمريكية والسوفياتية) أرجاء الأرض بحثاً عن أهداف للعدو، إذ بإمكانها التراجع إلى داخل مياهها الإقليمية. هذا ما يؤكد تخليها عن هذا النوع من الصراع الجيواستراتيجي؛ فبعد تخليها المتبادل عن الحرب الجيوديسية كان تخلّيها عن قواعدها المتقدمة منتظراً، وبالفعل تخلى الأمريكان، في مشهد [بدا] غريباً، عن سيادتهم على قناة بَنَما... وهذه إحدى علامات الزمان، زمان حرب الوقت.

وليكن واضحاً فهذا التراجع الاستراتيجي لا علاقة له بانسحاب الجيوش التقليدية «عن المناطق التي استولت عليها في سبيل ربح الوقت». فبفضل التراجع الناتج عن تطور مدى قاذفات الصواريخ الباليستية **نغنم فعلاً الوقت في مقابل التخلي عن الفضاء المخصص للقواعد المتقدمة (الثابتة أو المتحركة)، ولكن هذا الوقت يُغتنم لفائدة قواتنا** وفعالية معداتنا وليس لفائدة العدو بما أن العدو متحرر مثلنا بالضبط من [قيد] الجيواستراتيجيا. **إنّ الأمور تبدو وكأنها مفاجئة، وكأن المضي بسرعة كبيرة يجعل من ترسانة كلا الطرفين عدوهما الداخلي.** إن حركة انبجار القدرات الباليستية تهدف، مثل ارتداد طلق السلاح الناري، إلى امتصاص مجال [فعل] الأسلحة الاستراتيجية، وبالفعل فلو لم يقم الإخوة/الأعداء بسحب وسائلهم الاتصالية التدميرية إلى الخلف عبر الزيادة في مداها فإنّ السرعة القصوى لهذه الوسائل كانت ستتقلص إلى حد التخلّي نهائياً عن تحديد أي موعد لتشغيلها. ومثلما تخلّى طرفا اللعبة سنة ١٩٧٢ في [اجتماع] موسكو عن المشروع الدفاعي للصواريخ المضادة للصواريخ فإنهما ضيّعا بعد خمس سنوات إمكانية الاستفادة من فوائد السرعة، واكتفيا بغنيمة مؤقتة تمثلت في توسعة كبيرة لمجال صواريخهما العابرة للقارات. كلاهما يبدو متخوفاً من التأثير المضاعف للسرعة (مع سعيه، في المقابل، إلى الظفر به)، أي من هذا **النشاط السُّرعوي** «قرّة عين» الجيوش منذ الثورة الفرنسية.

إنّ **التراجع** الحالي عن معاهدات الحد من انتشار الأسلحة الاستراتيجية غريب، مما يحتم إعادة النظر في مبدأ الردع نفسه. لم تكن أبداً الغاية الأساسية من إلقاء الأسلحة القديمة أو إطلاق الحديثة منها قتل العدو أو تدميره وتدمير إمكانياته، بل ردعه، أي **دفعه إلى أن يوقف حركته الجارية**. ولا يهمّ إن كانت هذه الحركة الفيزيائية هي تلك التي ترمي إلى أن يحتوي الطرف المستهدف بالهجوم الطرف المهاجم له أم هي حركة اجتياح. هذا ما عبّر عنه عالم الاستراتيجية الصيني سي ما يانغ كينغ Se Ma Yang King بقوله: «يكون الجيش في منتهى قوته ما دام قادراً على الذهاب والإياب وعلى الانتشار والانسحاب أنّى شاء وكيف شاء».

ولكن منذ بضع سنوات تمّ تعطيل حرية الحركة هذه، والملاحظ أنّها لم تتعطل بفعل قدرات العدو على المقاومة ورد الفعل كما جرت العادة، ولكن بفعل فعالية قاذفات الأسلحة الاستراتيجية المستخدمة. وهكذا يبدو الردع وكأنه مرّ بصفة فجائية إلى مرحلة استعمال السلاح، أي بلغة أخرى مرحلة التفجير، أي إلى مرحلة حركة قاذفات الأسلحة الاستراتيجية كما لو أننا في آخر مرحلة من مراحل الردع النووي، ومرة أخرى لم يحسن الفاعلون في اللعبة الاستراتيجية العالمية التحكم فيها. وفي هذا السياق علينا مراجعة الحقائق الاستراتيجية والتكتيكية لعملية التسليح في سبيل إدراك [حقيقة] المسائل اللوجستية الراهنة. وكما قال سان تسو Sun Tsu: «الأسلحة هي أدوات تنذر بالشؤم»؛ فهي في المقام الأول مخيفة ومصدر خشية باعتبارها **تهديداً** حتى قبل استعمالها. إن خطورة الأسلحة تبرز من خلال ثلاث خاصيات:

- التهديد الذي تشكله فعاليتها لحظة اختراعها ولحظة إنتاجها.
- التهديد الذي يشكله استعمالها ضد العدو.
- أثر استعمالها المميت للأشخاص والمدمّر للممتلكات.

وإذا كانت الخاصيتان الأخيرتان هما، بكل أسف، معلومتين ومجرّبتين منذ مدة طويلة فإنّ الخاصية الأولى **(اللوجستية) المشؤومة، أي اختراع أسلحة فعّالة**، لم يُؤبه بها إلا قليلاً. ومع ذلك، ففي هذا المستوى يُطرح سؤال الردع: هل بالإمكان ردع عدو عن أن يخترع أسلحة جديدة أو أن يحسّن فعاليتها؟ بالتأكيد لا؛ ولذلك نحن أمام معضلة:

• إنّ التهديد باستعمال السلاح النووي (الخاصية الثانية) يمنع الرعب الناتج عن الاستعمال الفعلي للسلاح (الخاصية الثالثة)، ولكي يستمر هذا التهديد ويشرّع لاستراتيجية الردع ينبغي تطوير نظام التهديد الذي يميّز الخاصية الأولى، **أي تطوير نذير الشؤم المتمثل في بروز وسائل اتصال تدميرية ذات فعالية متجددة**؛ وبلغة أوضح: التجويد الدائم لأدوات القتال والاستعاضة عن الفتوحات الجغرافية بالفتوحات التكنولوجية، أي [إعداد] الاستراتيجيات اللوجستية الكبرى. [وفي هذا السياق] علينا الاعتراف بالحقيقة، فإذا كانت الأسلحة القديمة تردعنا بأن نكف عن الهجوم فإن **الأسلحة الجديدة تردعنا بأن نكفّ عن التسابق نحو التسلح**. وعلاوة على ذلك فإنّ البعد التكنولوجي (تكنولوجيا السرعة) لهذه الأسلحة الجديدة يقتضي تطوراً هندسياً ليس **لعدد** المعدات الحربية التدميرية بما أن قوتها قد زادت، ولكن **لفعاليتها** الإجمالية (يكفي أن نقارن في هذا المستوى بين ملايين المقذوفات التي استعملت في الحربين العالميتين وبضعة الآلاف من الصواريخ المحفوظة في الترسانات الحالية). لقد بلغت قوة التدمير حدودها الممكنة مع القنبلة الهيدروجينية، لذلك يتوجه الخصوم مرة أخرى نحو «الاستراتيجيات اللوجستية» المتمحورة حول قوة الاختراق ومرونة الاستعمال.

إنّ توازن الرعب في مرحلة التصنيع الحربي حيث التوازن منخرم باستمرار [بين الدول والأمم] وحيث يحتدم التنافس على أسواق السلاح، وهما عاملان من شأنهما الدفع نحو اختراع مستمر لأدوات تدمير جديدة، ليس سوى وهم، بل نحن لسنا عاجزين كلّ العجز عن التخلص مما صنعناه من أدوات تدمير (نفايات الصناعة الحربية التي تبدو عصية عن الرسكلة[١٢] أكثر من النفايات النووية) وحسب، بل أساساً عن تجنب خطر ظهورها.

وهكذا مرت الحرب منطقياً من مرحلة الفعل إلى مرحلة الفكرة التي تميّز، كما بينا ذلك سابقاً، [مرحلة] التشغيل الآلي [للمعدات الحربية]. عندما تعجز سياسة الردع عن التحكم في انتشار أنواع جديدة من أسلحة التدمير فإنّها تفضي في نهاية المطاف إلى إرساء سلسلة من الآلات ذاتية

(١٢) الرسكلة (إعادة التدوير) هي إعادة تصنيع النفايات الصناعية للاستفادة منها في مجالات أخرى (المترجم).

الاشتغال وجملة من الإجراءات الصناعية والعلمية المحافظة والمنفصلة عن كلّ خيار سياسي. ولكن عندما أصبحت الأسلحة الجديدة أسلحة «استراتيجية»، أي عندما جمعت بين الهجوم والدفاع، أصبح بإمكانها ردعنا عن السباق نحو التسلح، كما أصبحت الاستراتيجية اللوجستية لإنتاج هذه الأسلحة قدراً محتوماً فرضته وضعية اللاحرب. وهكذا وجدنا أنفسنا ندور في حلقة مفرغة، إذ نستجير من رمضاء التدمير بنار الإنتاج. فقد كفّت آلة الحرب أن تكون كلّ شيء في الحرب، بل **أصبحت العدو الأساسي للأطراف المتحاربة**، إذ هي تحرمهم حرية الحركة[١٣]؛ فبعد أن رضخت هذه الأطراف ذليلة لسياسة الردع ها هي تمارس سياسة الأسوأ، أو بالأحرى «لا سياسة الأسوأ». وهي السياسة التي تقود حتماً إلى وضع ستصبح فيه آلة الحرب يوماً ما هي التي تقرر الحرب، وبذلك يكتمل شرطا اكتفائها الذاتي: **التشغيل الآلي والردع**.

إن التجاور المستفز لعبارتَي **ردع وتشغيل آلي** يسمح لنا بفهم أفضل للمحور المؤطر للأحداث السياسية ـ العسكرية المعاصرة. وقد وضّح ذلك هـ. ويلّر H. Weeler بالقول: «إن المركزية الممكنة تكنولوجياً أصبحت ضرورة سياسياً». هذا المُختصَر يذكرنا بالمثل الشهير المنسوب لسان جوست: «تُضطهد الشعوب عندما تكون لديها قابلية الاضطهاد»[١٤]، مع فارقٍ هو أن هذا الاضطهاد التقني اللوجستي لم يعد يشمل الشعوب وحسب، بل يشمل «صانعي القرار» كذلك. فإذا كانت حرية التحرك (ذلك الاستعداد للحركة الذي يماثل الاستعداد للحرب) قد اقتضت بالأمس أن يتم تفويض سلطة القرار إلى المسؤول الأدنى فإننا نشهد اليوم، بفعل تقليص هامش المناورة الناتج عن تطور وسائل الاتصال التدميرية، تجميعاً مشطاً للمسؤوليات لدى صانع القرار الوحيد الذي هو رئيس الدولة. ومع ذلك لم ينتهِ هذا التقلص بعدُ، فهو لا يفتأ يزداد بتزايد السباق نحو التسلح وبازدياد وتيرة تنامي القدرات الجديدة لنواقل السلاح حتى يفضي إلى تجريد هذا الإنسان الأخير من كل مسؤولية. وبالفعل فالحركة التي تحدّ من عدد المقذوفات هي نفسها

---

(١٣) تمتلك غواصة الصواريخ الباليستية بمفردها قوة تدمير تعادل قوة كل المتفجرات التي استعملت طوال الحرب العالمية الثانية.

(١٤) نقترح هذه العبارات المستوحاة من فكرة مالك بن نبي الشهيرة عن «القابلية للاستعمار» ترجمة للمثل المنسوب لسان جوست (المترجم).

«Quand les peuples peuvent être opprimés, ils le sont».

التي تبطل نهائياً قرار شخص لا مرشد له أو تكاد، كما أنّ المناورة التي توجب اليوم التخلي عن الأراضي والقواعد المتقدمة هي نفسها التي ستفضي بنا يوماً ما إلى التخلي عن استقلالية القرار البشري لصالح التقليص النهائي للمجال السياسي، أي لصالح **التشغيل الآلي** [للمعدات الحربية].

فإذا كان **الانتصار** على عهد فريديك الأكبر هو **أن نمضي قدماً** فإنه لدى ساسة الردع أن **نتراجع** ونترك الأماكن والشعوب والأشخاص حيث هي. هذا التراجع يجعل تطوّر علم السرعة يشبه بشكل صارخ رد فعل محرك نفاث ناتج من قذف كمية محددة من الحركة (حاصل ضرب الكتلة في السرعة) **في الاتجاه المعاكس للسير**.

هذه **الحرب الراكدة** بين الشرق والغرب، والتي لم ترتبط زمنياً بوهم الحد من الأسلحة الاستراتيجية وحسب، بل ارتبطت بالتأكيد **بتقييد الاستراتيجية** نفسها، هي التي جعلت من قوة انفجار القنبلة الهيدروجينية أفقاً اصطناعياً للسباق من شأنه أن يضاعف من قوة انبجار وسائل نقل السلاح. إن استحالة إعاقة تطور قوة الاختراق بطريقة أخرى غير **الثقة في العدو** تفضي إلى إنكار دور الاستراتيجية بما هي **معرفة قَبْلية**، كما أن الخاصية الأوتوماتيكية، التي لم تعد حكراً على الأسلحة ووسائل نقلها بل تعدتها إلى عملية القيادة [نفسها]، تعني جحد ملكات **التفكير** Nicht raisonniren. إن فعالية تكتيك فريديريك الثاني العسكري[١٥] تكتمل بالردع الذي لا يقود إلى الحد من حرية الحركة والقرار وحسب، ولكن من حرية التصوّر [أيضاً]. والخلاصة أن منطق نُظُم السلاح ما فتئ يفلت من الكوادر العسكرية ليكون من مشمولات المهندس المكلف بالبحث والتطوير العِلمِيّين [في مرحلة أولى]، وإلى أن انتهى الأمر بطبيعة الحال إلى أن تشتغل هذه النظم آلياً.

كتب ألكسندر سانغينتي Alexandre Sanguinetti قبل عامين من الآن: «لقد أضحى من غير المعقول صناعة طائرات هجومية تتكلف صناعتها وصناعة قطع غيارها مليارات من الفرنكات لنقل قنابل ندمر بها محطة قطارات، **فليس هناك تناسب بين الكلفة والجدوى**». إن منطق الحرب العملية هذا،

---

(١٥) يتمثل هذا التكتيك في تقديم أحد أجنحة الجيش وإخفاء الآخر ومن ثم تعزيزه بالقلب.. إلخ، وخلاصته: «النصر هو أن نمضي قدماً» (المترجم).

حيث كلفة فعالية الناقل (الجوي) المحمّل وجوباً بسلاح نووي تكتيكي تؤدي آلياً إلى زيادة قدرته على التدمير، لا يرتبط بالطائرة الهجومية بل هو منطق الدولة كذلك. هذا الخور الفكري ناتج عن طريقة تصنيع وسائل الاتصال التدميرية، فخطر التسلح النووي وخطر نُظم السلاح التي تقتضيه لا يكمن في إمكانية انفجاره بقدر ما يكمن في استمرار وجوده وانبجاره داخل العقليات.

لنلخّص هذه الظاهرة:

• قنبلتان تعطلان نشوب الحرب في المحيط الهادئ وبضع عشرات من الغواصات النووية كافية لتأمين التعايش السلمي. هذا هو الجانب **العددي**.

• بظهور الرؤوس الحربية الهيدروجينية المتعددة وتطور السلاح النووي التكتيكي نشهد تصغيراً لحجم الحمولة المتفجرة. وهذا هو جانب **قياس الحجم**.

• بعد إبعاد الأسلحة الاستراتيجية إلى قاع الأرض أو البحر يتم إخلاء سطح الأرض من المعدات الدفاعية المتراكمة، وبعد الحدّ من عدد النقاط العسكرية الحساسة والقواعد المتقدمة نتخلى عن سعة الأرض. وهذا هو الجانب **الطوبوغرافي**.

• بعد أن كان قدامى زعماء الحرب ورجال الاستراتيجية وسواهم من القادة العسكريين هم الذين يقودون العمليات [القتالية] خُفضت رتبهم واقتصرت مهامهم على مجرد الصيانة في مقابل صعود نجم رئيس الدولة. وهذا هو الجانب **السياسي**.

ولكن هذا التآكل الكمي والنوعي لا يقف عند هذا الحدّ، إذ ينقصه جانب الوقت:

• على الرغم من أن القدرات الخارقة للصوت لناقلات السلاح الاستراتيجي ما فتئت تتطور فإنها أضحت مفوّتة مقارنة بالتكنولوجيات العالية التي قاربت سرعتها سرعة الضوء. وهذا هو الجانب **الفضائي ـ الزماني**.

وهكذا نجد أنفسنا إزاء أفول زمن سياسة النسبية بعد أفول زمن النسبية السياسية للدولة، ذلك الوسط العصي على الترويض. إن **التفريغ الكامل** الذي كان كلاوزفيتش يخشاه قد حصل مع دولة الطوارئ. لقد أصبح عنف السرعة موضعاً وقانوناً في الآن نفسه، قدرَ العالم ووجهتَه.

أيلول/ سبتمبر ١٩٧٧

قائمة المصطلحات(*)

Accélération	تسارع
Activité vitesse	نشاط سرعوي
Agora	الساحة اليونانية
Aménagement	تنظيم/ تهيئة
Amphibie	هجين/ برمائي
Anneau topologique	الحلقة الطوبولوجية
Anomie	اللامعيارية/ التفكك
Anthropocentrisme	مركزية الإنسان
Anthropogénèse	علم تطوّر النوع البشري
Anthropophages	غيلان
Apartidaire	غير حزبي
Arraisonnement	عقلنة
Armée Brune	كتيبة القمصان البنيّة
Arriération	خوَر
Ascension	صعود
Assaut	هجوم/ اقتحام/ صولة/ انقضاض
Astreinte à résidence	الإقامة الجبرية

(*) المصطلحات المكتوبة بخط غليظ من إبداعاتنا.

Attraction	الدعاية التسويقية
Austérité	التقشف
Automation	آلية
Automobilité	الحركة الذاتية/ الدفع الذاتي
Balistes	العرّادات
Bandes	جموع
Banqueroute	الإفلاس
Barraquement	ثكنة
Basse-cour	إصطبل القلعة
Bastide	منتجع ريفي
Bât	حمل الأثقال
Beat-génération	جيل البيتلز
Bellicisme	الاحترابية
Bestiaire	قربان حيواني
Bestial	حيواني/ متعلق بالماشية
Boite de vitesse	علبة السرعة
Bourgeoisie communale	البورجوازية البلدية
Bourgeoisie d'entreprise	بورجوازية الأعمال
Bourgeoisie enclavée	بورجوازية الجيوب الداخلية/ البورجوازية المعزولة
Bow-window	الشرفات التقليدية
Brassier	العامل مقابل مؤنته
Bride	عنان
Cadastral (droit)	قانون المسح العقاري
Calculateur stratégique	الحاسب الاستراتيجي
Camps de rééducation	مراكز إعادة التأهيل

Capitalisation	الرسملة
Capitulaires	الدفاتر القانونية
Carambolage	الاشتباك
Carrefour	تقاطع الطرق
Cascadeur	ممثل وثّاب
Castra métreur	الطوبوغرافي
Catapultes	المنجنيقات
Célérité	السرعة
Centralisme	المركزة
Centuriation	تجزئة الأرض
Char d'assaut	دبابة هجومية
Château à motte	قصر مبني على رابية ترابية
Château fort	القلعة
Cheptel	الأنعام (الماشية)
Chicanes	المماشي المتعرجة
Chronométrique	كرونومتري
Chrono-photographie	عملية التصوير المتتابع
Cinétique	حركي
Circulation	حركة المرور/ التنقل/ الحركة
Circulation habitable	**الاستيطان السائل**
Citadelle	القلعة
Cloaque	بالوعة
Code noir	القانون الأسود
Cohorte	رهط
Collision	تصادم

Commune	بلدة/ بلدية/ كومونة
Compradore	كمبرادور
Compromis historique	التسوية التاريخية
Compromissions	التسويات
Confins	المنطقة الفاصلة
Conglomérat	خليط اجتماعي
Congo plains	بطائح العبيد
Continental	قارّي/ أوروبي
Contraction	التقلص/ النقصان
Contrôle social	الضبط الاجتماعي
Corps bioniques	الأجساد البيو ـ تقنية
Corps du génie	هيئة المهندسين العسكريين
Corps sans Ames	أجساد مسلوبة الإرادة
Corps vitesse	الجسم المقدام
Courbure	الاحتداب
Courroie de transmission	صلة الوصل/ عنان اللجام
Corruption	اختلال
Corvée	السخرة
Crédits	الموارد المالية
Cuirassés	سفن البرّ
Déballage	النهب
Débarcadère	ميناء
Décélérer	خفّض السرعة
Décharge	التفريغ
Déclamations	خطب

Défrichement	تجديب الأرض
Délation	رصد/ وشاية/ جوسسة
Déliquescence	انهيار
Démobilisation	تسريح الجنود
Demôs	الشعب
Déplacement	الاقتلاع
Déportation	النفي
Dépôt	مَعزَل
Dérégulations	الضوابط
Dérive des plaques	نظرية الصفائح التكتونية
Désertion	الفرار من الجندية
Désinformation	التضليل
Désintégration	التحلل
Désurbanisation	التخريب العمراني
Déterritorialisation	انعدام التأرضن/ انسلاب الأرض
Disparition	الاضمحلال
Dissident	المنشق
Dissuasion	الردع
Domestication	الاستئناس
Donjon	البرج
Doublure	الممثل المعوّض
Dressage	الترويض
Dromocratie	سلطة السرعة
Dromologie	علم السرعة
Dromomanes	الهائمون/ الهاربون من الخدمة العسكرية

Echangeur routier	محوّل طرقات
Ejection	قذف
Emeute	تمرد
Empires véhiculaires (de la mer)	**الجواري المنشآت**
Enceinte	القلعة
Enclosure	حظيرة الماشية/ زريبة
Enfants perdus	الفرقة المفقودة
Enfermement	العزل/ السجن
Engins	معدّات/ آلات
Enlèvement	الاختطاف
Entrepreneur	المرتزق
Estafette de l'épouvante	نذير الشؤم
Etalon	المعيار
Etat d'urgence/ état d'urgence	دولة الطوارئ/ حالة الطوارئ
Etat de siège	حالة الحصار
Ethnocide	حروب الإبادة العرقية
Ethologie	إيثيولوجيا
Evolutionnisme	تطوّرية
Excédents sociaux	الفواضل الاجتماعية
Exiguïté continentale	انحسار اليابسة
Explorateur	المستكشفون
Explosion	الانفجار
Extensif	شمولي
Extermination	التبديد
Fardier	عربة عسكرية

Faune	الحيوانات/ مجموعة حيوانية
Favelas	أحياء الصفيح
Femme de bât	المرأة العاملة
Fleet in being	أسطول الردع
Flibustier	مهرّب/ قرصان
Flore	النباتات
Fluidifforme	ذات الشكل السائل
Flux	موجات
Fondu-enchainé	تقنية البزوغ والأفول السينمائية
Food power	السلاح الأخضر
Forçats	المحكومون بالأشغال الشاقة
Force de frappe	قوة الردع
Forcing	الإجبار
Forteresse	القلعة
Fortification	تحصينات
Futurisme	المستقبلية
Galères	القوادس
Gangster	زعيم عصابة
Génie	هيئة المهندسين
Geste	البطولة
Gesticulation	حركة هائجة
Gigantifié	ضخم/ مضخّم
Glacis	حادور/ سطح
Glacis fortif	حادور محصن
Glacis militaire	حادور بحري/ رباط

Gorges	مضايق
Goulag	الغولاغ
Griserie	سحر
Guerre absolue	الحرب المطلقة
Guerre bactériologique	الحرب الجرثومية
Guerre civile	الحرب الأهلية
Guerre conventionnelle	الحرب التقليدية
Guerre d'usure	حرب الاستنزاف
Guerre de l'espace	حرب الفضاء
Guerre de masse	حرب الجماهير
Guerre de mouvement	حرب الحركة
Guerre de récession	الحرب الراكدة
Guerre déclarée	الحرب المعلنة
Guerre du Temps	حرب الوقت
Guerre-éclaire	الحرب الخاطفة
Guerre économique	الحرب الاقتصادية
Guerre froide	الحرب الباردة
Guerre géodésique	الحرب الجيوديسية
Guerre industrielle	الحرب الصناعية/ الحرب الممكننة
Guerre légitime	الحرب المشروعة
Guerre lente	الحرب البطيئة
Guerre libre	الحرب الحرة
Guerre météorologique	حرب الأرصاد الجوية
Guerre nationale	الحرب الوطنية
Guerre populaire	الحرب الشعبية

Guerre pratique	الحرب العملية
Guerre rapide	الحرب السريعة
Guerre sans merci	حرب بلا هوادة
Guerre terrestre	الحرب البرية
Guerre territoriale	الحرب الأرضية/ الحرب البرية
Guerre terroriste	الحرب الإرهابية
Guerre totale	الحرب الشاملة
Guerrier apatride	المحارب عديم الجنسية
Guet	برج المراقبة
Gyrovague	هائم
Habitat	السكن
Hinterland	مناطق نائية
Hospice	تكية/ دير
Hutte de terre	أكواخ الطين
Immobile	ثابت/ ساكن
Immobilisation	تجميد
Implosion	الانبجار
Inanition	التجويع
Incorporation	ارتباط
Indifférenciation	لا تمايز
Industrie	المهارة
Inertie	خمول/ عطالة
Insurrection	تمرد
Intensif	كثيف
Interlopes	المشبوهون/ المهرّبون

Invalidité militaire	عدم الأهلية للخدمة العسكرية
Invasion	غزو
Isolationnisme	سياسة الانعزال
Isthme	قناة
Janissaire	انكشاري
Jets-sets	الفئات الرأسمالية فاحشة الثراء، دائبة الحركة
Landes	البراري
Larisses pélagiques	الرباطات البحرية
Latinisation	ليتنة
Lazaret	المحجر البحري
Légaliste	قانوني
Levée	هبّة
Localisation	تحديد الموقع
Logement	المأوى
Loubard	الزعّار
Mach	الماخ
Mangeoires	معالف
Manipulation	تلاعب/ مخاتلة
Manœuvres	أعمال/ مناورات
Maquisards	ثوّار
Maréchaussée	الشرطة الخيّالة
Masse	حشد/ جمهور/ جماهير/ جموع
Masse critique	كتلة حرجة
Mégalopole	المدينة الضخمة الصاخبة
Mégatonnique	ميقاتوني

Mesures métriques	قياسات مترية
Métabolique	حيّ/ حيوي
Métamorphose	التحوّل
Métempsycose	فلسفة التقمص
Mètre courant	المتر ـ مساحة
Métropolitain	بحري
Meute	الحشد الهائج
Miniaturisation	تحسين/ تجويد
Minute fatidique	الدقيقة المصيرية
Mobilité	الحركة/ القدرة على الحركة
Moine militaire	مرابط
Monachisme	الرهبانية
Morts-vivants	**الهامات**
Motricité	القدرة على الحركة
Mouvement brownien	حركة بروانية
Mouvement tellurique	حركة الأرض
Multiforme	متعدد الشكل
Mutinerie	تمرد
Naturiste	طبيعاني
Nauta-cité	مدينة تقع على مرفأ نهري
Nef	السفينة الشراعية
Négoce	التجارة
New Deal	برنامج الصفقة الجديدة
Nihilisme	العدمية
Nœud	العقدة

Normalisation	عقلنة
Numérotage	الإحصاء
Ogives thermonucléaire	الرؤوس الحربية الهيدروجينية
Ordre de marche	أمر عسكري
étalon-or	المعيار الذهبي
refuge-or	قيمة آمنة
Orthopédie	جراحة العظام
Osmose	التواشج
Ost	نظام الخدمة العسكرية الإقطاعية
Palissades	الأسيجة الخشبية
Panache	قبعة مزيّنة
Parasitage	مسخ
Partage	التقسيم
Particulares	ضابط في فرقة خاصة
Paternaliste	أبوي
Pathfinder	المستكشف
Patriarches	الآباء
Pénétration	الاختراق
Perversion	تحريف/ ضلال
Pesanteur terrestre	جاذبية الأرض
Philanthropie	فعل الخير
Pilgrim's progress	رحلة الحاج
Place forte	المدينة المحصنة
Plaque de peuplement	دائرة سكانية
Plaques tournantes	ملتقى طرق

Plébiscite	استفتاء
Poliorcétique	حصار المدن
Polis	مدينة
Polyptiques	لوحات فنية
Pop-culture	الثقافة الشعبية
Possédé	مجذوب
Préavis	الإنذار
Précipité	راسب
Précurseur	رائد
Prédateur	لاحم
Prérogative	التميّز
Prêtre	كاهن
Procession	حركة موكبية
Projectiles	مقذوفات
Prolétarisation	خلق البروليتاريا/ توظيف البروليتاريا
Promontoire	الجبال الصخرية
Promptitude	السرعة
Protection sociale	الرعاية الاجتماعية
Prothèse	جراحة ترقيعية/ آلات مساعدة
Puritanisme	المذهب الطهراني
Quantificateur	محدد كمية الوجود
Quartier général	المقر الرئيسي
Quart-monde	العالم الرابع
Racket	الابتزاز
Raids	المغامرات

Rameur	المجدّف
Rançon	فدية
Rapprochement	التجاور
Rapt	خطف/ اختطاف
Raréfaction quantitative	التآكل الكمي
Ravalement	تجميل
Razzia de matelots	**غزوة ذات الصواري**
Réceptacle	فاغر
Recul	نكوص
Régression	التراجع
Relativité politique	النسبية السياسية
Remembrement du temps	**رتق فتوق الوقت**
Rempart	الاستحكامات الدفاعية
Répulsion	الإشهار المنفّر
Ressaut	كوة إطلاق النار
Retenue	العزل
Retraite	الانسحاب
Rétribution	أجر
Rodeurs des confins	جوّابو الآفاق
Rouliers de la mer	سفن الدحرجة
Routier	قاطع طريق
Sans-culotte	اللامتسرولون
Sea power	السلاح البحري
Section d'Assaut	كتيبة العاصفة
Servage	استعباد

Siège	حصار
Solitudes	خلوة/ براري
Sophistication	النجاعة
Sosie	**قرين**
Sous-marins	غواصات
Spartakiades	الألعاب الأولمبية الموازية
Spectre	الطيف
Standing	المنزلة الاجتماعية الرفيعة
Stationnement	التوقف
Subversif	جشع
Supersoniques	الطائرات الخارقة لجدار الصوت
Taillis	الأجمات
Talus	التلاع
Talus de terre	السدود الترابية
Tampon	حاجز
Taxation du sel	ضريبة الملح
Télescopage	تصادم
Territoire	مجال/ أرض
Théâtralisation	إظهار
Thermonucléaire (arme)	القنبلة الهيدروجينية
Tige	يخت
Timonier	قائد دفة السفينة
Totalitarisme	الأنظمة الشمولية
Tractations	الصفقات
Trafiquants	المهربون

Trajectoire	مسلك
Tranchée	الخندق
Translation continentale	الانجراف القاري
Transmigration	التناسخ
Transparence	وضوح الرؤية البصرية/ شفافية
Tribut	ضريبة
Trous	فتحات الرمي
Tumultes	اضطرابات
Tziganes	الغجر
Ubique	ذو نطاق واسع ودائم
Urbain	سكنى المدينة
Urbanité	التحضّر
Vagabondage	التشرّد
Vaisseaux	السفن الكبيرة
Valeur animale	قوة حيوانية
Valeur-refuge	قيمة آمنة
Va-nu-pieds	فرقة الحفاة
Vecteur	محور/ ناقل السلاح
Véhicule	مركوب/ آلة
Villes fortes	المدن المحصنة
Voirie	إدارة المواصلات
Word-Island	نظرية قلب العالم
Zombies	الجثث المتحركة

المراجع

كتب

الحباني، جاسم شهاب. **الهندسة الوصفية**. بغداد: الجامعة التكنولوجية، ١٩٨١م.

الحسيني، مازن. **قراءة في فكر روزا لكسمبورج**. رام الله: دار التنوير للنشر والترجمة والتوزيع؛ المركز الفلسطيني لقضايا السلام والديمقراطية، ٢٠٠٥م.

دولوز، جيل وفيليكس غاتاري. **ما هي الفلسفة؟**. ترجمة مطاع صفدي. بيروت: مركز الإنماء القومي؛ المركز الثقافي العربي، ١٩٩٧م. (مشروع مطاع صفدي للينابيع؛ ٩)

فيريليو، بول. **ماكينة الإبصار**. ترجمه حسان عباس. دمشق: دار المدى للطباعة والنشر، ٢٠٠١م.

كلاوزفيتش، كارل فون. **عن الحرب**. ترجمة سليم شاكر الإمامي. بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ١٩٩٧م.

ماركس، كارل. **رأس المال**. ترجمة فالح عبد الجبار. بيروت: دار الفارابي، ٢٠١٣م.

Books

Archives de Morimond (Haute-Marne), Clairvaux, Bibliothèques de Besançon et Carpentras, *L'ordre de Calatrava* par Francis Gutton. Paris: Lethielleux Libraire-éditeur, 1955.

Crivelli, Daniel. *La Fin de la crise*. Paris: Editions Bossard, 1932.

Depping, G. B. *Correspondances administratives sous Louis XIV*. Paris: Imprimerie Nationale, 1850.

Dubey, Georges. *Guerriers et paysans VII-XIIè siècle premier essor de l'économie européenne.* Paris: Gallimard, 1973.

Ferry, Abel. *La Guerre vue d'en bas et d'en haut: Lettres, notes, discours et rapports.* Paris: Grasset ed., 1920.

François-Poncet, André et Emile Mireaux. *La France et les Huit Heures.* Paris: Société d'études et d'informations économiques, 1922.

Goebbels, Joseph. *Combat pour Berlin.* Paris: Rémi de Rancourt pour les éditions J.D-MSR, 2004.

Huppert, Georges. *L'idée de l'histoire parfaite.* Traduit de l'américain par Françoise et Paulette Braudel. Paris: Flammarion, 1973.

Lazard, Pierre E. *Vauban.* Paris: Librairie Félix Alcan, 1934.

Marinetti, Filippo Tommaso. *Commentaire de Giovanni Lista.* Paris: Éditions Seghers, 1976. (Coll. «Poètes d'aujourd'hui»)

_____. *Manifeste du futurisme: Navigation Tactile.*

Marx, K. et F. Engels. *La Nouvelle gazette rhénane.*

Mumford, Lewis. *La Cité prochaine.* Paris: Editions du Seuil, 1964.

_____. *La Cité à travers l'histoire.* Paris: Esprit, [n. d.].

Nord, Pierre. *Double crime sur la Ligne Maginot.* Paris: Fayard, 1967.

Thiede, F. and E. Schmahe. *Die Fliegende Nation.* Berlin: Ed. Union Deutsche Verlaganstalt, 1933.

Toynbee, Arnold J. *War and Civilization.* London: Oxford University Press, 1950.

Virilio, Paul. *L'insécurité du territoire.* Paris: Stock, 1976. (Collection Monde Ouvert)

_____. *Essai sur l'insécurité du territoire.* Paris: Stock, 1976.

Wegener Alfred. *La Genèse des Continents et des Océans: Théorie des translations continentals.* Paris: Librairie Nizet et Bastard, 1937.

Young, Arthur. *Travels during the Years 1787, 1788 and 1789: Undertaken More Particularly with a View if Ascertaining the Cultivation, Wealth, Resources, and National Prosperity of the Kingdom of France.* London: [n. pb.], 1792.

Periodicals

«Circulation habitable.» *Architecture Principe:* no. 3, avril 1966.

Nilsson, M. P. «Die Grundlagen des spartanischen Lebens.» *Klio*: vol. 12, 1912.

Virilio, Paul. «La Guerre pure.» *Critique*: vol. 31, octobre 1975.

_____. «Métempsycose du passager.» *Traverses*: no. 8, mai 1977.

هذا الكتاب

السُّرعة والسِّياسة

من ثورة الشارع إلى الحق في الدولة

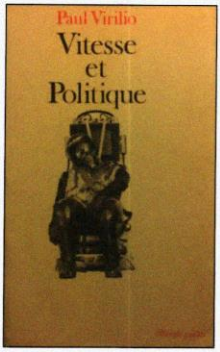

اشتهر بول فيريليو بكونه «فيلسوف السرعة». ولمّا كان وُلُوجه في هذا المجال الفلسفي من باب الهندسة المعماريّة والتخطيط العمراني فقد اهتم بالمجال الحضري باعتباره مجالاً سياسياً بامتياز. ومن ثَمَّ كانت خلاصة بحوثه أنّ الغرب لم يعرف ثورة سياسية وإنّما ثورة دروموليوجية (علم السرعة) ولم يعرف ثورة ديمقراطية وإنما ثورة دروموقراطية (سلطة السرعة).

لقد أضحت السرعة قدر العالم ومصيره. وبالنتيجة ليس هناك تعريف للدولة الحديثة ولا للثورة خارج إطار الحركة والشارع طالما أنّ النزول إلى الشارع أمر ملازم لكل الثورات. والشارع لا يكون إلاّ في المدينة. إنّ جذور السلطة منغرسة في الشارع. وهذا هو معنى تلك الشعارات التي يرفعها الثّوار في كلّ مكان وزمان:

« نحن باقون هنا، نحن مرابطون هنا ...سوف نبقى هنا ..»

إنّ الثورة لا تبلغ قيامتها في مواقع الإنتاج كما تنبّأ الماركسيون وإنّما في الشارع. لذلك، فإنّ أبواب المدن وجماركها والثكنات والسجون والملاجئ وإشارات المرور ومحطّات الاستخلاص.. هي كوابح تضعها الدولة أمام الحركة والأفكار أيّ أمام الثورة.

إنّ الدولة الحديثة هي في منتهى هذا التحليل مدينة Polis وشرطة Police تراقب الحركة Etat Voirie ، ذلك أنّ التحكّم في حركة المرور هو هاجس الدولة الحديثة حتى حدا بها الأمر إلى تربية الناس منذ المدرسة على احترام إشارات المرور. فالتحكّم في حركة المرور يعني في النهاية التحكّم في «حركة المرور» السياسية la circulation politique.

الثمن: ٦ دولارات
أو ما يعادلها

ISBN 978-614-431-155-4

الشبكة العربية للأبحاث والنشر

المكتب الرئيسي - بيروت

هاتف: ٠٠٩٦١١٧٣٩٨٧٧ - ٠٠٩٦١٧١٢٤٧٩٤٧

E-mail: info@arabiyanetwork.com